NIETZSCHE

فـــريدريك نيـــتـــشـــه

انســـان مفـــرط في انســـانيتـــه

كتاب العقول الحرة

I



ترجمة: محمد الناجي

أفريقيا الشـرق

انسان مفرط
في انسانيته
كتاب العقول الحرة

HUMAIN TROP HUMAIN
Collection Folio Essais
Editions Gallimard 1988

المؤلف - نيتشه
ترجمة - محمد الناجي
عنوان الكتاب
انسان مفرط في انسانيته
ج I
رقم الإيداع القانوني: 97/1210
ردمك: ISBN. 9981-25-076-7
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف: 259504 022 - 259813 022 - فاكس: 440080 022
أفريقيا الشرق - بيروت - لبنان
ص.ب. 3176 - 11

نيتشه



انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

الجزء الأول

أفريقيا الشرق

إهـــداء

إلى زوجتي ... وسائر الأحبة

بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة فولتير، 30 ماي 1778م.

لم يكن هذا الكتاب، هذا الحوار الداخلي الذي رأى النور أثناء إقامتي الشتوية في Sorrente(1877-1876)، لينشر الان لولا أن اقتراب 30 ماي1778 أثار لدي رغبة قوية في أن أقدم تحية شخصية، في الوقت المناسب، لواحد من أكبر محرري العقل.

بمثابة تقديم

«لقد قمت، لبعض الوقت، بتفحص مختلف الأعمال التي يتعاطاها الناس في هذا العالم، وحاولت أن أختار أفضلها. لكن يستحيل علي هنا أن أسرد الأفكار التي خامرتني آنذاك : يكفيني أن أقول أنه لم يبد لي شيء أفضل من الإتمام الدقيق لما عزمت عليه، أي استغلال حياتي كلها لتطوير عقلي وتقصي جذور الحقيقة مثلما حددت ذلك لنفسي، لأن الثمار التي ذقتها وأنا في سبيل ذلك من الحلاوة بمكان بحيث أرى أنه لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يفوقها لذة ونقاوة؛ منذ أن دخلت في هذا النوع من التأمل وجدت كل يوم يجعلني أكتشف شيئا جديدا كانت له بعض الأهمية ولكنه لم يكن معروفا في الغالب.آنذاك صارت روحي مفعمة بفرح لا يقدر أي شيء آخر أن يدخله عليها. »

مترجما عن اللاتينية لديكارت.

مقـدمـة

- 1 -

دائما أندهش بشكل كبير حين يبلغني أن أعمالي كلها فيها شيء مشترك ومميز، منذ ميلاد التراجيديا حتى آخر مانشرت، مقدمة لفلسفةالمستقبل : لقد قيل لي أنها كلها تحوي بحيرات وأحابيل لاصطياد الطيور المتغافلة، وشبه تحريض، خفي لكنه مستمر، على قلب التقديرات المعتادة والعادات المقدرة. ثم ماذا؟ ألن يكون كل شيء سوى... إنسان، مفرط في إنسانيته ؟ بهذه التنهدة سيخرج المرء من أعمالي، بل وبنوع من الرعب والريبة بخصوص الأخلاق، بل قد يتم إغراؤه وتشجيعه بشكل مقبول على أن يدافع، ولو لمرة واحدة، عن أسوأ الأشياء: ومايدرينا أن هذه الأشياء ليست ضحية افتراء كبير؟ لقد وصفوا أعمالي بمدرسة الشك، بل أكثر من ذلك، بمدرسة الإزدراء، كما وصفوها، لحسن الحظ، بمدرسة الشجاعة، بل بمدرسة الجسارة. في الحقيقة، إنني أعتقد أنا أيضا أنه لاأحد قد نظر إلى العالم بشك في عمق شكي، وليس فقط كمحامي الشيطان، عند الإقتضاء، بل كذلك، وحتى أتكلم مثل الفقهاء، كعدو الإله ومتهمه. ومن حزر ولو جزء من عواقب كل شك عميق، ولو شيئا من صقيع العزلة وقلقها اللذين يحكم بهما كل اختلاف في الرؤية على صاحبه، فإنه سيفهم كذلك أنني غالبا مابحثت عن ملجأ في أي مكان كي أستريح من نفسي، كي أنسى نفسي لحظة من الزمن ...ملجأ في الإجلال، في الكراهية، في لعبة علمية، في نزق، في حماقة، في أي شيء، وسيفهم لماذا كان لزاما علي، حين لاأعثر على ما أحتاج إليه، أن أحصل عليه بالقوة والحيلة، أن أصيره كما أرغب من خلال التزييف، من خلال الشعر (وهل فعل الشعراء يوما غير ذلك؟ وما تكون الفائدة إذن من فن العالم كله ؟). الشيء الذي كنت في حاجة ملحة إليه كي أباشر علاج نفسي وإشفاءها هو الإيمان بأن كياني والطريقة التي أنظر بها إلى العالم ليسا دون نظير، هو تجانس في النظرة والرغبة ومساواة فيهما

استشعرها بشكل سحري. هو استراحة في ثقة الصداقة، هو عمى اثنين دون ارتياب ولامساءلة، هو استمتاع بكل ماهو مهم،على السطح وقريب من كل ماله لون الظاهر وجلده وميزته. قد يعاتبني الناس على عدد من «الحيل»، على قدر من التزييف الدقيق : مثلا على ضربي الذكر صفحا، عمدا وعن علم، عن الإرادة العمياء للأخلاق لدى شوبنهاور في مرحلة كنت أفهم فيها الأخلاق جيدا، وكذلك على كوني أخطأت بخصوص الرومانسية الزمنة لدى فاغنر زاعما أنها كانت بداية لانهاية، وكذلك بخصوص الإغريق،وبخصوص الألمان ومستقبلهم... وربما تكون هناك لائحة طويلة من وكذلك ؟... ولو افترضنا أن كل ذلك صحيح وأن من يقدمه ضدي على حق، فماذا تعرفون أنتم، ماعساكم أن تعرفوا عن قدر الحيلة الذي تضعه غريزة البقاء في مثل توهمات المرء تلك بشأن ذاته،عن قدر الحكمة والتيقظ الكبير الذي تحويه، - وأي قدر من التزييف لازال يلزمني كي استمر في السماح لنفسي بأن أكون صادقا مع نفسي؟... كفى، إني لازلت حيا، والحياة، على الأقل، لم تبتكرها الأخلاق: إنها تريد الوهم، وبالوهم تحيا... لكن ها أنذا، أليس كذلك؟ أعود لأفعل ما فعلته دائما، بصفتي لاأخلاقيا وصيادا سادرا - لأتكلم ضد الأخلاق، خارج الأخلاق «ماوراء خير وشر».

- 2 -

هكذا إذن ابتكرت، يوم احتجت إليها،تلك «العقول الحرة» التي أهدي إليها هذا الكتاب الذي هو كتاب تشجيع وتثبيط همة، والذي عنوانه إنساني، مفرط في إنسانيته : هذه «العقول الحرة»غير موجودة، وما وجدت قط، - لكنني، كما أسلفت،كنت في حاجة إلى رفقتها كي احتفظ بمزاجي الرائق وسط الأمزجة العكرة (المرض، العزلة، المنفى،الشظف،البطالة) : إنهم عرابوا الأشباح الطيبون الذين أضحك وأثرثر معهم حين أرغب في الضحك و الثرثرة،وإذا ما صاروا مزعجين أطردهم، - تعويضا عن الأصدقاء الذين أفتقدهم. إنني آخر من يشك في كون هذه العقول الحرة ستوجد يوما؛ في كون أوربا ستضم بين أبنائها في المستقبل بعضا من هؤلاء الخليين المرحين والجسورين في هيأة بشر تدب فيهم الحياة وليس فقط، كما في حالتي أنا،على شكل أشباح واستيهامات تخضع لرغبة إنسان متوحد. إنني ارهماتين، رويدا رويدا، بشكل استباقي، رويدا، وربما أكون قد فعلت شيئا لأعجل مجيئهم حين أصف البرج الذي ارى أنه برج ولادتهم و الطرق التي أرى أن منها سيأتون؟

- 3 -

يمكننا أن نفترض أن أعظم حدث عرفه العقل الذي سيُدعى يوما لأن يَبْلُغ بنموذج «العقل الحر» إلى نقطة الكمال من حيث النضج والغضاضة كان ذلك التحرر الكبير الذي لم يكن قبله سوى عقل مستعبد، عقل مقيد في ركنه وإلى عموده إلى الأبد على مايبدو. أية السلاسل هي أقوى؟ أية الروابط يكاد فصمها يكون مستحيلا؟ إنها، لدى أفراد النخبة والطبقة الرفيعة، هي الواجبات : ذلك الإحترام الذي يختص به الشباب، ذلك المخزون من الرقة الوجلة تجاه كل القيم القديمة والمبجلة، ذلك الإمتنان للتربة التي غذتهم، لليد التي أرشدتهم، للمعبد الذي تعلموا فيه العبادة ، – إن ما سيربط هؤلاء الشباب براوبط متينة، ماسيجندهم على الدوام، هي أهم لحظات حياتهم.إن ارتباطهم بهذا الشكل يجعل التحرر الكبير، بالنسبة لهم، يحدث فجأة، مثل زلزال : الروح الشابة تتم زعزعتها، يُفك ارتباطها، يتم انتزاعها فجأة، – هي نفسها لاتعرف ماذا يجري. إن ما يحكمها ويخضعها، مثلما تخضع لنظام ما، هي الحيوية والإندفاع، هي الإرادة، هي الرغبة في الذهاب إلى أي مكان، بأي ثمن، هو فضول يلهب كل حواسها، فضول محتد وخطير، رغبة في عالم بكر. «أفضل الموت على الحياة هنا» يقول الصوت الملح والمغوي : وهذا ال «هنا»، هذا «مَسْكَني» هو ما أحبته حتى ذلك الحين!الرعب والشك اللذان تحملتهما من أجل ما كانت تحبه، شعاع من ازدراء لما كان يقال أنه «واجب» ها، حاجة متمردة، استبدادية، وبركانية لاقتفاء سبل الغريب والمجهول، للتعرض للبرد، لإزالة السكر، للتعرض للصقيع،بُغْض الحب، وربما نظرة ويد مدَنِّستان و موجَّهَتان إلى الوراء، هناك حيث كان يكمن حتى ذلك الحين ماتحبه وتبجله، شعور بخجل ممض ربما مما قد قامت به حديثا، وفي الوقت نفسه ابتهاج لكونها قد قامت به، على من ؟ انتصار عرضةللشبهة، للأسئلة، للغموض، لكنه يكون الإنتصار الأول في نهاية المطاف : – تلك هي الأمراض والآلام التي لازمت تاريخ التحرر الكبير. إن ذلك الإنفجار الأول لقوة الاستقلال ولقوة الرغبة فيه، الكامن في تحديد المرء لمن يكون ولقيمه الخاصة، هو في ذات الوقت مرض قادر على تدمير الإنسان مثلما هي قادرة على ذلك إرادة الإرادة الحرة :وكم من المرض نتبينه في ركام التجارب والخصوصيات التي بواسطتها يحاول الإنسان المحرَّر والمتحرر أن يبرهن على سيطرته على الأشياء! قسوته تتجول راصدة بشره لايمكن إشباعه، وكبرياؤه لابد أن يجعل فريسته تكفر عن تهيجه الخطر، إنه يمزق الشيء الذي يجْذبه. إنه، بضحكة ساخرة،يقلب ما يجده محجوبا وقد تمت مراعاته ببعض الحياء : إنه يَجَرِبُ الهيأة التي

تكون عليها الأشياء حين يتم قلبها.وإن كان الآن يوافق على ما كانت له سمعة سيئة من قبل؛... وإن كان يدور كمجرب فضولي حول الفاكهةالمحرمة أشد التحريم،فإن ذلك مجرد استبداد ومتعة استبداد. في أفق جولات صيده وتيهه - لأنه قلق وتائه في الطريق كما في البيداء - تنتصب علامة استفهام فضول يزداد خطورة. «ألايمكن قلب كل القيم؟ والخير ألايكون هو الشر؟ والإله مجرد ابتكار، مجرد خدعة شيطان؟ ألا يحتمل أن يكون كل شيءخطأ؟ وإن كان قد تم تضليلنا، ألا يكون نحن كذلك مُضلِّلين؟ ألسنا مرغمين على أن نكون كذلك؟ » - تلك هي الأفكار التي تقوده وتغويه دائما أبعد، دائما على انفراد. الوحدة تحاصره وتحتويه، مهددة، خانقة، مضايقة إياه أكثر فأكثر، إلهة مرعبة وإلهة قاسية الرغبة - لكن من يعرف اليوم مامعنى الوحدة ؟...

-4-

لا يزال الطريق طويلا من هذه العزلة المرضية،من بيداء سنوات تحسس الطريق، إلى اليقين الكبير، إلى الصحة الريانة التي يحلو لها اللجوء إلى المرض ذاته، وسيلة المعرفة وصنارتها، إلى حرية العقل الناضجة، التي هي في ذات الوقت سيطرة على النفس وتأديب للقلب، والتي تفسح المجال أمام طرق للتفكير متعددة ومتعارضة إلى هذه الشساعة الباطنية التي، وقد أتخمت بالوفرة وضجرت منها، تستبعد خطر أن يهيم العقل بطرقها ليتيه فيها وينام في ركن ما بعد إنتشائه، إلى ذلك الفيض من القوى الحيوية التي هي عربون الشفاء التام، عربون إعادة التربية والبرء، هذا الفيض الذي هو دليل على الصحة الريانة والذي يمنح العقل الحر الامتياز الخطر بأن يحيا على سبيل التجربة وأن يعانق المغامرة :امتياز العقل الحر البارع في فنه! قد تكون المسافة الفاصلة بينهما سنوات طويلة من النقاهة، سنوات كلها تحولات متعددة الألوان، افتتان معذب روضته وتمسك بزمامه إرادة صحة صلبة غالبا ما تجازف بارتداء ثوب الصحة ولباس تَنَكرها. إنها حالة وسيطة يتذكرها الإنسان الذي يكون هذا مصيره بتأثر بعد ذلك : ثروته الخاصة سعادة شمسية صفاؤها لطيف وباهت، إحساس بأنه يمتلك من الطير حريته، نَظْرَته الواسعة المدى، ارتفاعه، شيئا يشبه مزيجا اجتمع فيه الفضول والازدراء الرقيق. «عقل حر»... هذا المصطلح البارد يكون له مفعول جيد في مثل هذه الحالة، إنه يكاد يدفىء. إننا نحيا، وقد تحررنا من قيود الحب والبغض، دون أن نؤكد، دون أن نجحد، قريبين طوعا، بعيدين طوعا، أو قلْ منسحبين، متجنبين، محاولين أن نطير، وها قد ابتعدنا، قد عاودنا الطيران. قد سئمنا مثلما يسأم كل من رأى أسفل منه ركاما من التنوع، - ونحن منذ الآن عكس أولئك القلقين من أجل أشياء لاتعنيهم. إن ما يعني العقل الحر في الواقع الآن إنما هي أشياء - وكم من أشياء! - لم تعد تقلقه...

- 5 -

خطوة أخرى على طريق البرء ويقتربُ العقل الحر من الحياة ببطء، بما يشبه الجموح، بما يشبه الحذر. يعود الجو حوله حارا، شبه شاحب، يصير التأثر والإئتناس عميقين، تهب عليه كل رياح الإنفراج. يشعر وكَأن عينيه بدأتا لتوهما تتفتحان على الأشياء القريبة منه. يصمت من فرط الذهول : أين كان إذن؟ كم تبدو له هذه الأشياء القريبة والقريبة جداً متغيرة! أي مُخْمَل سحر خالطاهما في غضون ذلك! يلقي نظرة امتنان إلى الوراء، - امتنان لجولاته، لصلابته ولنفوره من نفسه، لتحليقاته كالطائر ولنظراته كالنسر في برد الأعالي. كم هو جميل ألا يكون قد لازم «مسكنه»، قد لازم «نفسه» كداري (Casanier) خدرته رفاهيته! لقد كان خارج نفسه، لا ريب في ذلك! إنها أول مرة يرى فيهانفسه بنفسه الآن، وكم يفاجئه ذلك ! كم قشعريرة سرت فيه كان حتى ذلك الحين يجهلها! يالها من سعادة حتى في التعب، في مرض تم الشفاء منه، في رداع المتماثل للشفاء. كم يلذ له أن يعاني دون أن يبرح مكانه، أن يغزل الصبر، أن يتمدد في الشمس! من مثله يعرف كيف يتذوق سعادة الشتاء وبقع الشمس على الجدار! إن هؤلاء الناقهين، هاته السحليات التي عادت نصف عودة إلى الحياة، هم الحيوانات الأكثر اعترافا بالجميل، الأكثر تواضعا كذلك : هناك من بينهم من لا يدع يوما يمر دون أن يعلق نشيدا في هدب ثوبه السابغ. ولكي نتكلم بجدية : إنه لعلاج جذري لكل تشاؤم (والتشاؤم سرطان أولئك المثاليين الشيوخ المستكبرين، كما نعلم) طريقة عقولنا الحرة في الإصابة بالمرض؛ثم بقائهم مرضى وقتا طويلا؛ ثم استغراقهم وقتا أطول ، في استعادة صحتهم، أعني صحة «أفضل». هناك حكمة حيوية[ضرورية للحياة] في ألايتجرع المرء الصحة إلا بمقادير صغيرة لمدة طويلة.

- 6 -

في تلك اللحظة، وبفضل الأنوار المفاجئة لصحة ماتزال متفجرة وغير ثابتة، قد يحدث أن يشرع العقل الحر، الذي يزداد تحررا، في رؤية لغز ذلك التحرر الكبير ينكشف، ذلك اللغز الذي ظل ينتظر في ذاكرته غامضا، إشكاليا وشبه متعذر المس. إذا كان، ولمدة طويلة، قلما تجرأ على التساؤل : «لماذا أنا منفرد؟ وحيد؟ متخل عن كل ما كنت أقدسه؟ متخل عن التقديس ذاته؟ لماذا هذه القسوة، هذا الشك وهذا البغض لكل فضائلي؟» فإنه الآن يتجرأ ويطرح السؤال بوضوح، بل يخطر على باله جواب ما. «كان عليك أن تمسك بزمام نفسك، وبزمام فضائلك كذلك. في السابق كانت هي التي تتحكم فيك؛ لكنه لم يعد مَسْمُوحاً لها سوى بأن تكون أدوات في يدك بجانب أدوات

أخرى . كان عليك أن تتحكم في دليلك ونفيك،وأن تتعلم فن تعليقهما وإنزالهما حسب مراميك العليا. كان عليك أن تدرك منظور كل حكم قيمة - كيف تدرك ميلان وتحرف الآفاق وغائيتها الظاهرة وكل ما يمكن أن يتعلق بالمنظور. كما كان عليك أن تتعلم كيف تدرك حظك من فقد الحس بخصوص القيم المتعارضة وبخصوص كل الخسارة الفكرية التي يكتفي بها الدليل والنفي كلاهما في كل مرة. كان عليك أن تتعلم كيف تتصور قدر الظلم اللازم الموجود دائما في الدليل والنفي، ذلك الظلم الملازم للحياة هو الآخر مشروط بالمنظور وبظلمه. كان عليك بالخصوص أن ترى بأم عينيك مكمن الظلم الأكبر : هناك حيث لم تبلغ الحياة سوى مرحلتها الأدنى، الأكثر وضاعة، الأشد فقرا، الأكثربدائية، دون أن تستطيع مع ذلك تفادي اعتبار نفسها غاية ومعيارا لكل الأشياء، ولاتفادي المرور آنداك، باسم بقائها، مداجية، وضيعة،وبلا كلل، إلى تفتيت كل ما يتجاوزها علوا وكبرا وغنى ووضعه موضع سؤال، كان عليك أن ترى بأم عينيك قضية التراتبية، أن ترى قوة المنظور وقانونه ومداه تتنامى جميعا في ذات الوقت الذي يتنامى فيه علوه، كان عليك...»، يكفي، فالعقل الحر قد صار يعرف أي أمر أطاع، كما يعرف ماهي قوته الآن وماهي - ابتداء من الآن فقط - حقوقه...

- 7 -

ذلك هو ما يجيب به العقل الحر نفسه بخصوص لغز تحرره، وبذلك ينتهي، بتعميمه لحالته، بالحسم في أمر تجربته للمعيش. «ينبغي أن يحدث ما حدث لي، يقول لنفسه، لكل إنسان تريد رسالة ما أن تتحقق فيه و «تولد» . في جميع أحداث حياته، وفي كل واحد منها، ستكون قوة هذه الرسالة ولزومها هما اللذان يقرران،كحمل لاشعوري، وذلك زمنا طويلا قبل أن يكون هو قد تنبه لهذه الرسالة وعرف اسمها. إن نداءنا الباطني(vocation) هو الذي يتحكم فينا حتى ونحن لانزال نجهله، إن المستقبل هو الذي يفرض نظامه على حاضرنا. إذا سلمنا بأنه يمكننا، نحن العقول الحرة، أن نقول بأن قضية التراتبية هي قضيتنا : فها نحن في منتصف عمرنا، في نهاية الأمر، ندرك ما احتاجته هذه القضية من تهييئات ودورات وتجريبات ومحاولات وتنكرات قبل أن تجرؤ على الإنتصاب أمامنا، ندرك أنه كان لزاما علينا، في البدء، أن نشعر في قرارة روحنا وجسدنا بعدد كبير ومتنوع من أحاسيس متناقضة من السعادة والتعاسة، بصفتنا مغامرين في ذلك العالم الباطن الذي يسمى "الإنسان" وطوافون حوله بصفتنا مساحي كل المستويات والدرجات، «واحدة فوق الأخرى» و «أعلى منها»، التي تسمى

الإنسان هي كذلك - داخلين كل مكان، دون خوف تقريبا، ودون أن نزدري شيئا أو نفقد شيئا، متذوقين كل شيء، متفحصين تقريبا كل الأشياء بدقة كي ننفي عنها أي شيء عرضي – قبل أن يسمح لنا في النهاية بأن نقول لأنفسنا، نحن العقول الحرة : «هذه قضية جديدة! هذا سلم طويل كنا نحن من شغل درجاته وارتقاها، – وقد كنا نحن ذلك السلم لحظة ما! هذا أعلانا، هذا أدنانا، هذا أسفلنا، هذا تدرج هائل الطول، هذه هي التراتبية التي نراها : هذه قضيتنا!...»

- 8 -

لن تبقى مرحلة التطور التي ينتمي إليها(أو التي وُضِعَ فيها) هذا الكتاب، والتي وصفتها الآن، سرا ولو لحظة واحدة بالنسبة لعالم النفس وللمتنبىء. لكن أين نجد اليوم علماء النفس؟ في فرنسا بكل تأكيد : وربما في روسيا، لكن قطعا ليس في ألمانيا. هناك مايكفي من الأسباب التي قد يتذرع بها الألمان الحاليون كي ينسبوا لأنفسهم شرف خلو ألمانيا من علماء النفس : بئس المرء ذلك الذي يجعل منه طبعه وتكوينه نقيض الألماني بخصوص هذا! هذا الكتاب الألماني الذي استطاع أن يجد قراء في دائرة واسعة من الدول والشعوب (وقد بدأ رحلته منذ عشر سنوات خلت)، والذي لا شك أنه خبير في كل موسيقى وفي كل فنون الترمير القادرة على جذب حتى آذان الأجانب غير المرهفة للإستماع إليه : فما السر في ذلك؟ – «إنه يتطلب رقة ورهافة في العقل، إن مايلزمه هو ما يزيد عن الحاجة، هو فيض من الفراغ، من السماء المنورة ومن القلب المشرق، فيض من التبطل بالمعنى المقحام : تلزمه كل الأشياء الجميلة التي نقول عنها، نحن ألمان الوقت الراهن، فاقد الشيء لايعطيه. » – عند هذا الجواب الرائع تنصحني فلسفتي بأن ألزم الصمت وأعدل عن الأسئلة، لا سيما وأننا، في بعض الحالات، لانظل فلاسفة، مثلما يوحي بذلك المثل، إلا مادمنا صامتين.

نيس، ربيع 1886

الكتاب الأول

عن المبادىء والغايات

1 . كيمياء الأفكار والأحاسيس.

تكاد القضايا الفلسفية اليوم تتخذ نفس الصيغة التساؤلية التي اتخذتها منذ ألفي سنة. كيف يمكن أن يتولد شيء ما عن نقيضه، مثلا كأن يتولد العقل من اللامعقول، المحسوس من الجامد، المنطق من اللامنطق، التأمل النزيه من الإرادة الجشعة، الغيرية من الأنانية، الحقيقة من الأخطاء؟ لقد تلافت الفلسفة الميتافزيقية حتى الآن هذه الصعوبات بإنكارها قدرة الواحد على إنتاج الاخر وبإقرارها بأن للأشياء التي تعد سامية أصلا خارقا ينبع مباشرة من صميم وجوهر «الواقع المطلق». على العكس من ذلك، فإن الفلسفة التاريخية، التي تعتبر أحدث المناهج الفلسفية كلها، والتي لا يمكن تصورها بمعزل عن علوم الطبيعَة، قد نجحت، في بعض الحالات الخاصة (وربما تصل إلى نفس النتيجة في كل الحالات) في اكتشاف أنه ليست تلك بمتناقضات، ماعدا في المبالغة التي اعتادها التصور الشعبي أو الميتافزيقي، وأن هناك في أساس هذا التعارض خطأ ارتكبه العقل : ليس هناك، حسب تفسيرها، أي سلوك لا أناني ولا أي تأمل نزيه تماما ، إنهما محض تصعيدات يكاد العنصر الأساسي يبدو فيها وكأنه قد تبخر ولا نكتشفه إلا عند الملاحظة الدقيقة جدا. إن كل ما نحتاج إليه، والذي لن نستطيع أن نأخذه إلا من المستوى الحالي لكل علم؛ هو كيمياء التمثلات والأحاسيس الأخلاقية الدينية، الجمالية، وكذلك كيمياء كل هذه الإنفعالات التي نشعر بها في ارتباط مع التيارات الكبرى والصغرى لحضارتنا ومجتمعنا، بل هي الوحدة (solitude) : وماذا لو أن هذه الكيمياء خلصت إلى كون الألوان البهية يتم الحصول عليها، حتى في هذا الميدان، إنطلاقا من مواد بخسة، بل محتقرة؟ هل سيرغب الكثير من الناس في تتبع مثل تلك الأبحاث؟ إن الإنسانية تحب أن تطرح من بالها أسئلة الأصل والبدايات هاته : ألا ينبغي أن يكون المرء شبه لامؤنسن كي يشعر بالميل المعاكس؟...

2 . خطيئة الفلاسفة

عيب كل الفلاسفة المشترك هو كونهم ينطلقون من الإنسان الحالي ويتخيلون أنهم قد بلغوا الهدف من خلال تحليلهم له. بشكل غامض يتخيلون «الإنسان» دون أن يقصدوا ذلك، وكأنه حقيقة خالدة (aeterna veritas) ، يتخيلونه واقعا ثابتا وسط دوامة الكل، ومقياسا ثابتا للأشياء. لكن كل مايذكره الفيلسوف عن الإنسان ليس في الحقيقة سوى شهادة حول إنسان فترة زمنية جد محدودة. إن خطيئة الفلاسفة هي غياب الحس التاريخي، ذلك أن كثيرين منهم، ودون أن يتنبهوا لذلك، يعتبرون صورة الإنسان الأخيرة، مثلما شكلتها تأثيرات بعض الديانات، بل بعض الأحداث السياسية،هي الشكل الثابت الذي منه ينبغي أن يكون المنطلق. إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الإنسان هو نتيجة صيرورةأن ملَكة المعرفة هي كذلك نتيجة صيرورة؛ بل إن البعض منهم يجرد الناس كلهم من هذه الملَكة. - والحال أن أساس التطور الإنساني كله قد تم خلال ليل الأزمنة، قبل هذه الأربعة الاف سنة التي نعرفها على وجه التقريب؛ والتي لاشك أن الإنسان لم يتغير فيها كثيرا.وها هو الفيلسوف يبصر «غرائز» لدى الإنسان الحالي و يقر بأنها تشكل جزء من معطيات الإنسانية الثابتة، بأنها يمكن أن تقدم مفتاحا لذكاء الناس بشكل عام. تقوم الغائية (Téléologie) كلها على الحديث عن إنسان الأربعة الاف سنة الأخيرة كما لو عن إنسان خالد رصفت له كل أشياء العالم منذ البداية.ألا إن كل شيء ينتج عن الصيرورة.ليس هناك من المعطيات الخالدة أكثر مما هناك من الحقائق المطلقة. -إن ما يلزمنا بالتالي، من الآن فصاعدا، هي الفلسفة التاريخية، وبمعيتها التواضع.

3 . تقديرا الحقائق المُحتَشِمَة

إن مما يدل على درجة عالية من التحضر اعتبار الحقائق البسيطة الم*حتَشِمَة، المكتشفة بواسطة منهاج صارم، أسمى من الأخطاء البراقة، الموزعة للسعادة، التي مصدرها قرون وناس لهم عقل ميتافزيقي وفنان. يبدأ الناس بإظهار الإهانة في حق الأولى كما لو أن الأمر لا يمكن أن يتعلق هنا بمساواة في الحقوق : فبقدر ما هي متواضعة، بسيطة، باردة، بل مثبطة على ما يبدو؛ بقدر ما للأخرى جمال تعرضه، لها بريق، نشوة، بل ربما غبطة. وهذا لا يمنع أن تكون هذه المكتسبات المضنية، الأكيدة، الدائمة، والتي لها، من ثمة، أهمية كبيرة بالنسبة لكل معرفة لاحقة ذات مستوى عال يكون المكوث فيه علامة رجولة ودليلا على الجرأة، على الاستقامة، على التحفظ. وشيئا فشيئا سوف لن يكون الفرد وحده هو من يرتفع إلى هذه الرجولية بل الإنسانية كلها، وذلك حين تكون قد تعودت على إضفاء قيمة أسمى على المعارف الصلبة،

الدائمة، وتكون قد فقدت كل إيمان بالإلهام، بالإبلاغ المعجزي للحقائق.- صحيح أنه سيكون في البداية لدى محبي الأشكال، بمقياسهم الخاص بالجميل والسامي، أسباب معقولة كي يسخروا، بمجرد ما يبدأ انتصار تقدير الحقائق المحتشمة وانتصار العقل العلمي : لكن ذلك سيعني بكل بساطة أن عيونهم لم تتفتح بعد على سحر الشكل الأكثر بساطة، أو أن الذين تمت تربيتهم لهذا الغرض لم يخترقهم بعد هذا السحر بشكل شامل وحميمي، ولن يتم ذلك قبل وقت طويل، بحيث سيستمرون في إعادة إنتاج آلية للأشكال القديمة (وذلك بشكل رديء،مثلما يفعل أي شخص لم يعد له ارتباط بقضية ما). في الماضي كان العقل، الذي لم يكن مُطَالبًا بدقة الفكر، يسعى بجدية كبيرة لإقامة السداة بين الأشكال، والرموز،أما الآن فقد تغيرت الأشياء، أصبحت هذه الجدية التي تستعمل مع الرمزيات تعتبر دليلا على مستوى منحط من الثقافة؛ كما أن فنوننا لاتفتأ تتعقلن، وحواسنا تتروحن، وأننا اليوم، مثلا، نحكم على كل ما يتناغم مع الحواس بخلاف ما كان يحكم به عليه منذ مائة سنة : كما أن أساليب حياتنا تصير روحانية أكثر فأكثر، وربما تبدو أشد قبحا في نظر العصور السابقة، وذلك بسبب عجز هذا النظر عن رؤية إلى أي مدى تتعمق وتتوسع باستمرار مملكة الجمال الداخلي والروحي، وعن رؤية أن نظرة بسيطة يشع فيها العقل لاشك أنه ستكون لها الآن، بالنسبة لنا جميعا، قيمة أكثر مما يكون لأحمل بعد ولأرقى معمار

4 . على غرار التنجيم.

من المحتمل أن تكون موضوعات الإحساس الديني والأخلاقي والجمالي كلها لاتتعلق إلا بظاهر الأشياء، بينما يروق للإنسان أن يعتقد أنه فيها، على الأقل، يلمس قلب العالم نفسه؛ إنه ينخدع لأن هذه الأشياء تعني بالنسبة له سعادة أو حظا عاثرا، إذن فهويُظهر في هذا نفس الكبرياء الذي يظهره في علم التنجيم.فهذا العلم يتصور فعلا أن نجوم السماء تدور حول قدر الإنسان؛ أما الإنسان الأخلاقي فيفترض أن ما يهمه كثيرا هو بالضرورة جوهر الأشياء وقلبها.

5 . الحلم وقد أسيء فهمه .

إن أصل كل ميتافزيقا هو كون الإنسان، في الأزمنة الأولى لحضارة لما تزل بدائية، قد اعتقد أنه اكتشف في الحلم عالما حقيقيا ثانيا. لولا الحلم لما وجد الناس أدنى سبب لتقسيم العالم إلى قسمين. إن انفصال الروح والجسد يرتبط هو كذلك بأقدم تصور للحلم تماما مثل فرضية صُورة جسديةللروح؛؛ كما يرتبط به إجمالا أصل كل اعتقاد في الأرواح، وربما حتى أصل الإيمان بالآلهة. «إن الميت يظل حيا، لأنه يظهر للأحياء في الحلم» : هذا هو الإستدلال الذي ساد فيما مضى طيلة ألفيات.

6. روح العلم قوية في الجزء لا في الكل.

يتم التعامل مع مجالات العلم المختلفة، ومع الموضوعات الأدنى،بشكل موضوعي صرف : على العكس من ذلك نجد العلوم الكبرى والشمولية، إذا نظرنا إليها ككل واحد، تثير السؤال التالي : للقيام بماذا؟ لأية فائدة؟ بسبب هذا الإعتبار الذي يقام للفائدة يعامل المجموع بطريقة لاشخصية أقل مما تعامل به الأجزاء. وبما أن الفلسفة تشكل قمة هرم المعرفة فإن مسألة فائدة المعرفة بصفة عامة تجد نفسها مطروحة فيها بشكل عفوي، وكل فلسفة تعمل بشكل لا شعوري على أن تعزى إليها الفائدة الأسمى. لذلك يوجد الكثير من الميتافزيقا على نطاق واسع في كل الفلسفات، وذلك الرعب من الحلول التي تقدمها الفيزياء، والتي تبدو غير ذات معنى؛ لأن أهمية المعرفة بالنسبة للحياة يجب أن تبدو عظيمة قدر الإمكان.هنا تكمن المنافسة بين المجالات العلمية الخاصة والفلسفة .هذه الأخيرة ترغب في نفس ما يرغب فيه الفن، إضفاء أكثر ما يمكن من العمق والمعنى على الحياة وعلى الحركة؛ بينما في الأولى يتم البحث عن المعرفة لاغير، - مهما يكن ما ينجم عن ذلك. حتى الأن ماوجد فيلسوف قط لم تتحول الفلسفة بين يديه إلى دفاع عن المعرفة؛إنهم،على أية حال، طموحون بخصوص ضرورة إسناد الفائدة الأسمى إليها. إن المنطق يستبد بهم جميعا: والمنطق طُمُوحٌ في جوهره.

7. مضَايِقُ العلم

لقد انفصلت الفلسفة عن العلم حين طرحت هذا السؤال : ماهي معرفة العالم والحياة التي تجعل من وجود الإنسان أسعد وجود؟ ولننظر إلى ما حدث داخل المدارس السقراطية : لقد أدى تبني مفهوم السعادة إلى خنق البحث العلمي - ولايزال الأمر كذلك إلى يومنا هذا.

8 . تفسير روحي للطبيعة

تفسر الميتافزيقيا كتاب الطبيعة بطريقة روحية ونوعا ما، مثلما كانت الكنيسة وكهنتها يفسرون الإنجيل فيما مضى يتطلب الأمر كثيرا من الذكاء كي يطبق على الطبيعة نفس تفسير فقهاء اللغة الدقيق لكل الكتب : وذلك بغية فهم ما يريد النص قوله فقط دون أن يُشْتَم فيه، بل أن لا يفترض فيه، معنى مزدوج. رغم ذلك، فمثلما أن وسيلة التفسير الرديئة أبعد من أن تلغى كلية حتى فيما يتصل بالكتب، ومثلما نصطدم باستمرار، داخل أفضل مجتمع مثقف، ببقايا تفسير استعاري وصوفي : كذلك الشأن بالنسبة للطبيعة - بل هو أسوأ بكثير.

9 . عالم ميتافزيقي.

صحيح أنه قد يكون هناك عالم ميتافزيقي، الإحتمال المطلق لوجوده قلما يقبل الجدال. كل الأشياء التي نراها تمر برأسنا، ولن نستطيع قطع هذا الرأس؛ ومع ذلك يبقى السؤال المطروح هو معرفة ما قد يتبقى من العالم حين نقطعها. هذه قضية علمية محضة، وقد وجدت لتشغل الناس؛ والشيء الذي جعل الفرضيات الميتافزيقية، حتى الأن، أثيرة لديهم ومرهوبة الجانب وممتعة، الشيء الذي أوجدها هو الهوى، هو الخطأ، هو فن إيقاع المرء لنفسه في الخطأ؛والشيء الذي علم الناس الإعتقاد في تلك الفرضيات ليست هي أفضل وسائل المعرفة بل أسوأها. إن استكشاف أساس كل الديانات والميتافزيقا الموجودة في هذه المناهج هو، في نفس الوقت، دحض لها؛ تبقى إذن تلك الإمكانية التي كنا بصدد الحديث عنها؛ لكننا لن نتمكن من تحقيق أي شيء منها على الإطلاق، فلنعلق السعادة والخلاص والحياة بالأحرى على الخيوط العنكبوتية لهذه الإمكانية. - لأنه لا يمكننا أن نقر شيئا من هذا العالم الميتافزيقي خلا اختلاف في الكينونة، كينونة واختلاف منيعان، لايدركان؛ وسيكون ذلك شيئا ذا مزايا سلبية . - وحتى حين تتم البرهنة أفضل ما يمكن على وجودهذا العالم فإنه من الأكيد أن هذه المعرفة ستكون ، رغم ذلك، أكثر المعارف لاأهمية : أكثر لاأهمية من معرفة البحار الضرورية، والعاصفة تهدده، للتحليل الكيميائي للماء.

10.الميتافزيقا غير الخطرة على المستقبل.

بمجرد ما نصف تكون الدين والفن والأخلاق وصفا يسمح بتفسير هذا التكون تفسيرا كاملا دون اللجوء إلى فرضيةالتدخلات الميتافزيقية التي حدثت عند بداية حياتها وخلال مجراها يكون قد حَسَمَ أمر الإهتمام الكبير الذي أولي للمسألة النظرية المحضة، مسألة «الواقع المطلق» و «الظاهرة». لأننا في نهاية الأمر، وكيفما كان الحال، لانلمس «جوهر العالم في ذاته» من خلال الدين والفن والأخلاق؛ إننا في ميدان التمثل، ولن يستطيع أي «حدس» أن يحملنا بعيدا. أما معرفة كيف يمكن للصورة التي لدينا عن العالم أن تنزاح بقدر كبير عن جوهر العالم الذي استنتجناه، فسندعها بكل هدوء للفسلجة ولتاري تطور الأجسام والأفكار.

11.اللغة، علم مزعوم.

تكمن أهمية اللغة في تطور الحضارة في تكون الإنسان قد موضع فيها، إلى جانب العالم الاخر، عالما خاصا به، مكانا كان يعتبره متينا كفاية ليستند عليه كي يغيظ العالم

ويسيطر عليه. إن الإنسان باعتقاده، وخلال حقب طويلة، في تصورات الأشياء وأسمائها كما في الكثير من الحقائق الخالدة، قد خص نفسه فعلا بهذا الكبرياء الذي به كان يسمو فوق الحيوان : كان يتخيل أنه باللغة يمتلك معرفة العالم بالفعل. لم يكن فنان الكلمة متواضعا كفاية كي يؤمن بأن ما يفعله ليس سوى تسمية الأشياء، كان، على العكس من ذلك، يتصور أنه بتلك الكلمات يعبر عن المعرفة السامية بالأشياء، اللغة، في الواقع، هي المرحلة الأولى في البحث العلمي. هنا أيضا كان الإيمان بالحقيقة المكتشفة مصدر منابع القوة الفياضة. وها قد شرع الناس الآن فقط،وبعد فوات الأوان، في التنبه إلى الخطأ الكبير الذي أشاعوه بإيمانهم باللغة، لحسن الحظ أنه قد فات أوان تسبب ذلك في عودة تطور العقل الذي يرتكز على هذا الإيمان إلى الوراء. -المنطق كذلك يرتكز على مسَلمات لايقابلها شيء في العالم الواقعي، مثل مسَلمة تساوي الأشياء، مثل تماثل نفس الشيء عند نقط زمنية مختلفة : لكن هذا العلم قد نشأ من الإيمان المعاكس (بأنه كانت هناك بالتأكيد أشياء من هذا القبيل في العالم الواقعي). نفس الشيء ينطبق على الرياضيات التي لم تكن لتنشأ بكل تأكيد لو تمت في الحال معرفة أنه ليس في الطبيعة لا خط مستقيم تماما، لا دائرة حقيقية، ولاقياسٌ مطلق للكميات.

12. الحلم والحضارة.

الوظيفة الدماغية التي تعاني أكثر من غيرها من النوم هي الذاكرة : ليس لأنها تتوقف كلية، - بل لأنها تجد نفسها وقد تمت العودة بها إلى حالة من النقص تذكرها بما كانت عليه، أثناء النهار وأثناء حالة اليقظة، لدى كل أفراد الأزمنة الأولى للإنسانية. بما أنها تعسفية وغامضة فهي أبدا تخلط الأشياء بارتكازها على التماثلات العابرة؛ وبنفس التعسفية ونفس الغموض خلقت الشعوب ميثولوجياتها، ولا يندر اليوم أيضا أن يلا حظ بعض المسافرين إلى أي حد ينزع الإنسان المتوحش إلى النسيان، يهلوس ذهنه بعد تركيز قصير تقوم به الذاكرة، الشيء الذي يؤدي به إلى الكذب وقول السخافات من جراء تواني الذاكرة. إننا كلنا نشبه هذا المتوحش في أحلامنا، فالمماثلة الناقصة والتشبيه الخاطيء هما سبب الأخطاء في البرهنة التي نرتكبها في الحلم : بحيث أننا حين نتذكر بوضوح أحد أحلامنا فإنه يخيفنا انطواؤنا على هذا القدر الكبير من الحماقة. إن الوضوح التام لكل التمثلات الحلمية، الذي ينتج عن الإيمان المطلق بحقيقتها، يذكرنا بدوره ببعض حالات الإنسانية البدائية التي كانت الهلوسة متفشية بها بشدة، وكانت في بعض الأحيان تتفشى، في نفس الوقت، بجماعات وشعوب

بأكملها. هكذا إذن نعيد أثناء النوم وفي الحلم عمل حالة قديمة من حالات الإنسانية، من أقصاه إلى أقصاه.

13. منطق الحلم.

هناك عوامل داخلية كثيرة تحتفظ أثناء النوم بجهازنا العصبي في حالة تهيج، فكل أعضائنا ت قريبا تكون نشيطة تشكل متفرق، الدم يكمل دورته العنيفة، وضع النائم يكبس بعض الأطراف، الأغطية يكون لها تأثير متنوع على إحساساته، الأمعاء تتلوى، وضع الرأس يستتبع حالاتعضلية غير معتادة، القدمان دون جوا رب، أخماصهما غير المرتكزين على الأرض يثيران إحساسا بشيء غريب، وكذلك اللباس المختلف الذي يرتديه الجسم كله - هاته كلها أشياء تعمل، بقدر التغيير اليومي في كثافتها، وبجانبها الشذوذي، على تهييج الجهاز الدماغي بما في ذلك وظيفته : وهكذا يكون هناك ألف سبب ليندهش العقل ويبحث عن بواعث هذا التهيج : والحلم هو البحث عن بواعث هذه الأحاسيس المهيجة بهذه الطريقة وهو تمثل لها، أعني البواعث الخيالية. قد يحدث مثلا أن يحلم الذي يوثق رجليه بزنارين أن حيتان تمسكانهما في حلقتيهما؛إن ذلك يكون فرضية أولا، ثم يصيرا اعتقادا يرافقه تمثل مجازي هو عبارة عن وهم : «هاتان الحيَّتان هما حتْماً باعث هذا الإحساس الذي أشعر به أنا النائم»، - هكذا يحكم عقل النائم. الماضي القريب الذي يستنتجه بهذا الشكل يصير حاضرا بالنسبة إليه بفضل تخيله المهيَّج. هكذا فإن الكل يعلم،من خلال التجربة، أن الحالم سرعان ما يدْخِلَ في حبكة حلمه صوتا يبلغ مسمعه بقوة، كدقات الأجراس أوطلقات المدفع مثلا، أيَ أنه يفسر ذلك، بعد فوات الأوان، بهذا الحلم نفسه، بحيث أنه يتخيل أنه يعيش الظروف المسببة أولا ثم يدرك الصوت بعد ذلك. - لكن كيف يحدث أن عقل الحالم يرتكب دائما مثل هذه الأخطاء الكبيرة، والحالة أن هذا العقل نفسه عادة ما يبدو، في حالة اليقظة، واقعيا جدا، حذرا جدا، وشكوكياجدابخصوص فرضياته؟ إلى درجة أنه تكفيه الفرضية الأولى ، أيا كانت، كي يفسر إحساسا ما ويعتقد على الفور في كونه حقيقة؟ (لأننا في الحلم نؤمن بالحلم كما لو كان حقيقة، أ ي أننا نعتبر فرضيتنا مبرهنا على صحتها)، أما أنا فأعتقد مايلي : إن الطريقة التي لا يزال الإنسان يفكر بها في الحلم اليوم هي الطريقة نفسها التي فكرت بها الإنسانية في حالة اليقظة خلال الآف والآف السنين؛ لقد كان العقل يكتفي، حين يحتاج إلى تفسير شيء ما، بأول باعث يعن له، ويعتبره حقيقة. (وحسب ما يرويه المسافرون فإن المتوحشين لايزالون إلى اليوم يتبعون هذا النهج). إن هذا الجزء القديم من الإنسانية هو

الذي لايزال يفعل فينا في الحلم، لأنه هو الأساس الذي منه تطور العقل السامي ولايزال يتطور لدى كل إنسان : الحلم يعود بنا إلى مراحل قديمة من الحضارة الإنسانية ويقدم لنا وسيلة تمكننا من فهمها بشكل أفضل. لئن كان الفكر الحلمي اليوم واضحا لدينا فلأنه قد تم تدريبنا جيدا، بأية فكرة كانت، على هذا الشكل من التفسير الشاذ والمجاني. بهذا يكون الحلم راحة للدماغ، الذي يضطر أثناء النهار لتلبية المطالب الملحة التي ي فرضها على الفكر مستوى عالٍ من الحضارة. - يمكننا أن نلاحظ في الذكاء، في حالة اليقظة، ظاهرة مماثلة. فهو بوابة الحلم الرئيسية ورواقه. حين نغمض عيوننا ينتج المخ كمية من الإنطباعات المضيئة ومن الألوان، كنوع من الرجع ومن الصدى لكل آثار الضوء الذي يمتصه خلال النهار.والذكاء (المقترن بالخيال) يحول على الفورهذه الألوان هاته إلى حرير عديم الشكل، إلى أشكال وصور محددة، إلى مناظر طبيعية، إلى مجموعات حية. الظاهرة الخاصة التي تتدخل هنا هي أيضا نوع من خاتمة العلة والمعلول؛ إن تساءلنا من أين تأتي هذه الإنطباعات المضيئة وهذه الألوان افترض العقل أن بواعثها هي هذه الأشكال والصور : يرى فيها المناسبات التي حددت هذه الألوان لأنه قد اعتاد خلال النهار، وعيناه مفتوحتان ، أن يجد سببا موجبا لكل لون، لكل انطباع مضيء. هنا إذن يقدم له الخيال باستمرار الصور التي ينتجها اعتمادا على الانطباعات المرئية أثناء النهار، وكذلك بالضبط يعمل الخيال الحلمي : - إذا أدركنا أن السبب المزعوم يتم استنتاجه من الأثر ويتم تخيله بناء على الأثر؛ وكل ذلك يتم بسرعة فائقة بحيث يمكن أن ينتج عنه، كما لو في حضرة مشعوذ، اضطراب في الحكم وتتابع يأخذ شكل تَزَامُنَ، بل شكل تتابع مقلوب. يمكن أن نستخلص من هذه الظواهر أن الفكر المنطقي الدقيق نوعا ما، والتمييز الدقيق بين العلة والمعلول، قد تطورا بشكل متأخر جدا،ما دمت وظائفنا العقلية والفكرية تعود، الآن أيضا،وبشكل عفوي، إلى هذه الأشكال البدائية في التفكير، ومادمنا نقضي ما يناهز نصف عمرنا في هذه الحالة. الشاعر الفنان كذلك يفترض لهذه الحالات الروحية والعقلية بواعث ليست حقيقية على الإطلاق، ذلك ما يجعله يتذكر إنسانية قديمة ويستطيع مساعدتنا على فهمها.

14 . رَجْع.

كل الاهتزازات القوية التي تصيب الروح تثير رجع الانطباعات والحالات المشابهة؛ إنها تنبش الذاكرة تقريبا. إنها تثير فينا بعض الذكريات، توقظ الشعور بالحالات المشابهة وبأصلها، هكذا تتشكل تداعيات فورية ومألوفة في الأحاسيس وفي الأفكار تنتهي، حين تتوالى بسرعة البرق، إلى أن نتصورها لا كمجموعات بل كوحدات. بهذا المعنى يتحدث الناس عن الحس الأخلاقي، عن الحس الديني، كما لو كان الأمر يتعلق

بوحدات أصيلة : إنها في الواقع أنهار له مآت المنابع والروافد. هنا أيضا لاتضمن وحدة الكلمة وحدة الشيء إطلاقا، مثلما هو الأمر في أغلب الأحيان.

15.لاباطن ولاظاهر في العالم.

إذا كان ديمقريط قد نقل مفهومي الأعلى والأسفل ليضفيهما على الفضاء اللامتناهي حيث لامعنى لهما، فإن الفلاسفة يفعلون على العموم نفس الشيء بالنسبة لمفهوم «الباطن والظاهر» المطبق على جوهر العالم وظاهرته؛ إنهم يعتقدون أن نفاذنا إلى العمق، إلى الباطن، إنما يتم بواسطة الأحاسيس العميقة وأن بها نقترب من قلب الطبيعة. إلا أن هذه الأحاسيس لاتكون عميقة إلا بقدر ما تستشار برفقتها، وبشكل منتظم وخفي،مجموعات معقدة من الأفكار التي نسميها عميقة؛ يكتسب إحساس ما صفة العمق بمجرد ما تعتبر الفكرة التي ترافقه عميقة. لكن الفكرة العميقة قد تكون، مع ذلك، شديدة البعد عن الحقيقة، ككل فكرة ميتافزيقية مثلا. إذا جردنا الإحساس العميق من كل ما يخالطه من العناصر الفكرية سيبقى الإحساس القوي،وهذا الإحساس لايقدم للمعرفة أية ضمانة عداه، تماما مثلما يبرهن اعتقاد قوي على قوته فقط وليس أبدا على حقيقة موضوعه.

16.الظاهرة والواقع المطلق.

عادة ما يتخذ الفلاسفة إزاء الحياة وإزاء التجربة – إزاء ما يسمونه بالعالم الظاهراتي – نفس الموقف الذي يتخذونه إزاء لوحة معروضة بشكل نهائي وهي تظهر دائما، بشكل ثابت لايتغير، نفس تسلسل الأحداث؛ إنهم يرتأون أن هذا التسلسل هو ما ينبغي تفسيره بشكل صحيح كي يخلصوا من ذلك إلى الكائن الذي عنه صدرت اللوحة : إذن إلى الواقع المطلق الذي عادة ما يعتبر علة كافية لوجود عالم الظواهر. على العكس من ذلك، فإن بعض المناطقة الصارمين، بعد أن لاحظوا بدقة هوية مفاهيم الميتافزيقا واللامشروط، وكذلك اللامشترط، من خلال علاقة الاستتباع، قد انكروا وجود أي رابط ممكن بين اللامشروط (العالم الميتافزيقي) وبين العالم الذي نعرفه :بحيث أن الواقع المطلق ليس هوما يظهر في الظاهرة، وأنه من الأنسب رفض أية علامة استتباع بين هذه وذاك. لكن الطرفين كليهما يغفلان احتمال أن تكون هذه اللوحة – وهو ما يسمى الآن، بالنسبة لنا نحن البشر، حياة وتجربة – ناتجة عن صيرورة بطيئة، بل أن تكون في حالة صيرورة، ولهذا لن يمكن اعتبارها بعدا ثابتا يمكن انطلاقا منه أن يكون لنا الحق في إيجاد، أوحتى رفض، أية علاقة استتباع بينها وبين مسببها (العلة الكافية). منذ الاف السنين ونحن ننظر إلى العالم بتباهٍ أخلاقي وجمالي

وديني، بعمى الميل، الشغف أو الخشية، تعاطينا فيه، بواسطة فجور حقيقي، لسلوكات الفكر اللامنطقي السيئة، ولذلك صار هذا العالم شيئا فشيئا مبرقشا،مرعبا، حافلا بالحيوية والدلالات العميقة، هذا ما أضفى عليه صبغته. - لكننا نحن هم من صبغه : إن الفكر الإنساني هو الذي أظهر الظاهرة وأدخل في الأشياء مفاهيمها الخاطئة. إنه حين يعن له أن يفكر يجد الأوان قد فات كثيرا : وهاهو عالم التجربة والواقع المطلق يبدوان له مختلفين جدا ومنفصلين حتى أنه يرفض استتباع هذا لذاك - أو أنه يتطلب، بسمت غامضة ومريع،استسلام فكرنا وإرادتنا الشخصية : وذلك بُغْيَةَ بلوغ الجوهر عبر تَجَوْه*رِه هو. البعض الاخر، بالمقابل، ورثوا كل السمات المميزة لعالمنا الظاهراتي- أي سمات تمثلنا للعالم المنسوج بأخطاء فكرية ومكتسبة بشكل وراثي - و عوض أن يتهموا الفكر المجرم فقد جرموا جوهر الأشياء وبشروا بأن الخلاص يكمن في التخلي عن الكينونة. - سيقضي تطور العلم الد ائم والشاق على هذه المفاهيم بشكل نهائي يوم يحتفل بظفره الأخير ا لمتمثل في تاريخ نشأة الفكر، وقد تؤدي النتيجة إلى الفرضية التالية : إن ما نسميه العالم حاليا هو نتيجة مجموعة من الأخطاء والأوهام التي تولدت بشكل تدريجي خلال التطور الكلي للكائنات المعضاة *وتكاثرت بتشابكها ثم ورثناها الآن باعتبارها كنزا تجمع من الماضي كله، - أجل، كنزا : لأن قيمة إنسانيتنا تقوم عليه. إن العلم الدقيق لا يستطيع أن يخلصنَا من عالم التمثل هذا إلا في نطاق محدود - وليس ذلك بالشيىء المرغوب - نظرا لكونه عاجزا عن تحقيق المطلوب، أي عن تحطيم قوة العادات القديمة عادات الحساسية : لكنه يستطيع، تدريجيا وبشكل متزايد، أن ينير تاريخ نشأة هذا العالم كتمثل - وأن يرفعنا، ولو لبضع لحظات، فوق تسلسل أحداثه كلها. وربما سيكتشف إذاك أن الواقع المطلق يستحق ضحكة ساخرة، وهو الذي كان يبدو أنه يشكل الكثير، بل كل شيء، هو في الحقيقة فارغ، خلو من كل معنى.

17.تفسيرات ميتافزيقية.

يجل الشاب التفسيرات الميتافزيقية لأنها تكشف له فيضا من المعنى في الأشياء التي كان يجدها منفرة أو مزدراة؛ وإن كان لديه إحساس بعدم الرضى عن النفس فإنه سيخف حين يتحقق من لغز العالم أو بؤسه العميق من خلال ما يشعر به كثيرا في قرارة

* oraganisé = معضى = ذوبنية عضوية. هناك نظرية فلسفية تقول بأن العمليات الحيوية تنشأ من نشاط أعضاء الكائن الحي بوصفها نظاما متكاملا، وهي العضوانية = organicisme.(المترجم)

نفسه. إن النعمة المزدوجة التي يرى أنه مدين بها للميتافزيقا هي الإحساس بعدم المسؤولية ورؤية أن للأشياء أهمية في ذات الوقت. ولا شك أنه سيشعر لاحقا بشيء من الريبة تجاه كل أصناف التفسير الميتافزيقي، بل ربما سيرى إذاك أنه بالإمكان، مع ذلك، الحصول على نفس النتائج، وبطريقة أكثر علمية، من طريق آخر، وأن التفسيرات المادية والتاريخية تثير إحساسا بعدم المسؤولية لايقل حدة عن إحساسه هو، وأنها قد تؤجج تحمسه للحياة ولمشاكلها.

18.قضايا الميتافزيقا الأساسية

حين تتم كتابة تاريخ نشوء الفكر ستجد الفرضية التالية التي يطرحها عالم منطق ممتاز نفسها وقد سلط عليها ضوء جديد : «إن قوام القانون العام والأصيل للذات العارفة يكمن في الضرورة الداخلية لمعرفة أن كل موضوع في ذاته، في جوهره، هو موضوع مماثل لذاته، أي أنه موجود بشكل مستقل وأنه يظل في الواقع دائما مماثلا وثابتا، باختصار،أنه ماهية» . لقد كان لهذا القانون،الذي قيل عنه هنا أنه «أصيل»، تاريخ هو الاخر : وستتم البرهنة يوما على أن هذا النزوع ينشأ شيئا فشيئا في الأجسام الدنيا حتى أن العيون الضعيفة لهذه الأجسام، الشبيهة بعيون الجلد، لا ترى في البداية شيئاسوى المماثل، ثم بعد ذلك، حين تصير مختلف أحاسيس اللذة والإشمئزاز قابلة للتمييز أكثر، تميز مختلف الجواهر بالتدريج، لكنها تميز كل جوهر بصفة فقط، أي بعلاقة فريدة مع مثل ذلك الجسم.إن أولى درجات النظام المنطقي هي الحكم، وقوام جوهره،حسب ملاحظة أفضل المناطقة، هو الاعتقاد. وفي أصل كل اعتقاد هناك إحساس بما هو ممتع وماهو مؤلم بالنسبة إلى الذات المحسة. والحكم في أكثر أشكاله بدائية هو إحساس ثالث وجديد يأتي نتيجة إحساسين مختلفين سابقين. - إن كوننا مُعَضَّوْن يجعلنا لا نهتم بالشيء إطلاقا ما عدا في علاقته معنا فيما يخص اللذة والألم. وفي تلك الفواصل بين اللحظات التي نعي فيها العلاقة تنعم الحالات التي تنشط فيها أحاسيسنا بلحظات من الراحة، من الحرمان من الإحساس : انذاك لايكون للعالم ولا لأي شيء، بالنسبة لنا، أية فائدة، لانبصر فيهما أي تغير (مثلما لا يتنبه رجل منشغل جدا إلى كون شخص ما قد مر بجانبه). بالنسبة للنبتة تعتبر كل الأشياء في راحة، تعتبر خالدة،يعتبر كل شيء مماثلا لنفسه. لقد ورث الإنسان عن مرحلة الأجسام الدنيا الإعتقاد بوجود أشياء متماثلة (وحدها التجربة التي طورها العلم المتقدم تناقض هذه الفرضية). إن الاعتقاد الأول خلال العهد العضوي، بل وربما منذ البداية، هو أن باقي العالم بأكمله يشكل وحدة ثابتة. - وأغرب ما في هذه الدرجة الأولى من المنطق هي

فكرة النسبية : لا زلنا، حتى الان، نؤمن في العمق أن أحاسيسنا وأفعالنا هي كلها نتائج حرية اختيارنا. ولو أن الفرد المحس لاحظ نفسه فإنه سيعتبر كل إحساس، كل تغير شيئا منفردا، أي شيئا لامشروطا، مستقلا : شيئا ينبع منا دون أن يرتبط بشيء سابق عليه أو لاحق له. نحن جائعون، لكننا لانتصور، في البدء، أن جسمنا يطلب الطعام، يبدو على العكس أن هذا الإحساس يفرض نفسه بلا هدف وبلا سبب، أنه ينعزل ويعتبر نفسه قدريا. إذن فالاعتقاد في حرية الإرادة هو خطأ أصلي لدى كل أفراد العهد العضوي، قديم قدم الميول المنطقية التي كانت لديهم؛ الاعتقاد في وجود جواهر مطلقة وأشياء متماثلة هو أيضا خطأ أصلي من أخطاء العهد العضوي بأكمله، وقديم قدَمَهُ. والحالة هذه، وبما أن الميتافزيقا كلها قد انشغلت أساسا بالجوهر وبحرية الإرادة فإنه يمكننا أن نصفها بأنها العلم الذي يبحث أخطاء الإنسانية الأساسية، لكن باعتبارها حقائق أساسية.

19. ا لعدد.

لقد تم ابتكار قواعد الحساب انطلاقا من الخطأ الذي ساد منذ البدايات، من معرفة أنه قد تكون هناك عدة أشياء متماثلة (لكن ليس هناك في الواقع أن شيء متماثل)، أنه قد توجد على الأقل أشياء(لكن ليس هناك من «شيء».الإقرار بالتعدد هو دائما تسليم بأن هناك شيئا ما يظهر عدة مرات : هنا بالضبط يسود الخطأ، هنا تختلف الذوات والوحدات التي هي غير موجودة. - إن تصوراتنا للمكان والزمان خاطئة من خلال اختبار منطقي، إلى تناقضات منطقية. حيث نضع صيغنا العلمية كلها فإننا دائما ندخل في الحساب بعض القياسات الخاطئة، لكن بما أن هذه القياسات ثابتة على الأقل، كتصورنا للمكان والزمان مثلا، فإن نتائج العلم تكتسب منها مع ذلك دقة ويقينا تامين في تسلسلهما؛ويمكننا أن نستمر في البناء عليها - إلى ذلك الحد الأقصى الذي يحصل فيه تناقض بين المسلمة الأساسية، بين هذه الأخطاء المستمرة وبين النتائج، كما في نظرية الذرة مثلا. هنا بالضبط نشعر دائما بأننا مضطرون لافتراض «موضوع» مادي تقع عليه الحركة ، بينما المنهجية العلمية كلها قد جعلت مهمتها بالضبط هي تحويل كل ما هو ذو طبيعة مادية إلى حركات : هنا أيضا يجعلنا إحساسنا نفصل بين ما يتحرك وما يتم تحريكه، ولا نخرج من هاته الدائرة لأن الإعتقاد في الأشياء مرتبط بكياننا الضارب في القدم. - إن قول كانط : « الذهن لايمتح قوانينه من الطبيعة بل يصفها لها» صحيح للغاية نسبة إلى مفهوم الطبيعة الذي نحن مجبرون على إعادة ربطه بها (الطبيعة = العالم كتمثل، أي كخطأ)، لكنه لا يمثل سوى فذلكة من ضمن كمية

من أخطاء الذهن. - إن قواعد الحساب غير قابلة للتطبيق البتة على عالم ليس من تمثلنا : إنها لا تستعمل إلا في عالم الإنسان فقط .

20.العودة إلى الوراء بضع درجات.

يبلغ الإنسان درجة جد عالية من الحضارة حين يتغلب على مخاوفه، على أفكاره الخرافية والدينية*، ويكف مثلا عن الإيمان بالملائكة الحراس وبالخطيئة الأصلية، حين لايعود يحسن حتى الكلام عن خلاص الأرواح : عندما يصل إلى هذه المرحلة من التحرر يبقى عليه أن يبذل أقصى مجهود له في التفكير كي ينتصر على الميتافزيقا. غير أن ذلك لن يعفيه من ضرورة القيام بحركة إلى الوراء بعد ذلك :ينبغي عليه أن يفهم التبرير التاريخي لهذه التمثلات بقدر ما يفهم تفسيرها النفسي، عليه أن يعترف بأن أعظم ما حققته الإنسانية من رقي قد كان ذلك مصدره وأننا إذا لم نَقُمْ بهذه الحركة إلى الوراء فسنحرم من أفضل ما حققته الإنسانية حتى الآن. - بخصوص هذه النقطة من الفلسفة الميتافزيقية أرى جيدا أن عدد الذين بلغوا منها الحد السلبي يتزايد (مع العلم أن كل ميتافزيقا إيجابية تعتبر خطأ)، لكن نادرون هم أولئك الذين يرجعون بضع درجات إلى الوراء؛ ذلك أنه من المناسب فعلا أن نخترق بالنظرة اخر درجة من السلم، لكن ليس مناسبا أن نرغب في المكوث عندها. إن المتنورين ينجحون في التحرر تماما من الميتافزيقا وينظرون إليها، وقد خلفوها وراءهم، نظرة تفوق : في حين أنه لابد هنا، كما في حلبة سباق الخيل، من العودة إلى منطلق الحلبة.

21 . نصر الشكوكية المفترض.

لنأخذ نقطة انطلاق الشكوكية مأخذ الجد قليلا؛ لو افترضنا أنه لا وجود لعالم آخر، ميتافزيقي، وأن كل التفسيرات المستعارة من الميتافزيقا لا يمكننا استخدامها لتفسير العالم الذي نعرفه، فبأية عين سنرى الناس والأشياء؟ يمكننا أن نتخيل أن هذا سيكون مفيدا حتى ولو لم نطرح السؤال إطلاقا عما إذا كان كانط وشوبنهاور قد برهنا علميا على أية نقطة من نقط الميتافزيقا. لأنه من المحتمل جدا،حسب الاستلاحة التاريخية، أن يصير الناس يوما، في كل العالم، شكوكيين تماما بهذا الخصوص؛ سيكون السؤال انذاك : كيف سيصير المجتمع الإنساني تحت تأثير هذه العقلية؟ ربما سيكون تقديم دليل علمي على وجود عالم ميتافزيقي ما صعبا جدا بحيث لن تتخلص الإنسانية من بعض الشك بخصوص وجوده .ومهما يكن الشك الذي ننميه بخصوص الميتافيزقيا قليلا فإن

* من الواضح أن نيتشه يقصد الديانة المسيحية وليس كل الأديان.(المترجم).

نتائجه إجمالا هي نفس نتائج الدحض المباشر لها وفقدان الإيمان بها. ويظل السؤال التاريخي المتعلق بعقلية إنسانية لاميتافزيقية هو نفسه في كلتا الحالتين.

22 . شكوكية بخصوص

monumentum aere perennius *

إن إحدى المساوىء الأساسية التي يتضمنها إلغاء المنظورات الميتافزيقية هو كون الفرد يقصر أفقه على حياته القصيرة ولاتكون لديه بواعث قوية كفاية كي يعمل على إنشاء مؤسسات تعمر طويلا، مؤسسات يتم تشييدها لتبقى عدة قرون؛إنه يريد أن يجني هو نفسه ثمرة الشجرة التي يغرسها، وليست لديه الرغبة في غرس تلك الأشجار التي تتطلب عناية منتظمة خلال عدة قرون وتكون مهيأة لأن تظلل أجيالا متتالية. لأن ما تقدمه المنظورات الميتافزيقية للشخص هو الاعتقاد بأن فيها يوجد الأساس النهائي والأخير الذي عليه يجد مستقبل الإنسانية كله نفسه مضطرا لأن يتأسس ويبني ذاته؛ يساهم الفرد في خلاص نفسه ببنائه كنيسة أوديرا مثلا، إنه يعتقد أن ذلك شيء سيحسب له وسيجازى به في الحياة الأبدية للأرواح، إنه يعمل من أجل الخلاص الأبدي لروحه. هل يمكن للعلم كذلك أن يثير نفس الإيمان بنتائجه؟إنه يحتاج في الواقع إلى حليفيه المخلصين، الشك والريبة؛ رغم ذلك يمكن لمجموع الحقائق المقدسة، أي القادرة على مواجهة كل غارات الشكوكية، كل التفككات،يمكنها مع مرور الزمن أن تنمو، (كما في علم الصحة مثلا)، إلى درجة يقرر عندها الناس أن يبنوا مآثر «خالدة» . في انتظار ذلك لايزال التعارض الحاصل بين وجودنا المضطرب بفعل الأشياء الزائلة وبين هدوء العصور الميتافزيقية الشامل ينتج عنه أثر قوي جداً نظرا لكون المرحلتين تتواجهان عن قرب؛ الفر د نفسه يمر اليوم بكثير من التطورات الداخلية والخارجية تجعله لايجرؤ حتى على تنظيم نفسه بشكل نهائي ودائم حسب وجوده الخاص. إن الإنسان العصري الحق يشعر، حين يريد مثلا أن يبني منزلا لنفسه، وكأنه سيحبس نفسه حيا داخل ضريح.

23. قرن المقارنة.

كلما قل ربط التقليد (tradition) للناس بعضهم ببعض، كلما ازداد الإهتزاز الداخلي لبواعثهم، مثلما يزداد، بالموازاة معه، الإهتزاز الخارجي، تشابك العلاقات

---

* أثر أبقى من القلز.

الإنسانية، وتفرع الطموحات. من من الناس يرى نفسه اليوم ملزما بالإرتباط بمكان ما هو وذريته؟ من لايزال لديه أدنى ارتباط مُلْزِمٍ؟ مثلما يقلد الناس في اختلاطهم كل أساليب الفن فإنهم كذلك يفعلون بكل درجات وأشكال اللاأخلاقية والتقاليد والحضارة. – يكتسب قرن مثل هذا القرن أهميته من كون تصورات الناس للعالم، من كون التقاليد والحضارات، يمكن أن تتم فيه، مقارنتها وتجربتها جنبا إلى جنب؛ وهو شيء لم يكن ممكنا فيما مضى لَمَّا كان لكل حضارة طابعها المحلي بسبب ذلك الرابط الذي كان يربط أنواع الفن وأساليبه بمكان واحد وبعصر واحد. في وقتنا الراهن سيكون تكثيف الحس الجمالي هو من يحسم نهائيا بين القدر الكبير من الأشكال المعروضة للمقارنة : سيدع معظمها يموت، – تحديدا تلك التي سيرفضها هذا الحس. إننا نشهد اليوم كذلك اختيارا لأشكال وتقاليد الأخلاقية السامية التي هدفها هو إختفاء الأخلاقيات الدنيا. إنه قرن المقارنة. ثمة فخره، – لكن ثمة كذلك، وبكل إنصاف،معاناته. لانخشين هذه المعاناة! لنحاول بالأحرى، وبكامل المروءة التي بمقدورنا، أن نفهم المهمة التي يفرض علينا هذا القرن الاضطلاع بها : وستشكر لنا الأجيال القادمة ذلك، – أجيال ستدرك أنها فوق الحضارات القومية،الأصلية والمغلقة، وفوق حضارة المقارنة، لكنها ستلقي إلى الوراء نظرة اعتراف بالجميل على نوعي الحضارة هذين، على هذه العصور القديمة الجليلة.

24 . إمكانية التقدم

حين يقسم عالم بالحضارة القديمة على ألايخالط الذين يؤمنون بالتقدم أبدا فإنه يكون على حق. لأنه ليس لهذه الحضارة القديمة عظمة ولافضيلة إلا في الماضي، والتكوين التاريخي يفرض علينا أن نعترف أنها لن تستعيد ألقها أبدا؛ لن ينكر هذا إلا عقل بليد بشكل لايطاق أو متحمس بشكل لا يحتمل. يمكن للناس أن يقرروا بكامل وعيهم أن يواجهوا تطورهم نحو حضارة جديدة، في حين أنهم كانوا حتى الآن يتطورون بشكل لاشعوري وبالصدفة يمكنهم اليوم أن يخلقوا شروطا أفضل لتناسل الناس، لتغذيتهم، لتكوينهم، يمكنهم أن يتحكموا في اقتصاد الأرض كله، يمكنهم، بشكل عام، أن يستخدموا الطاقات البشرية ويحققوا التوازن فيما بينها. هذه الحضارة الجديدة الواعية ستقتل الحضارة القديمة التي إذا ما نظرنا إليها في شموليتها نرى أنها قد عاشت حياة لاشعورية كحياة الحيوان والنبات؛ – من المحتمل أن تقتل كذلك الريبة بخصوص التقدم. أعني : هناك طيش وشبه عبثية في الإعتقاد بأن التقدم يجب أن

يحصل حتما؛ لكن كيف يمكن إنكار كونه ممكنا؟ على العكس من ذلك، إنه لا يمكن حتى تصور التقدم بالمعنى الذي عرفته الحضارة القديمة وبالوسائل التي بها عرفته. كما أن اللاواقعية الرومانسية حين تستعمل هي الأخرى كلمة «تقدم» التي تنطبق على رؤاها هي (بخصوص الحضارات القومية، الأصيلة والمنغلقة مثلا) إنما تستعير صورته من الماضي؛ ليس لفكرها وخيالها أية أصالة في هذا الميدان.

25 . الأخلاق الخاصة والأخلاق العالمية

لقد صار على الناس، منذ أن لم يعد هناك إيمان بالإله الذي كان يتحكم في مصائر الناس، والذي كان سيقود الإنسانية بجلال إلى الخلاص، رغم كل المنعرجات البادية في الطريق الذي تسلكه، صار عليهم أن يحددوا لأنفسهم أهدافا عالمية تشمل الأرض كلها. الأخلاق القديمة، خاصة أخلاق كانط، تتطلب من الفرد تلك التصرفات المنتظرة من كل الناس : لقد كان ذلك شيئا جميلا بقدر ما كان ساذجا ؛ كما لو أن كل فرد كان يعرف بالضبط السلوك الأفيد للإنسانية كلها، وبالتالي يعرف التصرفات المرغوب فيها بشكل عام؛ إنها نظرية يمكن مقارنتها بنظرية التبادل الحر بفرضيتها التي تقول إن الوفاق العالمي يجب أن يقوم من تلقاء نفسه حتما بفضل قوانين الإتقان الفطرية. لكن تشابه كل الناس في تصرفاتهم قد لا يبدو شيئا مرغوبا فيه من المنظور المستقبلي لحاجيات الإنسانية، بل يحتمل، خدمة للأهداف العالمية، أن يتم تحديد مهام خاصة، بل ربما ،غير مناسبة،لمجموعات كاملة من البشر. على أية حال، إذا ماشئنا ألا يكون هلاك الإنسانية على يد هذه الحكومة العالمية المتبصرة فإنه علينا، قبل كل شيء، أن نكتسب معرفة بشروط الحضارة تتجاوز كل المراحل الحالية لكي تكون قاعدة علمية للأهداف العالمية. هذه هي المهمة الجسيمة المنوطة بمفكري القرن القادم.

26. الإرتكاس كتقدم.

يحدث أن تظهر عقول فظة، عنيفة وأخاذة، ولكنها متخلفة مع ذلك، فتبعث، بشكل سحري، مرحلة من عمر الإنسانية طواها الزمن ؛ إنها تتخذ كدليل على أن النزعات الجديدة المناوئة لها لما تصر قوية بعد، أن شيئا ما ينقصها : وإلا لكانت صمدت أكثر في وجه هؤلاء الفاتنين. فإصلاح لوثر، مثلا،يشهد على أن مد حرية الفكر كان لما يزل في ذلك العصر مشكوكا فيه، لين العود، في ريق العمر، كان العلم لما يزل عاجزا عن الشموخ برأسه. وفضلا عن ذلك، إن النهضة كلها تشبه ربيعا أتى

قبل الأوان فلم يلبث أن أحرقته الثلوج. ،غير أنه حتى في عصرنا قد أظهرت ميتافزيقا شوبنهاور أن العقل العلمي لم يصر قويا بعد : بحيث أن تصور العالم، أن صورة الإنسان في القرون الوسطى المسيحية هي التي تمكنت من الإحتفال بانبعاثها في مذهب شوبنهاور، رغم أن تقويض كل أركان العقيدة المسيحية قد تم منذ أمد طويل. إن للعلم حصة كبيرة في هذا المذهب، لكنه ليس هو المهيمن عليه بل «الحاجة الميتافزيقية القديمة. إن إحدى الإيجابيات اللاتقدربثمن التي نجنيها من وراء شوبنهاور، بالتأكيد، هي كونه أحيانا يعود بإحساسنا ، بشكل لايقاوم، إلى طرق قديمة وناجعة في تأمل العالم والناس لن يقودنا إليها بمثل تلك السهولة أي طريق آخر، إنه مكسب كبير لتاريخ العدل؛أعتقد أنه لا أحد سيتوفق بسهولة، في وقتنا الراهن، في إنصاف المسيحية والديانات الأسيوية المشابهة دون مساعدة شوبنهاور : وهو شيء مستحيل إن ولجنا ميدان المسيحية الحالية.الآن يمكننا، بعد نصر العدالة الكبير هذا، بعد تصحيح نقطة مهمة جدا في التصور التاريخي الذي أدخله عصر الأنوار، يمكننا أن نستعيد راية الأنوار لنذهب بها إلى مدى أبعد، - تلك الراية الحاملة أسمماء بترارك، إراسموس، وفولتير.بذلك سنكون قد جعلنا من الارتكاس تقدما.

27. مناوبة الدين.

نعتقد أننا نمجد فلسفة ما حين نجعلها تحل محل الدين عند الشعب. إن الحاجة إلى الأفكار الانتقالية تظهر فعلا، عند الإقتضاء، في الإقتصاد الروحي؛ الانتقال من الدين إلى الرؤية العلمية للأشياء قفزة قوية وخطيرة، وهو شيء غير منصوح به. ورغم ذلك يبقى هذا التقريظ ذا أساس متين. لكن ينبغي أن ننتهي، بعد كل حساب،إلى إدراك أن الحاجيات التي لباها الدين، والتي يُطْلَب من الفلسفة الآن أن تلبيها،ليست ثابتة؛ إذْ يمكننا أن نضعفها وأن نقوضها.لنتفكر مثلا في الكُرَب المسيحية، في التحسرات على فساد الروح ، في القلق بشأن الخلاص، - كلها تمثلات مصادرها أخطاء العقل، وإنها لاتستحق التلبية بل أن تصير أثرا بعد عين.قد تكون فلسفة ما نافعة إما بتلبيتها هي بدورها لهذه الحاجيات،وإما بحذفها لها؛ لأنها حاجيات مكتسبة ،محصورة في الزمن، وتقوم على فرضيات تناقض فرضيات العلم. يمكننا هنا، كي نقوم بالانتقال، أن نلجأ إلى الفن بهدف التخفيف عن الروح المشحونة بالأحاسيس؛ لأنه يتعهد هذه التمثلات بشكل أقل كثيرا مما تفعله فلسفة ميتافزيقية. سيكون من السهل بعد ذلك المرور من الفن إلى علم فلسفي محرر بالفعل.

28. كلمات فقدت الاعتبار.

لتسقط كلمتي التفاؤل والتشاؤم اللتين استعملتا حد التقرز! لأن داعي استعمالهما يتلاشى كل يوم : لم تعودا ضروريتين اليوم إلا بالنسبة للثرثارين. لأنه، في نهاية المطاف، أي سبب سيجعل من إنسان ما شخصا متفائلا إن لم يكن عليه الدفاع عن إله قد خلق أفضل عالم مادام هو نفسه يجسد الخير والكمال؟ وأي مفكر لايزال بعد في حاجة إلى فرضية إله ما؟ لكن ليس هناك أدنى سبب يجعل شخصا ما يعتنق إيمانا تشاؤميا إن لم يكن لديه مصلحةفي معارضة المنافحين عن الإله، وهم اللاهوتيون والفلاسفة المشتغلون باللاهوت، ومواجهتهم بقوة بالطرح المضاد القائل بأن الشر يسود، بأن الاشمئزاز ينتصر على اللذة، بأن العالم حيلة فاشلة، بأنه إظهار لإرادة للحياة قبيحة. ومن يهتم باللاهوتيين اليوم - غير اللاهوتيين أنفسهم ؟ بصرف النظر عن كل لاهوت وعن كل حرب ضد اللاهوت،فإن العالم، بداهة، لايبدو خيرا ولاشريرا، لايبدو أنه هو الأفضل أو الأسوأ، وأن مفاهيم «خير» و«شرير» لا معنى لهما إلا بالنسبة للإنسان، بل أكثر من ذلك، أنهما ربما لايكونان مبررين هنا إذا أخذنا بعين الإعتبار الطريقة التي بها يتم استعمالهما عادة : وسواء كان ذلك قدحا أوتمجيدا فإنه يجب علينا التخلص من هذا التصور للعالم على أية حال.

29. ثمل بعطر الأزهار.

نتصور أن مسحوب سفينة الإنسانية من الماء كبير لاسيما وأن حمولتها كبيرة. كلما فكر الإنسان بعمق كلما رق إحساسه، وكلما رفع من قدر نفسه كلما اتسعت الهوة التي تفصله عن الحيوان؛ - كلما ظهر بمظهر العبقري وسط الحيوانات، - وكلما اعتقدنا كذلك أنه سيقترب ، بما يتناسب مع ذلك، من جوهر العالم ومن معرفته : ذلك ما يفعله في الواقع عن طريع العلم، ولكنه يتصور أ ن الوصول إ ليه من خلال ديانته وفنونه سيكون أفضل - إنها تمثل ازهارا العالم ولاشك،ولكنها ليست أقرب إلى جذر العالم من القدم : ليس من خلالها نستطيع النفاذ إلى جوهر الأشياء بشكل جيد، مثلما لايزال كل الناس تقريبا يعتقدون. هذا الخطأ هو الذي صيرا الإنسان عميقا ودقيقا وماهرا كفاية كي يستخرج من نسغه ازهارا لفنون والديانات هذا. أما المعرفة المحضة فقد عجزت عن ذلك. إن الذي سيكشف لنا جوهر العالم سيُصيبنا بخيبة شديدة. العالم كتمثل (كخطأ)، وليس العالم كشيء في ذاته، هو الثر بالمعنى، هو العميق، الخارق، المليء سعدا وتعاسة. هذه التنيجة تؤدي إلى الإنكار المنطقي

للعالم : وهي تتوافق بالأحرى مع الإثبات العملي للعالم مثلما تتوافق مع عكس ذلك.

30. عادات تفكير سيئة

هذه هي القياسات الفاسدة التي اعتادها الإنسان أكثر : هذا الشيءموجود، إذن له حقوق. يتم المرور هنا من صفة الوجود إلى الغائية، ومن الغائية إلى الشرعية. كذلك : هذا الرأي يسعد، إذن فهو الرأي الصحيح، أثره جيد، إذن فهو جيد وصحيح. إن الأثر هو الذي تطلق عليه هنا صفة : نافع، جيد، بمعنى مفيد، وتطلق على السبب نفس الصفة، أي جيد، لكن هذه المرة بمعنى أن له أساسا منطقيا. يقابل هذه القضايا : هذا الشيء لايستطيع أن يفرض نفسه، أن يصون نفسه، إذن فهو قبيح؛ هذا الرأي يعذب، يغضب، إذن فهو خاطيء. العقل المتحرر، الذي غالبا ما يلم بعيب التفكير هذا ويعاني من عواقبه، كثيرا ما يستلم لإغراء الخروج باستنتاجات معاكسة تكون هي الأخرى، بالطبع، قياسات فاسدة على العموم : هذا الشيء لايستطيع أن يفرض نفسه، إذن فهو جيد؛ هذا الرأي يشقي، يحزن،إذن فهو صحيح.

31 . ضرورة اللامنطقي.

من ضمن الأشياء التي قد تؤدي بمفكر ما إلى اليأس معرفته أن اللامنطقي ضروري للإنسان، وأنه ينجم عنه خير عميم. يرتبط اللامنطقي ارتباطا وثيقا بعمق الإنفعالات، بعمق اللغة والفن والدين، وبشكل عام بكل ما يضفي قيمة على الحياة، بحيث لن نستطيع أن نفصله عن هذه الأشياء الجميلة دون أن نفسدها بشكل لايمكن إصلاحه. وحدهم الناس المفرطو السذاجة هم من يمكن أن يعتقدوا في إمكانية تحويل الطبع الإنساني إلى طبع منطقي صرف؛ ولو أن الاقتراب من هذا الهدف كان على درجات فكم من أشياء سنتخلى عنها ونحن في الطريق إليه! حتى الشخص الأكثر تعقلا يحتاج من حين لآخر للعودة إلى الطبيعة، أي إلى العمق اللامنطقي لعلاقته مع كل الأشياء.

32. ضرورة عدم الإنصاف.

كل الأحكام الصادرة بشأن قيمة الحياة يتم تكوينها بشكل لامنطقي وتكون بالتالي غير منصفة. يتعلق الخطأ في الحكم أولا بالطريقة التي بها تعطى مادة الحكم، أي بشكل غير كامل، ثانيا بالطريقة التي تتشكل منها في مجموعها، وثالثا بكون عنصر من عناصر هذه المادة هو بدوره نتيجة معرفة خاطئة بالضرورة. لا يمكن لتجربة كائن حي أيا كانت، مهما يكن هذا الكائن الحي قريبا منا، أن تكون كاملة كفاية كي تخولنا

الحق، منطقيا، في القيام بتقييم شامل لهذا الكائن؛ كل التقييمات متسرعة، ومتسرعة بالضرورة. أخيرا، إن المعيار الذي نستعمله للقياس، وهو كياننا، ليس قياسا ثابتا، إن لدينا أمزجة، وتعترينا تقلبات، وعلينا، مع ذلك، أن نعرف أنفسنا كمعيار ثابت كي نكون منصفين حين نقيم أي شيء في علاقته بنا. ربما سينتج عن هذا أنه لا ينبغي لنا إصدار حكم أبدا؛ لكن كم سيستحيل علينا انذاك أن نحيا دون أن نضع قيما، دون أن نشعر بالنفور أو الميل! – لأن كل نفور يرتبط بتقييم، وكذلك كل ميل. ليس لدى الإنسان دافع يدفعه لأن يقبل على أويمتنع عن شيء لا يصاحبه الإحساس بالرغبة في النافع واجتناب القبيح، ولا دافع خال من نوع المعرفة الذي يقدر قيمة الهدف. إننا نعرف ككائنات لامنطقية، وبالتالي غير منصفة، ونحن قادرون على الاعتراف بهذه المسألة : إنه ا لنشاز الأقوى، الصعب شفاؤه ،في الوجود.

33. الخطأ بشأن الحياة ضروري للحياة

يقوم كل اعتقاد في قيمة الحياة ونبالتها على فكرة خاطئة؛ إن ما يجعله ممكنا هو كون أحاسيس مشاركة الإنسانية في حياتها وفي معاناتها العالميتين ليست متطورة لدى الفرد بشكل كبير. حتى أفراد النخبة الذين يسمو فكرهم عن شخصهم لايتأملون هذه الحياة العالمية،بل أجزاء منفصلة ومحدودة. إذا استطاع المرء أن يركز انتباهه بالخصوص على بعض الاستثناءات: أعني على ذوي الطباع النبيلة والنفوس الطاهرة، إذا رأى في تكوينهم الهدف من تطور العالم، وإذا وجد متعة في نشاطاتهم، فإنه سيستطيع أن يؤمن بقيمة الحياة، نظرا لكونه يهمل الناس الآخرين آنداك : إذن فهو يزيف فكره. وإذا تأملنا كذلك كل الناس، لكن فقط لكي نقر لديهم نوعا واحدا من الدوافع، الدوافع الأقل أنانية، ونبرئها بالقياس إلى الدوافع الأخرى فسنستطيع من جديد أن نزرع بعض الأمل في الإنسانية بأكملها، وأن نعتقد، بهذا، في قيمة الحياة : حتى في هذه الحالة يكون سبب فعلنا لذلك خطأ في الفكر، وسواء تبنينا هذا الموقف أوذاك فإننا سنكون دائما استثناء بين الناس. مؤكد أن الغالبية العظمى من الناس تتحمل الحياة دون أن تنفر كثيرا، وبذلك تعتقد في قيمة الوجود، غير أن ذلك يتم لأن كل واحد لا يريد إلانفسه ولايقر إلا بها ولايغادر ذاته مثلما تفعل هذه الإستثناءات : إن هؤلاء لا يدركون شيئا مما يتجاوز شخصهم أو أنهم يبصرون ظلا دقيقا على أكثر تقدير. هكذا فإن قيمة الحياة ترتكز، بالنسبة للإنسان العادي، على كونه يولي نفسه أهمية أكبر من التي يوليها للناس. إن النقص الكبير في التخيل الذي يعاني منه يجعله عاجزا عن مناغمة إحساسه مع إحساس الاخرين، بحيث أن اهتمامه بمصيرهم وبمعاناتهم يكون بأقل قدر ممكن. في

المقابل، إن ذاك الذي سيهتم بها فعلا سوف لن يسعه إلا أن ييأس من قيمة الحياة؛ فلو توفق في تمثل شعور(conscience) الإنسانية كله والإحساس به فسينهار وهو يلعن الوجود، - لأن الإنسانية ليس لها أي هدف، بالإجمال ، ولن يمكن للإنسان، بالتالي، أن يجد فيها، إذا تأمل سيرها العام، لا العزاء ولا السند، بل اليأس. وإذا ما انتهى إلى أن يرى في كل ما يقوم به غيابا مطلقا لأهداف إنسانية فإن نشاطه الخاص سيأخذ في نظره صبغة التبذير. وإن إحساس المرء بأن إنسانيته (وليس فقط شخصه كفرد) تبذر بالطريقة نفسها التي نرى الطبيعة تبذر بها أزهارها واحدة واحدة، لهو إحساس يفوق كل الأحاسيس. - لكن من يقدر عليه؟ وحده الشاعر، بكل تأكيد : والشعراء يعرفون دوما كيف يواسون أنفسهم.

34. بمثابة عزاء

ألا تتحول فلسفتنا هكذا إلى مأساة ؟ ألا تصير الحقيقة عدوة للحياة، للأفضل؟ يبدو أن سؤالا ما يلح على لساننا لكنه مع ذلك لايريد أن يطرح نفسه : هل يمكن أن نستمر في الكذب ونحن نعلم؟ ولو تطلب الأمر ذلك قطعا، ألا يكون الموت أفضل؟لأنه ليس هناك أمر قطعي؛ ذلك لأن الأخلاق، بقدر ما كانت أمرا قطعيا، هي خير مثلما خير هو الدين وقد صيرته طريقتنا في الرؤيا لاشيء. لايمكن للمعرفة أن تبقي من الدوافع سوى على اللذة والإشمئزاز والمنفعة والضرر : لكن كيف ستتكيف هذه الدوافع مع معنى الحقيقة؟ لأنها تتاخم الأخطاء هي كذلك (في حدود كون الميل والنفور، بتقييماتهما غير المنصفة، كما أسلفنا ، هما اللذان يحدّدان بالأساس اللذة والاشمئزاز). لقد وقعت الحياة الإنسانير كلها في قعر الكذب؛ ولن يستطيع الفرد إخراجها من هذا الجب، إن لم تتوفر لديه أشد الأسباب وجاهة كي يمقت ماضيه ، إن لم ير أن دوافعه الحالية، كدافع الشرف، عبثية، وإن لم يواجه بالسخرية والازدراء تلك الأهواء التي تنمو في اتجاه المستقبل وفي اتجاه سعادة أخروية. هل صحيح أنه لن تبقى هناك سوى طريقة واحدة في التفكير ستكون عاقبتها هي اليأس وستكون خاتمتها النظرية هي فلسفة الهدم؟ - أعتقد أن القرار بخصوص نتائج المعرفة يتوقف على المزاج الشخصي؛ هذه النتيجة المذكورة انفا، الممكنة لدى بعض الطباع، يمكنني أن أتخيل واحدة أخرى مثلها تماما ستكون بفضلها حياة بسيطة تكون خالصة من العواطف أكثر من حياتنا الحالية :بحيث أن الدوافع القديمة، دوافع العنف والجشع، ستحتفظ بقوتها في البداية، ولاشك، نتيجة لعادة موروثة عن الماضي، لكنها ستضعف بالتدريج تحت تأثير المعرفة المطهر. سننتهي إلى أن نحيا بين الناس ومع ذاتنا كما في الطبيعة، دون مدح، دون ذم،

دون اندفاع، نتملى كما لو بمشهد كثير من الأشياء التي كنا نخافها حتى الآن. سنكون قد تخلصنا من التشدق وسوف لن نحس بمنخس فكرة كوننا لسنا تلقائيين فقط، بل أكثر من ذلك. لقد قلنا أن ذلك سيتطلب، بالتأكيد، طبعا سويا، نفسا واثقة، متسامحة ومرحة في العمق، مزاجا لن يكون في حاجة للإحتراس من الخداع ومن الانفجارات المفاجئة التي سوف لن يكون في تمظهراتها أي أثر لهذه النبرة الزاجرة وهذه الفظاظة اللتين نعرفهما، وهي سِمات بشعة تختص بها الكلاب والناس الذين هرموا في القيود، إن إنسانا تخلص نهائيا من قيود الحياة بحيث أصبح يحيا فقط من أجل تحسين معرفته باستمرار عليه، على العكس، أن يستطيع التخلي دون حسد أوغم عن كثير من هاته الأشياء، بل عنها كلها تقريبا، هاته الأشياء التي لها بعض القيمة في عيون الاخرين؛ ينبغي أن تكفيه تلك الحالة التي تجعله يحلق بحرية وشجاعة فوق الناس، فوق التقاليد، فوق القوانين والتقييمات التقليدية للأشياء، نظرا لكونها هي الحالة المرغوب فيها أكثر. إنه يريد أن يعلن عن الفرحة التي تنتابه من هذه الحالة، يحب أن يعلن عنها، وربما ليس لديه أي شيء اخر يعلن عنه، – وهو ما يعني حرمانا، تخليا اخر. وإن طلبنا منه أكثر من ذلك فسيحيلنا بإيماءة إرعائية من رأسه إلى أخيه إنسان الفعل الحر، وربما لن يخفي شيئا من سخريته : لأن «حرية» هذا الإنسان حكاية أخرى.

الكتاب الثاني
خدمة لتاريخ الأحاسيس الأخلاقية

35. منافع الملاحظة النفسية.

كان الناس في القرون الماضية يعتقدون، يعرفون أن تأمل الإنساني، المفرط في الإنسانية – أو، كما يقول المصطلح التقني : الملاحظة النفسية – هو إحدى الوسائل التي تمكنا من تخفيف عبء الحياة، وأن ممارسة هذا الفن يجعلنا حاضري البديهة في بعض الحالات الحرجة ويسلينا وسط محيط مضجر، بل أكثر من ذلك، أنه يمكننا من جني محصول من الحكَم في الميادين الشائكة والعويصة من حياتنا، بحيث أن ذلك يجعلنا نشعر بتحسن. لماذا نسيها هذا القرن، هذا القرن الذي تشير فيه علامات كثيرة إلى عجز الملاحظة النفسية، في ألمانيا على الأقل، إن لم يكن في أوروبا كلها ؟ إن فن التحليل والتنظيم النفسيان هذا لايغيب كثيرا عن الرواية، عن القصة القصيرة وعن الدراسة الفلسفية،– التي يمارسها أفراد يشكلون الاستثناء ؛إنه يغيب أكثر عن الأحكام الصادرة بخصوص الشخصيات والأحداث العامة؛ ويغيب بالخصوص عن كل مستويات المجتمع التي يتم فيها الحديث كثيرا عن الناس وليس أبدا عن الإنسان . لماذا يحرم أناس هذه المستويات أنفسهم من موضوع الحديث الأكثر غنى وبراءة؟بل لماذا لم يعودوا يقرأون أرباب الحكمة النفسية ؟ لأنه، وأقول هذا دون أدنى مبالغة : يندر أن يكون هناك في أوربا إنسان مثقف قرأ لاروشفوكو والكتاب الآخرين الذين لهم نفس العقلية ونفس الفن؛ وأندر من ذلك وجود شخص عرفهم ولم يحتقرهم. وحتى هذا القارىء الاستثنائي ربما يجد في ذلك لذة أقل من تلك التي يفترض أن يمنحها إياه شكل هؤلاء الفنانين؛ لأنه حتى العقل الشديد الدقة لا يستطيع أن يقدر فن شحذ الحكَم حق قدره إن لم يكن قد درب على ذلك، إن لم يجهد نفسه في ذلك. في غياب هذا التعليم التطبيقي يعتقد الناس أن عمل الشكل هذا أسهل مما هو عليه، لا ينفذ إحساسهم إلى مافيه من التفوق ومن السحر. لذلك لا يجد فيه قراء الحكَم الحاليين سوى لذة عديمة الطعم نسبيا، لا يقرأونها بشهية، حتى أنهم يوجدون تماما في نفس

وضع عشاق الجزع المنقوش* التافهين : الذين يَمْدَحُون لأنهم يَعْجِزُون عن الحب، وسرعان ما يُعْجَبُون لكنهم بأسرع من ذلك ينسحبون.

36 . نقطة نظام.

إلأأن تكون هناك حجة لمعارضة هذا الافتراض الذي يقول بأن الملاحظة النفسية هي إحدى مفاتن الوجود، إحدى علاجاته، مُلَطِّفَاته؟ ألن يكون الناس قد اقتنعوا بما فيه الكفاية بعواقب هذا الفن الوخيمة كي يتعمدوا تحويل الأشخاص الذين يتثقفون، منذ الآن، بعيدا عنه؟ في الواقع،قد يكون إيمان أعمى بطيبة الطبع الإنساني، أو نفور راسخ من تحليل التصرفات الإنسانية، أو نوع من الحياء بخصوص عري الروح، قد تكون كلها أشياء مرغوبة فعلا، فيما يتعلق بمجموع سعادة إنسان ما، أكثر من هذا النفاذ النفسي الذي هو ميزة مفيدة في بعض الحالات الخاصة جدا؛ وربما يكون الاعتقاد في الخير، في الناس الأفاضل والأعمال الفاضلة، في إرعاء منتشر بين الناس بوفرة في العالم، قد صَيَّر الناس أفضل بجعلهم أقل ارتيابا. لو قلدنا بحماس أبطال بلوتارخ ونحن نحس بالنفور الذي علينا إظهاره كي نجعل بواعث تصرفاتهم موضع شك فسيكون ذلك ربحا. ليس بالنسبة للحقيقة بكل تأكيد، بل بالنسبة للسير الحسن للمجتمع الإنساني : إن الخطأ النفسي، وبشكل عام، فقد الحس في هذا الميدان، هما اللذان يساعدان الإنسانية على التقدم، في حين أن معرفة الحقيقة ربما تستفيد أكثر من القوة المحرضة لفرضية قدمها لاروشفوكو في صدر طبعته الأولى من حكم وأمثال أخلاقية كمايلي : إن ما يسميه الناس فضيلة ليس في الغالب سوى شبح كونته أهواؤنا، ونطلق عليه اسما شريفا كي نقوم بمانريد ونحن آمنون من العقاب.» إن لاروشفوكو وسواه من أرباب الدراسة النفسية الفرنسيين (الذين انضم إليهم مؤخرا هذا الألماني مؤلف ملاحظات نفسية)* يشبهون الرماة الذين يسددون بدقة ويصيبون الهدف في الظلمة بانتظام، - في ظلمة الطبع الإنساني. إن براعتهم لتستدعي الإندهاش، إلى أن يلعن هذا الذي يبدو أنه يُرَسِّخ في النفوس الميل إلى الإنتقاص من شأن الإنسان والشك فيه.

37 . ومع ذلك

أيا تكن حساباتنا لصالح أوضد علم معين في وضعه الراهن فإن نهضة الملاحظة النفسية قد أصبحت ضرورية، ولم يعد بوسعنا أن نُجَنِّبَ الإنسانية رؤية

---

*Camée = ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان ينقش ويتخذ حلية (المنهل)

* يقصد Paul Rée (المترجم)

المنظر البشع لطاولة التشريح ، لمباضعها وملاقطها. الإمرة هنا تعود إلى هذا العلم الذي يتحرى أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية، كما يسمونها، والذي مهمته، كما تقدم، هي طرح المشاكل الإجتماعية المعقدة وحلها. الفلسفة القديمة تجهل هذه المشاكل جهلا تاما، وقد تلافت دائما، بأعذار تافهة، دراسة أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية. ويمكننا أن نرى نتائج ذلك بوضوح الآن وقد برهنت الكثير من الأمثلة على أن أخطاء الفلاسفة الكبار تنطلق كلها من تأويل خاطىء لبعض التصرفاتوالأحاسيس الإنسانية، على أن تحليلا خاطئا، مثلا لتصرفات قيل عنها أنها نزيهة، يتخذ كقاعدة لإقامة أخلاق خاطئة يتم اللجوء حبا فيها إلى طلب عون الدين والأوهام الميثولوجية، وبذلك تنتهي ظلال هذا الشبح الغامض بأن تخالط الفيزياء ومجمل أفكارنا عن العالم. إذا كان أكيدا أن هذا الجانب السطحي من الملاحظة النفسية قد نصب، ولازال ينصب، أخطر فخاخه للحكم والتفكير الإنسانيين فإننا سنحتاج، للقيام بمهمتنا، منذ الآن، إلى تلك الاستماتة التي لا تكل من وضع حجر على حجر، وحصاة على حصاة ، سنحتاج جسارة في اعتدالنا حتى لانحمر خجلا من هذه المهمة المتواضعة جدا وحتى نستخف بكل الازدراء الذي ستثيره. لنقل الحقيقة : لاحصر للملاحظات المترفعة التي تمت بخصوص نصيبنا الإنساني، المفرط في إنسانيته، والتي يعود الفضل في اكتشافها وأول تعبير عنها إلى دوائر المجتمع التي اعتادت تكريس كل الطرق، ليس للمعرفة العلمية، بل للتأنق الروحي؛وقد بقيت رائحة أول مهد للحكم الأخلاقي - وهي رائحة تغوي كثيرا - عالقة بهذا الصنف كله،وكأنها لاتفارقه : وهي سبب كون رجل العلم يظهر لاإراديا بعض الإرتياب بخصوص هذا الصنف وبخصوص جديته. لكن يكفي أن تحيل على الاستتباعات : لأننا بدأنا منذ الان نرى كم هي جدية تلك النتائج التي تتكاثر في ميدان الملاحظة النفسية. ماهو هذا المبدأ الكبير الذي يصل إليه مؤلف كتاب عن أصل الأحاسيس الأخلاقية*، أحد المفكرين الجريئين والهادئين، بفضل تحليلاته القاطعة والحاسمة للسلوك الإنساني؟ «الإنسان الأخلاقي، يقول، ليس بأقرب إلى العالم المعقول (الميتافزيقي) من الإنسان الجسداني.*» هذا الافتراض الذي قوته وشحذته ضربات مطرقة المعرفة التاريخية قد يكون يوما ما في المستقبل غير المنظور، المعول الذي سيقطع به جذع «الحاجة الميتافزيقية» لدى الناس - وقد يكون ذلك رحمة أكثر منه لعنة بالنسبة للأجيال القادمة، من يدري؟ - لكنه يظل على كل

* يتصد Paul Rée
* متعلق أساسا بالجسد وبحاجته

حال، وإن كانت تبعاته لاحصر لها، اقتراحا خصبا ومرعبا في ذات الوقت، ويسحر الناس بثنائية وجهه التي تتميز بها كل المعارف الكبرى.

38.نافع، لكن إلى أي حد؟

لنلخص : إن معرفة ما إن كان ما تقدمه الملاحظة النفسية مفيدا للناس أم مضرا بهم قد تظل معلقة على أية حال؛ لكنها ضرورية بالتأكيد نظرا لكون العلم لن يستطيع الاستغناء عنها، والحال أن العلم، كما الطبيعة، لايعرف أي اعتبار للغايات الأخيرة؛ ومع ذلك،مثلما تحقق هي عند الإقتضاء، ودون أن تريد ذلك، أشياء مناسبة جدا، كذلك العلم الأصيل، مقلد الطبيعة في المفاهيم، سينمي بالصدفة، بل وبوفرة، ماهو نافع لرفاهية الناس، وسيبلغ الدقة في الممارسة، - لكن دون أن يريد ذلك هو الاخر.لو أن شخصا، وقد لامسه نَفْسٌ مثل هذه الطريقة في الرؤية، أحس أن روحه قد جمدها الشتاء فعلا، فربما يعني ذلك أن النار فقط هي التي تنقصه؛ فليلق نظرة حوله وسيرى بعض الأمراض التي يكون تزميل صاحبها في الثلج ضروريا للعلاج، وسيرى أناسا وقد «امتلأوا» جمرا وعقلا إلى حد أنهم لايجدون في أي مكان هواء باردا وجارحا لهم. علاوة على ذلك، مثلما يحتاج بعض الآخرين السريعي الاهتياج والمتقلبين، من وقت لآخر، إلى أعباء ثقيلة ومضنية من أجل صحتهم : ألن يكون ضروريا بالنسبة لنا، نحن الذين من مستوى عقلي عال في قرن يلتهب أكثر فأكثر،أن نلجأ إلى كل الوسائل المتاحة، المطفئة والمبردة، حتى نحافظ على الأقل على القدر المتبقي لدينا من الجَلَد، من سلامة النية ومن الإتزان، ونبرهن بذلك على منفعتنا ونحن نعمل كمراة لهذا القرن وكوعي لتأمله لنفسه؟...

39. حكاية الحرية المعقولة.

يمر تاريخ الأحاسيس التي بسببها نجعل شخصا ما مسؤولا، أي تاريخ الأحاسيس المسماة أخلاقية، يمر بالمراحل الكبرى الآتية . بالنظر إلى التصرفات معزولة عن بواعثها ثم نقول عنها بأنها حسنة أو قبيحة فقط بسبب نتائجها النافعة أو الضارة. لكننا سرعان ما ننسى أصل هذه التسميات ونتصور أن ميزة «حسنة» أو «قبيحة» ملازمة للتصرفات ذاتها، في استقلال عن نتائجها : متَبنين نفس الخطأ الذي يجعل اللغة تصف الحجر بأنه صلب والشجرة بأنها خضراء - أي أننا نعتبر المعلول علة. بعد ذلك نضفي ميزَة حسنة أو قبيحة على الدوافع نفسها ونعتبر التصرفات في ذاتها غامضة أخلاقيا . نمضي أبعد فنطلق المحمول (predicat) حسن أوقبيح ليس على الدافع

معزولا بل على كيان الفرد كله الذي عنه يصدر الدافع مثلما من التربة تخرج النبتة. هكذا نجعل الإنسان بالتوالي مسؤولا عن النتائج التي يثيرها، وعن تصرفاته، ثم عن دوافعه، وأخيرا عن كيانه نفسه. ننتهي إذن بأن نكتشف بأن هذا الكائن لا يمكنه أن يكون مسؤولا نظرا لكونه ليس سوى استتباع حتمي ونتيجة لتشابك أشياء ماضية وحاضرة ولتأثيرها في بعضها؛ بحيث أنه ل لا يمكننا أن نجعل الإنسان مسؤولا عن شيء، لا عن كيانه، لا عن دوافعه، لا عن أفعاله، ولا عن نتائجها. هكذا نصل إلى نقطة الإعتراف بأن تاريخ الأحاسيس الأخلاقية هو تاريخ* خَطأ، خطأ المسؤولية ؛ الذي يقوم على الخطأ المتعلق بحرية الإرادة. - ماذا كان شوبنهاور يعارض بالتفكير التالي : مادامت بعض الأفعال تستتبع ندماً («إحساسا بالخطأ») فلا بد أن هناك أي داع لمثل هذا الندم لو أن كل أفعال الإنسان كانت تتم ليس لزوما فقط - مثلما تتم فعلا حسب رأي هذا الفيلسوف نفسه - ، بل لو أن الإنسان نفسه كان يتبوأ كيانه كاملا بنفس اللزوم - الشيء الذي ينكره شوبنهاور. يعتقد شوبنهاور، بفعل هذا الندم، أنه يقدر أن يبرهن على حرية يكون الإنسان قد حصل عليها بطريقة ما، ليس من جهة أفعاله بكل تأكيد، ، بل من جهة جوهره : إنها إذن حريته في أن يكون فلانا أوفلانا، وليس أن يتصرف بهذه الطريقة أوتلك. إن *L'esse التي هي حقل الحرية والمسؤولية، بستتبع، في نظره، L'operari ، التي هي حقل السببية واللزوم واللامسؤولية المطلقة. والندم المذكور قد يرتبط في الظاهر ب *L'operari - وهو بذلك سيوصل إلى الخطأ - ، لكنه في الواقع يرتبط في ب L'esse، الذي هو فعل إرادة حرة، وعلة أساسية لوجود الفرد؛ إن الإنسان يصير ما يريد أ ن يصيره، وإرادته سابقة لوجوده.- القياس الفاسد هنا هو أن نخلص من حقيقة الندم إلى تبريره، إلى أساسه المنطقي؛ وبالانطلاق من هذا القياس الفاسد يصل شوبنهاور إلى خلاصة وهمية عن حرية يسميها معقولة. لكن الندم الذي يأتي بعد الفعل لا يحتاج إطلاقا إلى أن يقوم على منطق : بل إنه ليس كذلك بالتأكيد، لأنه يقوم بالضبط على الفرضية الخاطئة بأن الفعل لم يكن لازم الحدوث. هكذا إذن يشعر الإنسان بالحسرة وبتبكيت الضمير لأنه حر. - علاوة على ذلك، فهذا الندم إنما هو عادة يمكن أن نقلع عنها ، على أية حال، إن كثيرا من الناس لا يشعرون به حين قيامهم بأفعال تثيره لدى كثيرين غيرهم. إنه شيء متغير جدا، مرتبط بتطور العادات والحضارة، وربما لايظهر إلاخلال مرحلة قصيرة نسبيا من التاريخ العالمي. - لا أحد مسؤول عن أفعاله، لا أحد مسؤول عن كيانه؛

---

* الخلق = l'esse . العمل = L'operari

وإصدار حكم معناه عدم الإنصاف. ويصح ذاك أيضا حين يصدر الفرد حكما على نفسه. الإفتراض واضح وضوح شمس مشرقة، ومع ذلك فإنه هو الحالة التي يفضل فيها الكل العودة إلى الظل وإلى الكذب – خوفا من العواقب.

40. ألفَوْحَيَوَان.

الحيوان الذي فينا يريد أن يخدع؛ الأخلاق هي تلك النجدة الكاذبة التي تحفظنا من التمزق. ولو لا الأخطاء التي تتضمنها الفرضيات الأخلاقية لظل الإنسان حيوانا. لكنه بهذا قد اعتبر نفسه شيئا متفوقا وفرض على نفسه قوانين أشد صرامة، كما أنه يشعر بحقد تجاه المراحل التي ظلت أقرب إلى الحيوانية : من هنا يمكن تفسير الاحتقار القديم للعبد، هذا الإنسان الذي ليس إنسانا، هذا الشيء.

41. الطبع الثابت.

إن الحكمة المفضلة القائلة بأن الطبع لايتغير ليست صحيحة بحصر المعنى، إنها تعني على أكثر تقدير، أن الدوافع الفاعلة لايمكنها عادة، أثناء الوجود القصير لإنسان ما، أن تنحت نفسها بعمق كاف كي تمحو آثار الألفيات. لكن لو تخيلنا إنسانا عمره ثمانون ألف سنة فسنجد لديه طبعا شديد التغير : بحيث ستتولد عنه تترى جماعة من الأفراد المختلفين. إن قِصَرَ حياةِ الإنسان هو الذي يضللنا فندافع عن الأخطاء المتعلقة بمزايا الإنسان.

42. الأخلاق وترتيب المنافع.

إن تراتبية المنافع التي تم قبولها نهائيا حسب الدرجات العليا أو الدنيا لدى أنانية تريد هذا أوذاك هي التي تقرر الآن الصفات الأخلاقية أو اللاأخلاقية. إن تفضيل منفعة من الدرجة الدنيا (كمتعة حسية مثلا) على أخرى تعتبر أعلى (كالصحة مثلا) يعتبر شيئا لاأخلاقيا تماما مثل تفضيل العيش الرغيد على الحرية. لكن تراتبية المنافع لايمكن أن تظل جامدة وثابتة عبر كل العصور، فالإنسان الذي يفضل الإنتقام على العدالة هو إنسان أخلاقي حسب معايير حضارة ماضية، ولاأخلاقي حسب معايير حضارتنا الحالية. إن كلمة «لاأخلاقي» تعني أن الفرد لازال لم يشعر، أو أنه يشعر قليلا فقط، بالدوافع السامية في سلم الرقة والعقل اللذين يعتبران في كل مرة محصلة حضارة جديدة : إنها تعني متخلفاً، لكن دائما حسب فارق الدرجة وحده. – إن تراتبية المنافع نفسها لاتتم إقامتها أوتقويضها حسب وجهات النظر الأخلاقية؛ على العكس، إن الحكم على فعل ما بأنه أخلاقي أولاأخلاقي يتم بعدأن يكون هذا الفعل قد تم القيام به فعلا.

43. الأفظاظ متخلفون.

يُعتبر الناس الأفظاظ في وقتنا الراهن، في نظرنا، بقايا بعض المراحل من الحضارات القديمة : مرة واحدة يكشف فيهم جَبَلُ الإنسانية عن التشكيلات العميقة التي عادة ما تظل مغمورة. إنهم كائنات متخلفة لم يتطور عقلها، نتيجة لكل المصادفات المحتملة أثناء الوراثة، في اتجاه الرقة والشمولية. إنهم يكشفون لنا كيف كنا نحن كلنا ثم يجعلوننا نولي هاربين من شدة الرعب : لكنهم غير مسؤولين عن ذلك مثلما قطعة صوَان ليست مسؤولة عن كونها صوَاناً. لاشك كذلك أن في مخنا أخاديدُ تلافيفَ تطَابقٍ هذه العقلية، كما قد توجد في شكل بعض أعضاء الإنسان بقايا تذكر بالسمك. لكن هذه الأخاديد والتلافيف لم تعد هي المجرى الذي يسلكه تيار أحاسيسنا.

44. العرفان بالجميل والإنتقام.

إن ما يجعل القوي يعترف بالجميل هو مايلي : إن الذي أحسن إليه قد اخترق، نوعا ما، بذلك الإحسان حقله كي يَلجَهُ، وانتقاما منه يخترق هو بدوره حقل المحسن بفعل عرفانه. إنه شكل مهذب من أشكال الإنتقام. ولولا ذلك الرضا الذي يجنيه القوي من عرفانه لبدا عاجزا ولَاعتُبِرَ كذلك منذ ذلك الحين. ذلك هو ما يجعل مجتمع الطيبين، الذي هو أصلا مجتمع أقوياء، يضع العرفان بالجميل في مصاف الواجبات الأولى. – لقد أطلق سويفت (swift) المزحة القائلة بأن الناس يعترفون بالجميل بنفس القدر الذي يفكرون به في الإنتقام.

45. ازدواجية ما قبل تاريخ الخيروالشر

لمفهوم الخير والشر ماقبل تاريخ مزدوج : أولا في روح الأعراق والطبقات المهيمنة. الذي يقوى على رد الضربة مقابل الضربة، الخير مقابل الخير، الشر مقابل الشر، ويقدم كذلك على الإنتقام بالفعل، هذا يبدو إذن معترفا بالجميل وميالا للثأر، فيدعونه خَيراً. أما العاجز الذي لايقدر على المعاملة بالمثل فَيُعْتَبَر شريرا. الخَيِّر ينتمي إلى «الخيرين»، إلى جماعة لديها إحساس بالتضامن، لأن كل أفرادها يرتبطون فيما بينهم بروح الثأر. الشرير ينتمي إلى «الأشرار»، إلى لمامة من لَيِّني العريكة والعاجزين الذين لايعرفون للتضامن معنى. الخيرون طبقة، الأشرار ركام، غباره يعتبر الخير والشرير مرادفين للنبيل والحقير، للعبد والسيد، إلى حين. بينما العدو، بالمقابل، لا ينظر إليه على أنه شرير : إذ بمقدوره، هو، أن يعامل بالمثل. لدى هوميروس نجد أن الطروادي والإغريقي خيران

كلاهما. لايعتبر شريرا ذلك الذي يصيبنا ببعض الأذى بل ذلك الذي هو موضع احتقار. في مجتمع الخيرين يكون الخير متوارثا؛ إذ يستحيل أن تـنْتِجَ مثل تلك الأرض الطيبة كائنا شريرا. ولو أن فردا من الخيرين قام، رغم كل شيء، بشيء لايليق بهم، فإنهم ينتحلون له الأعذار، كأن يَعْزُوا ذلك إلى إله مثلا قائلين بأنه أصاب ذلك الخَيِّر بالعمى والحمق. ثانيا، في روح المضطهدين والعاجزين. هنا يعتبر كل فرد من الناس الآخرين عدوا، عنيفا، مستغلا، فظا، خادعا، سواء كان هذا الفرد نبيلا أو وضيعا. شرير هي الصفة التي ينعت بها الكائن البشري، ينعت بها كل كائن حي مفترض الوجود، كإله مثلا. بشري، إلهي، يعنيان شيطاني، شرير. إن علامات الطيبة، الرأفة، الوفاء، يتم تأويلها أثناء الشعور بالخوف على أنها خداع، مقدمات لنهاية فظيعة، وسائل لتخدير اليقظة وخداعها، باختصار على أنهاتفنن في الخبث. نادرا ما قد يمكن، بمثل هذه العقلية، بناء مجتمع، وإن تم فبأبشع الأشكال : بدليل أنه حيثما يسود مثل هذا المفهوم للخير والشر فإن زوال الأفراد وذرياتهم وأعراقهم يكون وشيكا. - إن أخلاقيتنا الحالية قدد نبتت على أرض الأعراق والطبقات المهيمنة.

46. الشفقة أقوى من المعاناة.

هناك حالات تتفوق فيها الشفقة على المعاناة الشخصية. إننا، مثلا، نتألم حين يرتكب أحد أصدقائنا فعلة مخزية أكثر مما نتألم حين نرتكبها نحن. ذلك لأننا أولا نعتقد، أكثر منه هو ، في طهارة طبعه؛ ثم إن حبنا له، بسبب هذا الإعتقاد ولاشك، أكبر من حبه هو لنفسه. حتى وإن كانت أنانيته، والحالة هذه، تعاني في الواقع أكثر من أنانيتنا، مادام عليها أن تتحمل عواقب تقصيرها الوخيمة، ومع ذلك فإن غيريتنا - لايجب أن تفهم هذه الكلمة بمعناها الدقيق، لأنها ليست سوى تسهيل للتعبير - يكون تأثرها بليغا أكثر من تأثر غيريته هو.

47. وسواس المرض.

هناك أناس يصابون بوسواس المرض بسبب تعاطفهم مع شخصآآخر وانشغالهم به، ولاتكون نوعية الشفقة التي تظهرآآنداك سوى مرض. هناك أيضا من هذا الطراز وسواس المرض المسيحي الذي يصيب أولئك الأفراد الوحيدين الذين تعذبهم الأحاسيس الدينية والذين يستحضرون دائما آلام وموت المسيح.

48. اقتصاد الطيبة.

الطيبة والحب، هاتان المفردتان ذاتا المزايا الصحية في معاشرة الناس، هما بهذا الإعتبار لُقَيَّتَان ثمينتان جدا بحيث أننا قد نرغب بسرور أن يتم استعمال هذين البلسمين

بأقصى مايمكن من الإقتصاد : إلا أن ذلك شيء مستحيل.إقتصاد الطيبة هو حلم أكثر الحالمين (utopistes) جسارة.

49. إرعاء

ضمن الأشياء البسيطة، لكن التي تتضاعف بلا نهاية وتكون بالتالي فعالة جدا، التي على العلم أن يوليها إهتماما أكثر من الذي يوليه للأشياء الخارقة، يجب أن نعد الإرعاء كذلك؛ أعني به تمظهرات الود في العلاقات الإنسانية، تلك الإبتسامة في العينين، تلك المصافحات، طيبة القلب تلك التي عادة ما تغلف برهافة كل تصرفات الناس تقريبا. ليس هناك أستاذ أو موظف لايضيف لواجبه هذه التكملة؛ إنها استعمال دائم للإنسانية وكأنها موجات ضوئها التي تزدهر فيها كل الأشياء؛ إن الحياة في المجال الضيق جدا، خصوصا في إطار العائلة، لاتخضر ولاتزهر إلابفضل هذا الإرعاء. المودة واللطافة ولياقة القلب هي منابع الدوافع الغيرية التي لاتنضب، وقدساهمت بقوة في تشييد صرح الحضارة أكثر من التمظهرات المعروفة لنفس الدوافع التي نسميها شفقة، رحمة، وتضحية. لكننا عادة ما لانقدرها حق قدرها ، والحقيقة أنه ليس فيها من الغيرة الشيء الكثير .رغم ذلك فإن مجموع هذه المقادير الصغيرة جدا كبير، وقوتها تعتبر إجمالا أكبر القوى على الإطلاق كما أننا نكتشف في العالم من السعادة أكثر مما تكتشفه نظرة حزينة : شريطة أن نحسب حسابنا جيدا، بالطبع وأن نحذر خصوصا نسيان ساعات الانشراح التي يزخر بها كل يوم من أيام كل حياة إنسانية، حتى أكثرها معاناة.

50. الرغبة في إثارة الشفقة.

في أروع مقطع من وصفه لنفسه (الذي صدر لأول مرة في طبعة1658 ، يصيب لاروشفوكو بالتأكيد حين يحذر كل العقلاء من الشفقة، وحين ينصح بتركها لعامة الناس الذين يحتاجون (مادام لايحكمهم العقل) إلى العواطف كي تقودهم إلى مساعدة الذي يعاني والتدخل بقوة في حالة وقوع مصيبة؛ بينما الشفقة، في رأيه (كما في رأي أفلاطون)، إنما تهيج الروح ليس أكثر يقول إنه ينبغي ولاشك إظهار الشفقة لكن ينبغي الإحتراس من التوفر عليها : لأن التعساء هم فين نهاية المطاف بلداء جدا بحيث لايرون في الدنيا شيئا أعظم من هذا الإظهار للشفقة. - إذا لم نتصور حاجة التعساء على أنها حماقة وقصور فكري ،على أنها نوع من الخلل العقلي الذي يصاحب المصيبة (ويبدو أن لاروشفوكو يتصورها هكذا)، وفهمناها على أنها شيء مختلف

ومقلق كثيرا، فربما سنشدد التحذير من هذا الإحساس بالشفقة. فلنراقب الأطفال الذين يبكون ويصرخون كي يتم الإشفاق عليهم،ومن أجل ذلك يرتقبون اللحظة التي تكون فيها حالتهم بادية للعيان؛ لنتردد على المرضى وخائري النفوس، لنتساءل آنذاك إن لم يكن نواحهم وتأوهاتهم الفصيحة، إن لم يكن استعراضهم لتعاستهم يهدف في الواقع إلى الإساءة للأشخاص المحيطين بهم؛ الشفقة التي يبديها هؤلاء هي عزاء لهذه الكائنات الضعيفة المتوجعة لأنها تنبهها إلى أنه، رغم ضعفها، فإنه ماتزال لديها قدرة واحدة على الأقل : القدرة على الإساءة.يتوصل التعيس إلى أن يجد نوعا من اللذة في الإحساس بالتفوق الذي يثيره لديه الإشفاق عليه؛ يتحمس خياله، إنه لايزال يتمتع بصحة تمكنه من إيلام الناس. ظمأ المرء إلى الشفقة يعني ظمأه للاستمتاع بنفسه، وذلك على حساب أمثاله؛ هنا نرى الإنسان بكل فظاظة أناه العميقة : لكننا لانرى «حماقت» مثلما يريد ذلك لاروشفوكو. - أثناء المحاورة يطرح الناس ثلاثه أرباع الأسئلة ويقدمون ثلاثة أرباع الأجوبة، وذلك بغية الإساءة ولو بقسط ضئيل جدا إلى من يحاورونه؟ لذلك يتلهف الكثير من الناس إلى الرفقة : منها يستمدون إحساسهم بالقوة. إنها تشكل حافزا قويا على الحياة لهذه المقادير الصغيرة اللاتحصى التي فيها تُظهر الأذية مزاياها : مثلما يشكل الإرعاء المنتشر في المجتمع الإنساني بنفس الشكل علاجا جاهزا لها. - لكن هل سيكون هناك كثير من العقول الصادقة التي ستوافق على أن الإساءة لذة؟ على أن التسلي (وبشكل جيد) بالإساءة للآخرين، في البال على الأقل، وبإفراغ سُقاطة الأذية اليسيرة عليهم ليس شيئا نادرا؟ إن عدم صدق أغلبهم، وطيبة بعضهم، يحولان بينهم وبين معرفة هذا الشيء المخجل (pudendum) ؛ وسيروق لهؤلاء على كل حال أن ينكروا أن بروسبر ميريمي كان على صواب حين قال : «إعلموا أيضا أنه ليس هناك شيء شائع أكثر من الإساءة حباً في الإساءة.»

51. ليصبح المظهر كينونة.

لايستطيع الممثل الهزلي، حتى والألم يعتصره، حين يتعلق الأمر بدفن ابنه هو مثلا، لايستطيع أن يتوقف عن التفكير في الإنطباع الذي خلقته شخصيته وفي أثر التمثيلية بأكملها. سيبكي على ألمه وعلى تمظهراته، متفرجا على نفسه، إن المنافق، الذي يمثل دائما نفس الدور، لايعود في النهاية منافقا؛ فالرهبان،الذين عادة ما يكونون منافقين عن وعي أوعن غير وعي أثناء شبابهم، ينتهون بأن يصبروا رهبانا تلقائيين ، ومنذ ذلك الحين يصيرون، في الواقع، رهبانا أفضل ما يمكن ودون أدنى تصنع، وإن فَشِلَ الأب في ذلك فإن الإبن سَيَفْلِحُ فيه، لأنه سيستفيد مِنْ سَبْقِ أبيه ويرث عنه التمرن. حين يعاند المرء

طويلا في إرادته الظهور بمظهر ما فإنه يصعب عليه في النهاية أن يكون شيئ آخر. كل المواهب تقريبا، بما فيها موهبة الفنان، تبدأ بالنفاق، بالتقليد الظاهري، بتقليد التأثير. الإنسان الذي يظهر دائما بأقنعة محببة إلى النفس ينتهي حتما إلى أن يتحكم في حالات العطف التي بدونها لايمكن انتزاع أدنى عبارة لطف، - وهي التي تنتهي بأن تتحكم فيه بدورها، إنه عطوف.

52. ذرة الصدق في المكر.

تبرز لدى كل الماكرين الكبار ظاهرة فريدة يدينون لها بقوتهم. في فعل الخداع نفسه، في كل الاستعدادات، في الرعشات التي تخالج الصوت، في السحنة،في الحركات، وسط هذا الإخراج الهائل يحدث فجأة أن يثقوا بأنفسهم : وهذه الثقة هي التي تخاطب المحيطين بهم وتخضعهم كما لو بمعجزة. يتميز منشئوا الديانات عن هؤلاء الماكرين الكبار بكونهم لايتحررون من حالة الوهم التلقائي هذه، أوبكون لحظات التبصر التي يلح فيها الشك عليهم تكون نادرة؛ لكنهم يواسون أنفسهم عادة بأن يعزوا تلك اللحظات إلى العَدُو، إلى إبليس. لابد من تضليل النفس هذا كي يتمكن هؤلاء وأولئك من القيام بعملية واسعة النطاق. فالناس يؤمنون بحقيقة الشيء الذي يكون موضع إيمان راسخ.

53. درجات مزعومة في الحقيقة.

من الأخطاء الشائعة في التفكير هذه الفكرة : بمجرد ما يبدو شخص ما صادقا مَعَنَا فإننا نعتبر أنه يقول الحقيقة. هكذا فإن الطفل يُصَدق حُكم أبويه، والمسيحي يصدق تأكيدات أب المسيحية. إننا لانريد أن نوافق على أن مادافع عنه الناس في الماضي مضحين بسعادتهم وبحياتهم من أجله لم يكن سوى متوالية من الأخطاء: ربما سنقول أنه ذلك كان درجات من الحقيقة. إننا في الواقع نعتقد أنه إن كان شخص ماقد آمن بشيء ما بصدق، إن كان قد قاتل ومات من أجل إيمانه، فسيكون ظلما كبيرا لو أن خطأ واحدا يكون هو ما قد دفع به إلى ذلك. إن مثل هذه الظاهرة تبدو مُنَاقضَةً للعدالة الثابتة (justice éternelle) ؛ كما أن قلب الناس المرهفي الإحساس يقرر، ضدا على عقلهم، هذا المبدأ المتكرر باستمرار : من اللازم أن يوجد رابط ضروري بين الأفعال الأخلاقية والمعارف الفكرية. الأمر على خلاف ذلك، مع الأسف، لأنه ليست هناك عدالة ثابتة.

54. الكذب.

لماذا يقول الناس الحقيقة في أغلب أوقات الحياة اليومية؟ - ليس لأن إلهاً مَا قد حرم الكـذب،بكل تـأكيد. بـل ، أولا، لأن ذلك شيء مريـح، لأنالكـذب يتطـلب ابتـكارا وإخفاء وذاكرة، (وهو مـا جعل سويفت يقول : نـادرا مايتنبه الذي يكـذب إلى العبء الثقـيل الذي يلقيـه على كاهلـه، سيلزمه، كي يـدعم كذبته، أن يـبتكر عشريـن كذبة أخرى). ثم، لأنـه من المفيد الـتكلم بصـراحة حين يبدو كـل كيء بسيطـا : أريد هذا، فعلت ذلك، وهلم جرا؛ أي لأن طرق الإكراه والسلطة آمن من طرق الحيلة. - لكن لو حدث أن طفلا نشأ في جو من التعقيدات العائلية فإنه سيمارس الكذب بشكل طبيعي وسيقول دائما بشكل تلقائي ما يتوافق ومصلحته؛ إنه يجهل تماما معنى الحقيقة، يجهل النفور من الكذب بما هو كذب، وهكذا فهو يكذب بكل براءة.

55. حين يشك الإعتقاد في الأخلاق.

لاتستطـيع أية قوة أن تفرض نـفسها إن لم يكـن ممثلوها سوى مـنافقين. مهمـا يكـن عدد الـعناصر «الـعلمانـية» التي تـضمها الـكنيـسة الكاثـوليكيـة فإن قوتهـا ترتكز عـلى الرهبان، الكثيـرين في أيامنا هذه، الذين يجعلـون الحياة شاقة بالنسبة لهم حتى يعمقوا معـناها، والـذين تنبيء نظـرتهم وجـسدهم انـنحيـل عن قيـام الليـل، عن الصـوم، عن الصلوات الحارة، وربما عن الـتسوط. إنهم هم الذين يزعزعون الناس، يـخيفونهم : ماذا لو كان لازما أن نحيا بهذا الشكل؟ - هذا هو السؤال المرعب الذي يتبادر إلى الذهن في رأيهم. إنهم في كل مرة يشيعون فيها هذا الشك يؤمنون دعامة من دعامات قوتهم؛ حتى المفـكرون المتحررون لايجـرؤون على مُواجهة أحد هذه الـكائنات المنكـرة لذاتها بطعم الـحقيقة المر ويقول لـه: «أيها المغفل،لا تحـاول خداعنا!» - إن ما يميزهـم عنه هو اختلافُ وجهات الـنظر وليس تفاوتا في الـطيبة أو الخبث على الإطـلاق؛ لكننا قد اعتدنا أن لانَـنصف مَا لا نحبه. هكذا نتـحدث عن مواهبهم المقـززة، لكننا نُعَمِّمُ ذلك على المجهـودات التي يفرضها مكـر اليسوعيين وعن مواهـبهم المقززة، لكننـا نعمم ذلك علـى المجهودات التي يـفرضـها اليـسوعي علـى نفسه كي يـكبحها ، وعـلى كون الحيـاة البسيـطة التـي تدعو إلـيها موجـزات الأخوية لاتـهدف إلى أن تـريحهم هـم بل العلـمانيين. ويمكنـنا أن نتساءل إن كنـا نحن المتنـورين، بنفس الخطـة وبنفس التنـظيم، سنصـير أدوات ناجعة مثـلهم، رائعين فـي ضبط النفـس، في الحماس الذي لايفـتر، في التفاني .

56. انتصار المعرفة على الشر الجذري.

من المفيد جدا، بالنسبة لمن يريد بلوغ الحكمة، أن يكون عقله قد انشغل لبعض الوقب بصورة الإنسان الشرير والفاسد بشكل جذري؛ إنها مزيفة، مثل تلك التي تقابلها؛ لكنها قد هيمنت خلال أحقاب كثيرة وجذورها قد انغرست وتشعبت في قلب عالمنا وفينا نحن. لكي نفهم أنفسنا علينا أن نفهمها هي؛ ولكي نسمو بعد ذلك علينا أن نتجاوزها وآندلك سنعرف أنه ليست ثمة خطايا بالمعنى الميتافزيقي، بل أنه ليست هناك فضائل بنفس المعنى؛ سنعرف أن ميدان التمثلات الأخلاقية هذا كله يتسع باستمرار، أن هناك درجات دنيا أو عليا في مفاهيم الخير والشر، الأخلاقي واللاأخلاقي. إن الذي لايتطلب من الأشياء سوى فَهْمَتَها يصل بسهولة إلى العيش في وفاق مع روحه، وإن ارتكب خطأ، (أو خطيئة، كما يقول الناس)، فسيكون ذلك عن جهل، وربما لن يكون أبدا بسبب الشهوة. إنه لن يبحث أبدا عن الهرطقة في شهواته ولا عن وسيلة لاستئصالها؛ وهدفه الوحيد، الذي هو شغله الشاغل، والمتمثل في بذله قصارى جهده في كل وقت من أجل أن يعرف، سيبرده وسيخفف من وحشية طبعه. ها هو ذا، علاوة على ذلك، قد تخلص من مجموعة من الخيالات المعذiبة وصارت كلمات الآلام الجهنمية ، المذنب، العجز عن إتيان الخير، لا تثير اكتراثه: لايرى فيها إلا الظلال المتلاشيه، ظلال المفاهيم الخاطئة عن العالم وعن الحياة.

57. الأخلاق، تجزيء تلقائي للإنسان.

الكاتب الذي يَنْكَب بحماس على موضوعه يتمنى مجيء من يقوض كل ما فعله بمعالجته لنفس الموضوع بوضوح أكثر وبإعطاء إجابة نهائية على الأسئلة التي يتضمنها. العاشقة الشابة تتمنى أن يخونها عشيعها كي تضع على المحك إخلاصها وتفانيها في حبها له. الجندي يتمنى أن يسقط في ميدان القتال من أجل وطنه الظافر؛ لأن في انتصار وطنه انتصارا الطموحه الأسمى. الأم تمنح طفلها ماتحرم هي نفسها منه، النوم، الغذاء الأفضل، صحتها إن اقتضى الحال ذلك، ثروتها. - لكن هل كل هذه السمات هي سمات حالات غيرية؟ هل هذه التصرفات الأخلاقية معجزات حتى تكون، حسب قول شوبنهاور، «مستحيلة ولكن واقعية» ؟ أليس جليا في كل هذه الحالات أن الإنسان يحب جزءا من ذاته، فكرة، رغبة، إبداعا، أكثر من جزء آخر من ذاته، أنه يجزىء كيانه ويضحي بجزء من أجل جزء آخر؟ هل يعتبر شيئا مختلفا اختلافا جوهريا إعلان شخص سيء الطبع : «أفَضِّل أن أدْحَرَ على أن أتنحى لأفسح الطريق

لهذا الشخص»؟ النزوع إلى شيء ما (أمنية، نزوة، رغبة) حاضر في كل الحالات السابقة الذكر؛ والاستسلام لها، مع تحمل كل التبعات، ليس «غيرية» على أية حال. - في الأخلاق لايعام ل الإنسا ن على أنه كائن لايتجزأ (individuum) . بل على أنه كائن يتجزأ (dividuum) .

58. مايمكننا الوعد به.

يمكننا أن نعد بأفعال وليس بعواطف؛ لأن هذه لاشعورية. الذي يَعد شخصا آخر بأن يحبه أو بأن يكرهه أوبأن يخلص له على الدوام إنما يعده بشيء لاسلطان له عليه؛ ما يمكنه أن يعد به هي أفعال عادة ما تكون، ولاشك، تبعات الحب أو الحقد أوالإخلاص، لكنها قد تنجم عن أسباب أخرى كذلك : لأن الأسباب والطرق التي تؤدي إلى نفس الفعل متعددة. الوعد بحب شخص ما دائما يعني : مادام حبي لك قائما فسأعبر لك عنه بأفعال تدل على الحب؛ وإذا كففت عن حبك فستظل موضوع نفس الأفعال من طرفي، وإن كان ذلك يتم لأسباب أخرى: بحيث سيستمر الناس في توهم كون الحب يظل ثابتا ولايتغير. - إننا حين نُقْسِمُ لشخص ما، دون أن نخدع أنفسنا، بأننا سنحبه إلى الأبد، فإن ما نعده به هو استمرار مظاهر الحب.

59. الذكاء والأخلاق.

لابد لمن يريد الوفاء بوعوده من ذاكرة جيدة. لابد لمن يريد الإحساس بالشفقة من خيال قوي. ما أشد ارتباط الأخلاق بخاصية الذكاء.

60. الرغبة في الإنتقام والإنتقام

يعتبر التفكير في الإنتقام والقيام به فعلا نوبة حمى شديدة، لكنها عابرة، أما التفكير في الإنتقام دون امتلاك القوة ولا الشجاعة للقيام به فهو اصطحاب مرض مزمن، هو تسميم للجسد والروح. الأخلاق، التي لا تأخذ بعين الاعتبار سوى النوايا، تقدر هاتين الحالتين نفس التقدير؛ وفي ا لحياة اليومية تعتبر الحالة ا لأولى هي الأسوأ(بسبب العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن الإنتقام). هذان التقييمان قصيرا النظر كلاهما.

61. معرفة الإنتظار.

إن معرفة الإنتظار من الصعوبة بمكان بحيث أن كبار الشعراء لم يأنفوا من اتخاذ الجهل بهذا الفن موضوعا لأعمالهم. هذا ما فعله شكسبير في عطيل، وسوفوكليس في

أجاكس : الذي لم يكن ليرى انتحاره ضروريا لو أنه ترك انفعاله يهدأ يوما واحدا مثلما اقترح وسيط الوحي؛ ربما كان سيسخر من إيحاءات الغرور المجروح المرعبة ويقول لنفسه : من إذن ، في مثل وضعي، لن يعتبر الكبش بطلا؟ هل يكون هذا شيئا فظيعا؟ على العكس، إنه ليس سوى سمة عامة من سمات الإنسانية؛ بهذا كان أجاكس سيواسي نفسه. خلقَ الإنفعال* من عجل؛ مأساة حياة العظماء لا تكمن في الغالب في صراعهم مع عصرهم ودناءة محيطهم، بل في عجزهم عن تأخير مشروعهم سنة واحدة أوسنتين، إنهم لايعرفون كيف ينتظرون. - في كل المبارزات يجب على الأصدقاء الذين تتم استشارتهم أن يتأكدوا من نقطة واحدة هي إذا ما كان المعنيان بالمبارزة لا يزالان قادرين على الإنتظار؛ إن كان الأمر بخلاف ذلك فالمبارزة شيء معقول مادام كل واحد منهما يقول : «إما أن أظل حيا، وفي هذه الحال يجب أن يموت الآخر في الحين، وإما يكون العكس.» الإنتظار، في مثل هذه الحالة، يعني تمديد معاناة هذا الاستشهاد الفظيع استشهاد الشرف المهان في حضرة المهين، وربما تكون تلك المعاناة أكثر من المعاناة التي تستحقها الحياة.

62 . فيض من الإنتقام.

حين يشعر الأفظاظ أنه قد أسيء إليهم فإنهم عادة ما ينظرون إلى هذه الأشياء في أعلى مراتبها على الإطلاق ثم يَرْوُون أسبابها بكلمات مبالغ فيها كثيرا، وذلك بهدف الشعور بفيض حقيقي من أحاسيس الحقد والثأر التي تم بعثها فيهم من جديد.

63. قيمة التحقير.

ليسوا نادرين، بل قد يكونون هم الأوفر عددا، أولئك الذين، لكي يحافظوا على مكانتهم وعلى ميزة مَا في أفعالهم، يحتاجون أشد الحاجة إلى الغض والإنتقاص، في خيالهم، من قيمة الأشخاص الذين يعرفونهم. وبما أن الحقيرين يشكلون الأغلبية، وبما أن أشياء كثيرة تتوقف على توفرهم أوعدمه على المزية المذكورة...

64 . الغضوب.

علينا أن نحتاط من الشخص الذي يهتاج ضدنا كما نحتاط من شخص حاول اغتيالنا : لأن الواقع هو أننا لازلنا على قيد الحياة، لكن ذلك يرجع إلى غياب القدرة على القتل. لو كانت النظرة تكفي لكنا قد هلكنا منذ أمد طويل. إن إسكات شخص ما بإظهار ضراوة بدنية، بالخوف الذي نوحي به، لَيُعْتَبَرَ من سمات الهمجية. - تلك النظرة الباردة التي ينظر بها كرَمَاء النسب إلى خَدَمِهِمْ هي كذلك بَقِيَّةٌ من فصل يشبه

ذاك الذي كانت الطبقات المغلقة تقيمه بين إنسان وإنسان، سمة من سمات القدَم البدائي؛ حتى النساء، تلك المحافظات على الماضي، قد حافظن كذلك وبإخلاص كبير على هذه الأثارة.

65. مآل الصدق.

كانت لأحدهم عادة مزعجة في أن يشرح بكل صدق، عند الاقتضاء، أسباب تصرفه القبيحة والحسنة مثل أسباب تصرفات سائر الناس. في البدء أثار فضيحة، بعد ذلك أثار الريبة، ثم منعَ كلية من الكلام وتلا ذلك حرمانه من الحقوق المدنية، إلى أن جاء يوم تذكرت فيه العدالة شخصا تم نبذه في ظرف لم تكن على بصيرة منه، أو أنها كانت قد غضت عنه الطرف. إن عدم كتمانه لسر الناس كلهم وميله اللايغتفر إلى رؤية مَا لاَ يريد أحد (بذاته) أن يراه قد أديا به إلى السجن وإلى موت مبكر.

66. مستحق العقاب لايعاقَب أبدا.

جريمتنا في حق المجرمين هي كوننا نعاملهم كأنذال.

67. بساطة مزية الفضيلة.

لكل فضيلة مزاياها : الإسهام بوبيلها في مَحْرَقَةِ المحكوم بالإعدام.

68. الأخلاقية والنجاح.

ليس الذين يشاهدون فعلاً مَا هُم وحدهم من يقيس في الغالب أخلاقيته أو لاأخلاقيته عند نجاحه : لا، حتى الذي يقوم به يفعل ذلك. لأن الأسباب والنوايا نادرا ما تكون بسيطة وواضحة، وأحيانا تبدو حتى الذاكرة مضطربة بسبب نجاح فعل ما حتى أن صاحبها يسند فعله لأسباب زائفة أويعتبر الأسباب التافهة جوهرية. النجاح يضفي على الفعل بَرِيقَ رَاحَةِ الضمير الصادق والكامل، أما الفشل فَيُلْقِي بظلال تبكيت الضمير على الفعل المُعتَبَرِ غاية الإعتبار . ومن ثمة يتم استنتاج الممارسة المعروفة لدى السياسي الذي يفكر هكذا : «امنحوني النجاح فقط : أنا في حاجة إليه وحده لكي أكسب كل النفوس الشريفة إلى جانبي... ولكي أرى نفسي شريفا.» – بنفس الطريقة سيحل النجاح محل نوعية الحافز. لايزال الكثير من المثقفين في وقتنا الراهن يعتبرون تفوق المسيحية على الفلسفة اليونانية دليلا على كونها حقيقة كبرى، وإن كان قدر قليل من الفظاظة والعنف هو الذي تفوق على قدر قليل من العقل والرقة. يمكننا أن نرى

مآلت إليه هذه الدرجة الكبيرة من الحقيقة إذا ما لاحظنا أن العلوم إبان إزدهارها قدانضمت على نحو منهجي إلى فلسفة أبيقور، وعلى نحو منهجي أبانت خطأ المسيحية.

69. الحب والعدالة.

لماذا نبالغ في تقدير الحب على حساب العدالة ونتحدث عنه بكلمات براقة كما لو كان، في جوهره ، أسمى من العدالة؟ - أليس جليا أنه أبلد منها؟ - بكل تأكيد، لكنه بذلك يكون مستساغا لدى الكل. إنه بليد ويمتلك قَرْنَ خِصْبٍ غَنيٍ؛ منه يستخرج العطايا التي يوزعها على كل واحد حتى وإن كان لا يستحقها، بلٌ حتى وإن لم يعترف له بالجميل. إنه حيادي كالمطر الذي يَبُل حتى العظام، حسب الإنجيل وحسب التجربة، ليس الظالم فقط بل العادل كذلك.

70. الإعدام.

ما الذي يجعل الإعدام يؤلمنا أكثر من جريمة القتل؟ إنه هدوء القضاة، إنها الاستعدادات لتنفيذ العقوبة، إنها فكرة كون الذي سيعدم إنسانا يتم استخدامه كما تستخدم وسيلة لإخافة الآخرين. لأن مرتكب الخطأ لم ينل جزاءه، حتى وإن كان هناك : خطأ : وهذا الخطأ نجده في المربين، في الآباء، في الوسط، إنه فينا، وليس في القاتل، - أعني أن الخطأ يوجد في الظروف الموجبة.

71. الأمل.

جاءت باندور (Pandore) بالعلبة التي تحوي الشرور وفتحتها. كانت تلك هدية الآلهة لناس، هدية جميلة المظهر، جذابة، واسمها «علبة السعادة» آنداك طارت كل الشرور، تلك الكائنات المجَنَّحَة؛ منذ ذلك الحين وهي تطوف في كل مكان وتسيء إلى الناس ليل نهار. كان هناك شرٌّ لما يزل في داخل العلبة؛ وبأمر من زيوس أغلقت باندور العلبة فبقي داخلها. لدى الإنسان في منزله الآن، وإلى الأبد، علبة السعادة، وهو يتخيل مايشاء من الخيالات بخصوص الكنز الذي يمتلكه هناك؛ إنها تحت تصرفه، ماعليه إلا أن يمد يده حين يرغب في ذلك؛ لأنه لايعلم أن العلبة التي جلبتها باندور هي علبة الشرور ويعتبر الشر المتبقي داخلها واحدا من أكبر خيرات هذا العالم، - إنه الأمل. لقد أراد زيوس للإنسان، وقد عذبته الشرور الأخرى كثيرا، ألايرفض الحياة بسبب ذلك، وأن يستمر في تلقي العذاب دون توقف. كما أنه بذلك يمنح للإنسانية أملا : إن الأمل، في الواقع، هو أسوأ هذه الشرور مادام يطيل نكال الناس.

72. درجة اللهوبية الأخلاقية غير معروفة.

يتوقف تأجج عواطفنا وتوجيهها لحياتنا كلها أو عَدَمُه على بعض المشاهد والانطباعات المثيرة التي تؤثر أو لاتؤثر فينا، كمشهد أحد أقربائنا وقد حُكِمَ عليه ظُلْمًا بالإعدام، أو تم قتله أو تعذيبه ظلما، كمشهد امرأة خائنة لزوجها، كمشهد هجوم ضار من طرف العدو، لا أحد يعلم ما ستجره إليه الظروف، الشفقة، السخط، إنه يجهل درجة لهوبيته. العيش في ظروف الضيق والبخل تجعل المرء بخيلا؛ إنَّ سُمُوَّ الإنسان، في الخير كما في الشر، يتوقف عموما على كمية تجاربه وليس على نوعيتها.

73. الشهيد بالرغم عنه.

كان من بين أعضاء حزب ما رجل خواف وجبان لايعارض رفاقه أبدا؛ كانوا يشغلونه في كل المصالح، كانوا يحصلون منه على ما يريدون لأنه كان يخشى سوء ظن رفاقه به أكثر مما يخشى الموت؛ كان خائرا حد إثارة الشفقة. لقد انتبهوا لذلك، وجعلوا منه، بفضل مزاياه التي ذكرناها ، بطلا، بل شهيدا،في نهاية الأمر. وإن كان هذا الجبان دائما يقول لا في قرارة نفسه فإنه كان دائما يتلفظ بنعم، حتى على خشبة الإعدام التي مات عليها من أجل آراء حزبه؛ وقد تواجد بالقرب منه آنذاك أحد رفاقه القدامى الذي أرعبه بكلامه وبنظرته إلى حد جعله يواجه الموت بثبات كبير،وهو منذ ذلك الوقت مكرم كشهيد حقيقي وذي طبع نبيل.

74. معيار اليومي.

إننا لن نخطىء إلا نادرا إذا عَزَوْنَا الأفعال المبالَغ فيها إلى الغرور، والأفعال المتواضعة إلى العادة، والدنيئة إلى الخوف.

75. سوء تفاهم بشأن الفضيلة.

الذي عرف الرذيلة مرتبطة باللذة، والذي كان شبابه شباب متعة، يتصور الفضيلة مرتبطة لُزُوماً بالاشمئزاز. على العكس من ذلك فإن الذي عذبته أهواؤه وعيوبه يطمح إلى أن يجد في الفضيلة راحة النفس وسعادتها. قد يحدث بالتالي ألا يتفاهم فاضلان إطلاقا.

76. الزاهد.

يجعل الزا هد من الفضيلة شيئا لازما.

77. انتقال الشرف من الشخص إلى الشيء.

إننا، بشكل عام، نُشَرِّفَ التصرفات النابعة من الحب ومن التضحيات التي نقدمها لأجل قريبنا، مهما يكن الشيء الذي تتجلى فيه. وبذلك نضخم تقدير الأشياء التي نحبها أو التي نضحي من أجلها بنفس الطريقة حتى وإن لم تكن لها هي في حد ذاتها قيمة كبيرة. فالجيش الباسل يقنع الناس بالقضية التي يحارب من أجلها.

78. الطموح، بديل الحس الأخلاقي.

لاشك أن الحس الأخلاقي لا ينقص أولئك الذين لاطموح لهم. الطموحون يتخلصون هم كذلك من المآزق بدون الحس الأخلاقي،وبنفس النجاح تقريبا. – لذلك فإن أبناء العائلات المتوسطة، التي لاتعرف مامعنى الطموح، غالبا ما يصيرون، بتدرج سريع، إذا ما فقدوا حسهم الأخلاقي، أوغادا خالصين.

79. الغرور يغني.

كم سيكون عقل الإنسان فقيرا دون الغرور! لكن مادام فيه الغرور فهو يشبه مخزنا ممتلئا تتم إعادة تزويده بالمؤونة باستمرار ويجذب المشترين بمختلف أصنافهم : يمكنهم أن يجدوا فيه كل شيء تقريبا، أن يقتنوا منه كل شيء، شريطة أن تكون معهم العملة المتداولة (الإعجاب).

80. الشيخ والموت.

بغَضِنَا النظر عن المتطلبات التي يفرضها الدين سيكون بإمكاننا التساؤل : لماذا يعتبر انتظار الضعف البطيء حتى التحلل، بالنسبة لشيخ يشعر بتضاءل قواه، مدعاة للإعتزاز أكثر من وضعه حدا لحياته بنفسه وهو في كامل وعيه؟ الانتحار، في مثل هذه الحالة، فعل يخطر على الذهن بشكل طبيعي، وباعتباره انتصارا للعقل فلابد أن يستحق الاحترام عن جدارة : وقد كان يثير الاحترام فعلا أيام كان كبار الفلاسفة الإغريق والوطنيون الرومانيون البواسل يموتون عادة منتحرين، بالمقابل فإن عادة الاستمرار على قيد الحياة يوما عن يوم بمساعدة الأطباء الذين تتم استشارتهم بقلق، وبفضل الحميات الشاقة جدا، دون قوة تسمح بالإقتراب فعلا من النهاية الطبيعية للحياة، تستوجب احتراما أقل. – إن للديانات فيضا من الوسائل الخاصة بتجنب الإنتحار : لذلك تتسلل إلى المولعين بالحياة بتملقها لهم.

81. حيث نُخطىء فاعلين ومتلقين.

حين يأخذ الغني من الفقير أحد ممتلكاته (كأن يختطف أحد الأمراء من أحد العاميين عشيقته)، فإن خطأ يولد لدى الفقير؛ يعتقد أن الآخر ليس سوى حقيرمادام قد أخذ منه القليل الذي يمتلكه. لكن الآخر بعيد عن الإحساس القوي بقيمة متاع يتم النظر إليه على حدة، لأنه قد اعتاد أن يملك منه الكثير : إنه لا يستطيع إذن أن يدرك ما بنفس الفقير، وهو لا يرتكب ظلما كبيرا مثلما يعتقد هذا الفقير، فالأمر يتطلب منه الكثير كي يدرك ذلك. كل واحد منهما يُكَوِّن* ُكرة خاطئة عن الآخر. إن ظلم القوي الذي يثير سخطا عبر التاريخ، ليس خطيرا جدا مثلما يبدو لنا. فالإحساس الوراثي لدى الأعلى مقاما بأن له حقوقا أسمى يجعله لامباليا ومرتاح الضمير؛ بل إننا جميعا، حين يكون الفرق شاسعا بيننا وبين كائن آخر، نفقد أدنى إحساس بالظلم ونقتل ذبابة مثلا دون أي تبكيت للضمير. هكذا فإنها ليست علامة شر لدى زيركسيس(Xerxés)* (الذي يصوره لنا الإغريق في غاية النبل) أن ينتزع ولدا من أبيه و يمزقه إربا إربا بسبب تعبيره عن قلق وشك مشؤومين بخصوص البعثة كلها : في هذه الحالة يتم طرد الفرد كحشرة مزعجة، إن مكانته أدنى من أن تسمح له بأن يثير لدى سيد القوم تلك الأحاسيس التي تعذب المرء طويلا. لا، إن الفظ ليس فظا بالقدر الذي يتصوره ذلك الذي يسيء معاملته؛ فالفكرة التي يكونها عن الألم ليست مطابقة لمعاناة الآخر. نفس الشي ء ينطبق على القاضي الجائر، وعلى الصحفي الذي يُضِل الرأي العام بلؤمه التافه. في كل الحالات تنتمي العلة والمعلول إلى مجموعات شديدة الاختلاف من الأحاسيس والأفكار؛ ومع ذلك فإننا نفترض تلقائيا أن صاحب صنيع ما وضَحِيَّتَهُ يفكران ويحسان بنفس الطريقة، ونقيس خطأ الواحد منهما بألم الآخر طبقا لهذا الافتراض.

82. جِلْدُ الروح.

مثلما العظام، العضلات، الأمعاء والعروق يغطيها جلد يجعل منظر الإنسان مقبولا، فإن عواطف الروح وأهواءها هي كذلك يلفها الغرور : الغرور جِلْدُ الروح.

83. غفوة الفضيلة.

لِتَغْفُ الفضيلة، سوف تستيقظ بعد ذلك أكثر نداوة.

* ملك الفرس من 486 إلى 465 ق . م هزمه الإغريق في مدينة سلامين الإغريقية (المترجم)

84. رقة الخجل.

لايخجل الناس في التفكير من أي شيء دَنِس، لكنهم يخجلون من أن نظنهم قادرين على هذه الأفكار الدنسة.

85. الشر نادر.

انشغال أغلب الناس الشديد بأنفسهم يلهيهم عن أن يكونوا أشرارا.

86. لسان الميزان.

إننا نَمْدَحُ أو نَذُم بحسب الفرصة التي يمنحها لنا المدح أو الذم لن*ظهر بريق حكمنا.

87. لوقا 18، 14، مُصَحَّحًا.

الذي يتواضع يريد أن يُرفع

88. منع الانتحار.

هناك قانون يمكننا بموجبه أن نقتل إنسانا، ولكن ليس هناك قانون يسمح لنا بأن نمنعه من الموت : إنها قسوة محضة.

89. غُرور.

إننا نحرص على حسن ظن الناس بنا، أولاً لأنه مفيد لنا، ثم لأننا نريد أن نرضيهم (الأبناء يُرضون آباءهم، التلاميذ أساتذتهم، وبشكل عام المحسنون يرضون كل الآخرين). إننا لانتحدث عن الغرور إلا حين يولي أحد ما اهتماما لحسن ظن الآخرين به دون أن يأخذ بعين الإعتبار ما يفيده من ذلك ولارغبته في إرضاء الآخرين. في هذه الحالة يريد الإنسان أن يرضي نفسه هو، ولكن على حساب أمثاله، سواء بحملهم على ظن خاطيء بخصوصه،أوبتوفره على درجة من «حُسْنِ الظن»تجعل حُسْنَ الظن به عصيا على كل الأخرين(بإثارة غيرتهم). إن ما يريده الفرد عادة، من خلال رأي الغير فيه، هو أن يؤكد لنفسه رأيه في ذاته ويؤيده؛ إلا أن الإدمان الشديد على السلطة – وهو إدمان قديم قدم الإنسانية – يُؤَدِّي بالكثير من الناس إلى الإستناد على سلطة ما لدعم ثقتهم بأنفسهم، أي ألا يقبلوها إلا إذا صدرت عن الغير : إنهم يثقون بحكم الأخرين أكثر مما يثقون بحكمهم هم. – أما لدى المغرور فإن الإهتمام بالنفس والرغبة في الرضا يبلغان درجة عالية لحد أنه يخدع الأخرين ويجعلهم يُضْفُونَ عليه قيمة مزيفة

ومرتفعة جدا، ولكنه لايعتمد على سلطتهم مع ذلك : أي أنه يشيع الخطأ ويضفي عليه المصداقية.– علينا أن نعترف إذن أن الناس المغرورين لايريدون إرضاء الآخرين كثيرا بقدر ما يريدون إرضاء أنفسهم، وإنهم يذهبون في ذلك إلى حد إهمال منفعتهم، لأنهم غالباً مايتمسكون بأن يثيروا لدى قريبهم أحاسيس مضادة، معادية، حاسدة، إذن ضارة بشخصهم، وذلك بُغْية أن يجدوا في ذلك لذتهم الأنانية، متعة أناهم.

90. حدود حب الناس.

الذي يدعي أن فلانا غبي ودنيء يَغْضَبُ حين يُظْهِرُ ذلك الشخص أنه ليس كذلك.

91. أخلاقية مبكية.

كم هي ممتعة هذه الأخلاقية! لنتذكر فقط ذلك البحر من الدموع العذبة الذي سال أثناء رواية مأثرات النبل والشجاعة! – إن الحياة ستفقد جاذبيتها هذه لو ساد الإيمان باللامسؤولية المطلقة.

92. أصل العدالة.

تولد العدالة (الإنصاف) بين أناس يتمتعون بقوة متساوية تقريبا، كما لاحظ ذلك ثوسيديد (THuçydide) * (في ذلك الحوار المريع بين النواب الأثينيين والميليين)؛ حين لايكون هناك تفوق ملحوظ،وحين لايؤدي الصراع إلا خسائر في الطرفين تكون غير ذات جدوى، آنذاك تتولد فكرة الوفاق والتفاوض بخصوص مطالب كل فريق : المقايضة هي السمة الأصلية للعدالة. كل طرف يرضي الآخر وفي ذات الوقت يحصل على مايقيم له هو وزنا أكثر من الآخر. نمنح لكل واحد ما يريد الحصول عليه ليصير ملْكًا له منذ ذلك الحين،ونحصل في المقابل على مانريد. إذن فالعدالة مقايضة وتوازن متى ما تم اشتراط وجود علاقة بين قوى شبه متوازنة : هكذا فإن الإنتقام يعود في الأصل إلى مجال العدالة، لأنه مقايضة. وكذلك الإعتراف بالجميل. – العدالة تؤول بالطبع إلى وجهة نظر غريزة البقاء، أي إلى أنانية هذا التفكير : «لماذا سأضُرُّ بنفسي بلاجدوى وربما لن أبلغ هدفي مع ذلك؟» – هذافيما يخص أصل العدالة. لكن بما أن الناس، طبقا لعاداتهم الفكرية، قد نَسُوا الهدف الأول من الفعال التي يسمونها فعال العدالة والإنصاف، خاصة وأنهم قد ربَوْا الأطفال خلال عدة قرون على الإعجاب

* مؤرخ إغريقي مشهور عاش في ق . 5 . ق . م (المترجم) .

بهذه الفعال وتقليدها، فقد تَكَوَّنَ بالتدريج وَهْمٌ يرى أن الفعل العادل فعل نزيه؛ وعلى هذا الوهم ترتكز القيمة الكبيرة المعطاة لهذه الفعال، القيمة التي لاتكف، مثلها مثل سائر الأخريات، عن التنامي : لأن ما يقدره الناس كثيرا يتم البحث عنه، يتم تقليده، يتضاعف بفعل التضحيات، ويزداد بكون قيمة هذا الشيء الذي يقدره الناس كثيرا تنضاف إليها قيمة العناء والحماس اللذين يخصصهما له كل فرد. - كم ستبدو أخلاقية العالم ضئيلة دون مَلَكَة النسيان! قد يقول شاعر بأن الإله وضع النسيان حارسا على باب معبد الكرامة الإنسانية.

93. بخصوص حق الأضعف.

حين يخضع أحد ما، مع بعض الشروط، لآخر أقوى منه، كالمدينة المحاصرة مثلا، فإن الشرط الذي يتم وضعه بالمقابل هو أن تبقى له إمكانية تدميره لنفسه، حرق المدينة، إصابة القوي بخسارة كبيرة. من هنا يتشكل نوع من العدالة يمكن بفضله وضع القوانين. والعدو يرى مصلحته في الإبقاء على تلك القوانين.- بهذا الإعتبار توجد هناك أيضا قوانين بين السادة والعبيد، أي حين يكون امتلاك العبد شيئا مفيدا ومهما بالنسبة لسيده. في الأصل كان القانون يذهب بالضبط إلى الحد الذي يبدو فيه الواحدللآخر ثمينا، أساسيا، لا يُفْتَقَد، لا يقهر، وهلم جرا، بهذا المعنى فإنه لاتزال للضعيف حقوق، لكنها أقل من التي كانت له في السابق. ومن ثمة هذه العبارة الشهيةر، بقدر قوة الشخص تكون عدالته، أوبعبارة أدق، بقدر مالك من القوة تكون سلطتك.

94. المراحل التاريخية الثلاث من حياة الأخلاقية.

العلامة الأولى على كون الحيوان قد صار إنسانا هي حين لا تعود فعاله ترتبط برغد عيش مؤقت بل دائم، حين يتوجه الإنسان إذن نحو المنفعة، نحو الفرصة : ثمة يبدأ ظهور سيطرة العقل المطلقة. ويبلغ درجة أسمى حين يتصرف حسب مبدإ الشرف؛ بفضله يربي نفسه، يستسلم لمشاعر مشتركة، وهذا يسمو به على المرحلة التي كانت فيها المنفعة، بمعناها الفردي، هي التي تُوَجِهُهُ؛ إنه يراعي جانب الآخرين ويريد أن تتم مراعاة جانبه، أي : يتصور النافع مرتبطا برأيه في الآخرين وَبرأيهم فيه. أخيرا،إنه يتصرف،عند الدرجة العالية من الأخلاقية التي نعرفها حتى الآن ، حسب سُلَّمه الشخصي الخاص بالأشياء والكائنات، هو نفسه من يقرر ما هو المُشَرِّفُ أوالنافع بالنسبة له و للآخرين ؛ إنه منذ الآن مُشَرِّعُ الآراء طبقا لمفهومه المتطور والسامي المتعلق

بالنـافع والمشرف. الوعـي يجعله قـادرا على تفضـيل المنفـعة الكبيـرة، أي المنفعة الـعامة والدائمة، على منفعته الخاصة، تفضيل التقدير والاحترام ذوا القيمة العامة والدائمة على التقدير والاحترام اللذين لايدومان سوى لحظة؛ إنه يـحيا ويتصرف باعتباره فردا جمعياً (individu collectif) .

95.أخلاق النضج الفردية.

لقد رأينا في اللاشخصية، حتى الآن، علامة على العمل الأخلاقي؛ ومن الثابت أنه في البدء كان يتم الثناء علـى كل الأعمال اللاشـخصية (impersonnelles) ويتم تمييزها بأخذ المنفعة العـامة بعين الاعتبار. لكن ألاينبغي انتظـار تحول واضح في هذه المنظورات الآن وقد بدأنا نتبين بشكل أفضل أن هذه الاعتبارات اللاشخصية للغاية هي التي تكون فيهـا المنفعـة العامة أكبـر، بحيث أن سلـوكا يكون شـخصيا جدا هـو الذي يستـجيب للمـفهوم الحالـي للأخلاقيـة (متصورا كمـنفعة عـامة) ؟ أن تجعل مـن نفسك شـخصا كاملا وتـرمي في كل مـاتفعل إلـى منفعـتك الكبـرى، فإن ذلك سيـقودك إلى أبعـد مما ستقودك إليه المـبادرات والتصرفات الموسومة بالـشفقة على الغير. الحق يـقال، إننا لازلنا كلنا نعاني من ضآلة الإهتمام الذي نوليه لحـظنا الشخصي، لقد تطور هذا الحظ بشكل رديء، علينا الإعتـراف بذلك : لقد تم قسرنا على تحويـل عقلنا بعيدا عنه والـتضحية به في سبيل الدولـة، في سبيل العلم، في سبيل المـعوز كما لو كان هو تلك القطـعة الخبيثة التي تجب التضحية بها. اليوم أيضا نريـد أن نعمل من أجل أمثالنا، لكن فقط في حدود عثورنا في هذا العمل على منفعتنا الشخصية الكبيرة لاأقل ولاأكثر. كل مافي الأمر هو معـرفة ما نـعنيـه بمنفـعتنـا؛ إن الفرد الـفظ، الـبدائي، غـير النـاضج، بالـضبط هـو الذي سيفهمها بأكثر الأشكال فـظاظة.

96. الأخلاق والأخلاقي.

التوفر على أخلاق، على شيم، على آداب، يعـني الخضـوع لقانون، لتقلُيدَ وضع منذ القدَم. لايهم إن خضعنا لهما على مضض أو عن طيب خاطر، يكفي أن نَخضع لهما. إننـا ندعـو «خيِّرا» كل مـن يتـصرف، كمـا لو تـلقـائيا، إثـر وراثة ممـتدة، إذن بـسهـولة وطواعـية،طبـقا للأخلاق كـما هي الآن (يـنتقـم مثلا حـين يكون الانتـقام، كمـا لدى الاغريق الـقدامى، داخلا ضـمن العادات الحـميدة). يدعى خيـرا لأنه يصلـح « صالحة لشيء مـا»؛ وبما أن الناس، رغم تغير العادات، قد وجـدوا الإرعاء والشفقة وأحـاسيس أخرى مـشابـهة «لـشيء مـا»،نافعـة، فإن الـعطـوف والمغيـث بالخـصوص هـما الـلذان يدعوانـهما «خيريـن». أن تكون شريرا معنـاه أن تكون «دون أخلاق» (لاأخـلاقيا)، أن

تمارس اللاأخلاقية، أن تعارض التقليد (tradition) ، مهما يكن معقولا أو عبثيا؛ لكن الذي أحس به الناس على أنه ضار، في كل القوانين الأخلاقية وعبر مختلف العصور، هو بالخصوص الإساءة إلى القريب، حتى أن كلمة «شرير» حاليا تجعلنا نفكر قبل كل شيء في ضرر أصبنا به قريبا لنا عن عمد. إن التعارض الجوهري الذي قاد الناس إلى تمييز الأخلاقي من اللاأخلاقي، الخير من الشر، ليس هو التعارض بين «أناني» «وغيري»، بل بين الارتباط بتقليد ما، بقانون ما وبين الانفصال عنهما. الطريقة التي ظهر بها التقليد ليست مهمة هنا؛ لقد ظهر، على أية حال، دون أن يُحيل إلى الخير والشر أو إلى أمر مطلق ملازم له، لقد ظهر وهو يرمي قبل كل شيء إلى الحفاظ على الجماعة، على الشعب. إن كل عادة خرافية تولدت عن حادثة أسيء تأويلها تنتهي بأن تفرض تقليدا يكون من حُسْنَ الخلق اتباعه؛ والتملص منه يكون خطيرا، مضرا بالجماعة أكثر منه بالفرد (لأن المعبود يجعل الجماعة كلها تكفر عن تدنيس حرماته وانتهاك مزاياه، ومن ثمة يكفر عنها الفرد كذلك). والحالة هذه فإن التقليد يكتسب احتراما يتراكم جيلا بعد جيل، بأن يصبح مُقَدَّساً، بأن يثير الخشية والإجلال. وهكذا فإن أخلاق الورع هي على أية حال أخلاق أقدم كثيرا من الأخلاق التي تتطلب فعالا نزيهة.

97 . المتعة في الأخلاق.

يتولد من العادة إذن نوع مهم من المتعة منبعه الأخلاقية. إننا نقوم بسهولة أكثر، بشكل أفضل، إذن عن طواعية، بكل الأشياء التي تعودنا عليها، نجد فيها متعة، ونعرف عن تجربة أن هذه الأشياء قد اثبتت قيمتها، إذن فهي نافعة. فالعادة التي توفر رغد العيش تبرهن بذلك على أنها صحية، مفيدة، عكس كل المحاولات الجديدة التي لم يتم التحقق منها بعد. العادة إذن هي اتحاد الظريف والنافع، وهي، علاوة على ذلك، تُعْفِي من التفكير. بمجرد ما يستطيع الإنسان أن يمارس إكراها فإنه يمارسه كي يُشْيِعَ عاداته ويفرضها، لأنها، بالنسبة له، هي الحكمة عينها. كذلك تفرض جماعة من الأفراد عادات متطابقة على كل فرد منها على حدة. لننظر إلى السفسطائية : تجعل العادة المرء يحس بأنه قوي؛ أو على الأقل تمكنه من تدعيم وجوده، إذن فهذه العادة ضرورية، لأنها تعتبر هي الإمكانية الوحيدة التي ستجعله يشعربأنه قوي؛ يبدو رغد العيش وكأنه ينتج عنها وحدها. إن هذا التصور للعادات التي يتم اعتبارها شرط الوجود يتم تمديده ليشمل حتى أدق تفاصيل العادة؛ بما أن معرفة السببية الحقيقية تافهة لدى الشعوب والحضارات التي من مستوى أدنى فإن الناس يحرصون، بخوف وهمي،على أن يتخذ

كل شيء مجراه الثابت؛ حتى حين تكون العادة مُضْنِيَة وشاقة ومتعبة فإنهم يحافظون عليها بسبب منفعتها الكبرى الظاهرة. إنهم يجهلون أن رغد العيش قد يتحقق كذلك مع وجود عادات أخرى وبنفس الدرجة، بل قد يبلغ درجات أعلى. غير أننا نلاحظ أن كل العادات، حتى الشاقة منها، تلين مع مرور الوقت حتى تصير مستساغة، وأنه ليس هناك شيء، حتى الشيم المتزمتة، لايمكن أن يتحول إلى عادة، ومن ثمة إلى متعة.

98. المتعة والغريزة الاجتماعية.

يجني الإنسان من علاقته بأنا س آخرين نوعا جديدا من المتعة ينضاف إلى الأحاسيس الممتعة التي تنبع منه هو؛ وبهذا يوسع كثيرا المجال العاطفي للمتعة بشكل عام. ربما تأتيه كثير من الأشياء التي تندرج ضمن هذا الصنف من الحيوانات التي تجد متعة في ملاعبة بعضها البعض، خاصة الأم مع صغارها. لنفكر كذلك في العلاقة الجنسية حيث تكاد كل أنثى تبدو مهمة في عين أي ذكر يبتغي المتعة، والعكس صحيح. الإحساس بالمتعة المبني على العلاقات الإنسانية يُصَيِّرَ الإنسان أفضل على العموم؛ وبفعل ذلك تتنامى الفرحة والمتعة المشتركتان مع الآخرين، تمنحان ضمانة للفرد، تُصَيِّرَانه عطوفا، تزيلان الريبة والحسد : لأن الفرد يحس أنه بخير ويرى الآخرين على نفس الحَال. إن تمظهرات المتعة المماثلة تُذْكِي خيال التعاطف والإحساس بما يشبه المساواة؛ ذلك ما تفعله المعاناة والعواصف المخاطر المشتركة، والأعداء المشتركين. لاشك أن أقدم اتحاد قد تمت إقامته على هذا : والمبتغى منه هو التخلص الجماعي من الكدر المُهَدِد واتقاؤه، وذلك لحساب كل فرد. هكذا تتولد الغريزة الاجتماعية النامية من المتعة.

99. البريء في القبائح المزعومة.

كل ال «قبائح» تبعث عليها غريزة البقاء، أوبتعبير أدق، نزوع الفرد إلى البحث عن المتعة وتفادي الكدر؛ وبما أن باعثها هو هذا فإنها لاتُعْتَبَرُ قبائح. «التسبب في المعاناة في ذاتها » لاوجود له سوى في مخ الفلاسفة ، كما لاوجود ل «منح المتعة في ذاتها» (الشفقة لدى شوبنهاور). في نوع حياتنا السابق لظهور الدولة كنا نقتل الكائن، الإنسان أو القرد، الذي يريد أن يقطف قبلنا ثمرة شجرة في اللحظة التي أحسسنا فيها بالجوع وأسرعنا إليها : مثلما قد نقتل حيوانا ونحن نجتاز مناطق قاحلة. - القبائح التي تغيظنا أكثر حاليا تقوم على الخطأ القائل بأن الآخر، الذي يرتكبها في حقنا، له إرادة حرة، أي أن رغبته وحدها هي ما قد يمنعه من الإساءة إلينا. إن الإعتقاد في الرغبة هو ما

يثير الحقد، الحاجة إلى الإنتقام، الحيلة، وكل ضلالات الخيال، بينما لانحقد على الحيوان إلا قليلا لأننا نعتبره لامسؤولا. أما الإساءة التي لاتكون بدافع من غريزة البقاء، ولكن بدافع الثأر، فهي نتيجة حكم خاطىء، إنها إذن بريئة هي الأخرى. في ظروف العيش السابقة لظهور الدولة كان يمكن للفرد أن يعامل الكائنات الأخرى بقساوة وفظاظة على سبيل الإهانة كي يضمن وجوده بهذه الأدلة المُهينة الدالة على قوته. هكذا يتصرف العنيف، القوي، أول من أنشأ الدولة، الذي يُخْضِعُ الضعفاء، له الحق في ذلك، مثلما للدولة في أيامنا هذه، أو بالأحرى، ليس هناك قانون يمكنه منع ذلك. لايمكن تهييء أرض للأخلاقية إلا انطلاقا من اللحظة التي تقوم فيها شخصية كبيرة أو شخصية جماعية، كالمجتمع أو الدولة مثلا، بإخضاع الأفراد أي بإخراجهم من عزلتهم وتنظيمهم في جمعية. لاتأتي الأخلاقية إلا بَعْدَ الإكراه، وتظل هي بدورها إكراها لبعض الوقت، ويخضع لها الناس كي يتجنبوا الكدر (déplaisir) . لاحقا تصير عادة، ثم بعد ذلك تصير خضوعااختياريا، وفي النهاية تصير شبه غريزة : إنها إذن، مثل كل التصرفات الطبيعية التي صارت اعتيادية منذ أمد طويل، مرتبطة بالمتعة - وتحمل منذ الآن اسم فضيلة.

100. الحيــــاء.

يوجد الحياء حيثما يكون «لغز»، هذا مفهوم ديني كان له انتشار واسع في العصور القديمة من الحضارة الإنسانية. كانت هناك في كل مكان ميادين مغلقة يحظر القانون الإلهي ولوجها إلا بشروط، كانت شروطا محلية في البداية، وذلك حتى لا تطأ بعضَ الأماكن أقدام المُدَنِّسينَ الذين كانوا يشعرون بالقرب منها بالرعب والغم. وقد تم نقل هذا الإحساس إلى عَدَد من الحالات الأخرى، إلى العلاقات الجنسية مثلا، وهي التي كان الأمر يتعلق بإخفائها عن أنظار الصغار، من أجل مصلحتهم، لأنها امتياز وَمَقْدس* (adyton) سنِّ النضج : لقد تخيل الناس عددا كبيرا من الآلهة المنشغلين بصيانة هذه العلاقة وتطهيرها وهم واقفون كحراس في بيت الزوجية، (هكذا يسمى هذا البيت عند الأتراك بالحريم، «حَرَمٌ»، ويطلق عليها الإسم ذاته الذي يطلق على أروقة المساجد.) الملكية كذلك، المركز الذي تشع منه القوة و العظمة، تعتبر لغزا كله سرية وحياء بخصوص هذا الموضوع: لاتزال آثار ذلك ملموسة في أيامنا هذه بين شعوب لم تعد في عداد المحتشمين. كذلك عالم الحالات الباطنية كله. «الروح» كما نسميها، تظل حتى في الوقت الراهن لغزا بالنسبة لكل غير الفلاسفة،بعد كل هذا الوقت الطويل

*adyton = حَرَم أو مقدس في المعابد لايدخله إلا الكهنة (المترجم)

الذي اعتقدناها فيه ذات أصل إلهي، ذات علاقة مع الآلهة : إنها تعتبر مَقْدِسًا في كل مكان وتوحي بالحياء.

101. لا تُصْدِرْ حكما.

علينا، ونحن نتأمل العصور الماضية، أن نحترس من إطلاق العنان لمَسَبَّات ظالمة. إننا لن نستطيع أن نقيس بذراعنا ظلم العبوديةولافظاظة استعباد الأفراد والشعوب. لأن غريزة العدالة لم تكن متطورة كثيرا في ذلك الوقت. من سيلوم الجنيفي(Genevois) كالفين(calvin) على حرقه الطبيب Servet ؟ إنه تصرف ناتج، بشكل منطقي جدا، عن قناعاته، كما أن التحقيق كانت له أسبابه الوجيهة؛ إلا أن الأفكار السائدة آنذاك كانت خاطئة وكانت لها عواقب تبدو لنا وخيمة نظرا لأننا صرنا نجهل تلك الأفكار. وفضلا عن ذلك، ماذا يشكل عذاب فرد واحد تم حرقه مقارنة مع العذاب الأزلي في الجحيم الموعود به كل الناس تقريبا! ومع ذلك فإن هذه الصورة كانت سائدة في العالم بأسره آنداك دون أن تلحق أذى بالأساس، بفظاعاتها الكبيرة، بصورة أي إله. في الوقت الحاضر كذلك تتم معاملة المتحزبين بقسوة و فظاعة،لكن بما أ ننا قد تعودنا الإيمان بلزومية الدولةفإن شعورنا بالفظاعة هنا ليس هو نفس شعورنا بها هناك حيث نستهجن المفاهيم. إن قسوة الإيطاليين والأطفا ل مع الحيوانات مرجعه ا إلى اللافهم؛ لقد تم الدفع بالحيوان بعيدا وراء الإنسان بسبب المصالح العَقَدِيَة للكنيسة على وجه الخصوص. إن كثيرا من فظاعات التاريخ وبشاعاته التي لانَوَدُّ تصديقها كاملة تصير أهون إذا اعتبرنا أن القائد الذي يأمر والإنسان الذي ينفذ شخصان مختلفان : الأول لاتترك الفظاعة في خياله انطباعا قويا لأنه لايراها، والثاني لايشعر بالمسؤولية لأنه إنما ينفذ أوامر من هو أعلى منه. يبدو أغلب الأمراء والقواد العسكريين أفظاظا وقساة لنقص الخيال لديهم، لكنهم ليسوا كذلك. - الأنانية ليست شريرة لأن فكرة ال «قريب» (الكلمة ذات أصل مسيحي ولا توافق الحقيقة) ضعيفة لدينا؛وإننا نشعر تُجَاهَ لقريب بما نشعر به تجاه النباتات و الأحجار، بأننا شبه أحرار وشبه لامسؤولين. لابد من تعلم كون الآخر يعاني : وهو شيء لايمكن أبَدَاً تعلمه بإتقان.

102. «الإنسان دائما يحسن التصرف».

إننا لانتهم الطبيعة باللاأخلاقية حين تأتي عاصفة فتبللنا : لماذا إذا نقول عن الإنسان الذي يفعل شَرًّا ما أنه لاأخلاقي؟ لأننا نفترض هنا إرادة غير خاضعة لأوامر تعسفية،

وهناك جبر (nécessité). لكن هذا التمييز خطأ. إننا، فضلا عن ذلك، لانصف فعلا يسبب الضرر عن عمد بأنه لاأخلاقي؛ نقتل ذبابة مثلا عن عمد، لكن دون أدنى تردد، لمجرد أن طنينها يزعجنا،نعاقب مجرما ونعذبه عن عمد، كي نحمي نفسنا والمجتمع .في الحالة الأولى، الفرد هو الذي يسبب ضررا وذلك من أجل بقائه أو لكي يتجنب إزعاجا؛ أما في الحالة الثانية فالدولة هو التي تفعل. كل الأخلاق تَقْبَلُ التصرفات التي تُسبب الضرر عن عمد في حالة الدفاع عن النفس، أي حين يتعلق الأمر بالبقاء! لكن وجهتي النظر هاتين تكفيان لتفسير كل القبائح التي يرتكبها الناس في حق الناس :المرء دائما يريد متعته، يريد تجنب الإنزعاج، أيا كان ذلك فإن الأمر يتعلق دائما ببقائه. لقد كان سقراط وأفلاطون على حق : مهما يفعل الإنسان فإنه خَيْرًا يفعل دائما، أي أنه يفعل مايبدو له خيرا (نافعا) حسب درجة ذكائه وحسب مستواه العقلي في ذلك الحين.

103. براءة الخبث.

ليس هدف الخبث هو الإساءة إلى الغير من أجل الإساءة، إن هدفه هو متعتنا الخاصة، كمتعة إحساس يثيره الإنتقام أو كمتعة تَهَيُّجٍ عصبي حاد. تكفي أدنى مضايقة لإظهار المتعة التي نجدها في ممارسة قوتنا على الآخر واستخلاصنا منها للإحساس المثير لتفوقنا.فهل هناك، والحالة هذه، شيء لاأخلاقي في التمتع بإزعاج الغير؟ هل لذة الإساءة شيطانية، كما يقول شوبنهاور؟ ومع ذلك فإننا، في الطبيعة، نجد متعة في كسر الأغصان، في قلع الأحجار، في مصارعة الحيوانات المفترسة، وذلك كي نَعِيَ قوتنا. هل معرفة أن شخصا آخر يعاني من جراء ما فعلناه ستجعل من الشيء ذاته الذي لم نكن نحس تُجَاهه بالمسؤولية في مكان آخر شيئا لا أخلاقيا في أحد جوانبه؟ لكن لو لم نعرف ذلك لما وجدنا فيه متعة التفوق التي لايمكن أن تظهر إلا من خلال معاناة الغير حين نضايقه مثلا، ليست هناك متعة أنانية لاتكون لاخيرة ولاشريرة؛ من أين قد يصدر الأمر بعدم إزعاج الغير من أجل التمتع بمتعتنا الأنانية؟ من وجهة نظر المنفعة، أي بمراعاة العواقب، بمرعاة إزعاج محتمل، إذا افترضنا أن الضحية أو الدولة، ناطقة باسم الضحية، يهددانا بالعقاب أو بالإنتقام : هذا هو الشيء الوحيد الذي بإمكانه، في الأصل، أن يوجد سببا للإمتناع عن مثل هذه التصرفات. - ليس هدف الشفقة هو متعة الغير لذَاتهَا مثلما أن هدف الخبث ليس هو معاناته، كما أسلفنا ذلك. لأن الشفقة تحوي علَى الَأقل عنصرين من عناصر المتعة الشخصية (إن لم يكن أكثر)،وبذلك تمثل نوعا من المتعة الأنانية : فمن ناحية ، تحوي لذة الإنفعال، نوع الشفقة الذي نجده في المأساة (tragédie) ، ومن ناحية أخرى،حين تدفع إلى الفعل،

تحوي لذة الرضى التي هي ممارسة القوة. حين يكون المعاني قريبا جدا لنا، علاوة على ذلك، فإننا، بإشفاقنا عليه، إنما نخلص أنفسنا من العناء. - إذا استثنينا بعض الفلاسفة فإننا نجد أن كل الناس كانوا دائما يضعون الشفقة في أسفل سُلَّمَ الأحاسيس الأخلاقية، وذلك عن حق.

104. الدفاع عن النفس.

إن كنا نقبل، بشكل عام، أخلاقية الدفاع عن النفس، فمن الواجب علينا أن نقبل كذلك تقريبا كل تمظهرات الأنانية التي نقول عنها أنها لاأخلاقية : نفعل الشر، نسرق ونقتل كي نضمن بقاءنا أوحمايتنا، كي نتدارك نكبةً تُصيبنا شخصيا؛ نكذب كلما كانت الحيلة والتكتم وسيلة ناجعة لضمان بقائنا. نسلم بأن الإساءة عن قصد أخلاقيةحين يتعلق الأمر بوجودنا أو بأمننا (بالحفاظ على رفاهيتنا)؛ الدولة ذاتها تتبنى وجهة النظر هاته حين تصدر الأحكام وذلك حتى تُعَاقُب بقسوة. لايمكن أن توجد اللاأخلاقية في الشر غير المقصود، فهو وليد الصدفة. لكن هل هناك نوع واحد من الأفعال الضارة عن عمد لا يتعلق الأمر فيه بوجودنا، بالحفاظ على رفاهيتنا؟ هل هناك ضررٌ تم إلحاقه بشخص ما بدافع الخبث المحض، في القسوة مثلا؟ إذا جهلنا الضرر الذي يسببه فعل ما فإنه لايكون فعلا دافعه الخبث؛ هكذا فإن الطفل ليس خبيثا مع الحيوان، ليس شريرا : إنه يدرسه ثم يُدَمِّرُهُ كما يفعل بلُعَبه. لكن هل نعرف حق المعرفة الضرر الذي يلحقه فعْلٌ ما بالغير؟ إننا نحترس من الأَلَمَ داخل حدود جهازنا العصبي : ولو امتد الألم بعيدا حتى يصيب أمثالنا فإننا لن نسيء إلى أحد (إلا في تلك الحالات التي نؤلم فيها أنفسنا، كما حين نتحمل شرَطة كي نشفى، نتعب ونعاني من أجل صحتنا). نستنتج بالقياس أن شيئا ما يؤلم شخصا ما، ويحدث أن نعاني من ذلك نحن أنفسنا بفعل التذكر وقوة الخيال. وكم هو شاسع ذلك الفرق الموجود بين ألم الأسنان والمعاناة (التعاطف) التي تثيرها رؤية أحَد يتألم من الأسنان! لنُلَخِّصَ : إننا نجهل، في كل الحالات، درجة الألم الذي ينتج عن الضرر المزعوم أننا نسببه بدافع الخبث؛ لكن حين تصاحب الفعل متعة (إحساس بالقوة، بحدة الانفعال)، فإن الفعل يتم من أجل الحفاظ على رفاهية الفرد ومن ثمة تعود إلى نفس وجهة نظر الدفاع عن النفس والكذب الإضطراري. لاحياة دون متعة؛ الصراع من أجل المتعة هو الصراع من أجل الحياة. هل سيخوض الفرد هذا الصراع بحيث يَقول عنه الناس أنه خَيِّر أم بحيث يقولون عنه أنه شرير، إن مستوى وطبيعة ذكائه هما اللذان سيقرران ذلك.

105. العدالة التعويضية.

الذي يدرك تمام الإدراك مبدأ اللامسؤولية الكاملة يعود بإمكانه إدخال العدالة المسماة تعويضية ضمن مفهوم العدالة، مادامت هذه الأخيرة تقضي إعطاء كل ذي حق حقه. لأن الذي عوقب لايستحق العقاب : إنما يتم استخدام فقط كما يتم استخدام وسيلة إهانة لمنع وقوع بعض الفعال في المستقبل؛ والذي يُجَازَى لايستحق الجزاء هو الآخر : إذ لَم يكن بوسعه أن يتصرف بخلاف ما تصرف به. هكذا فإن الجزاء ليس له من معنى سوى تشجيعه هو وتشجيع الآخرين، وغايته إذن هي إيجاد حافز للتصرفات المستقبلية؛ إننا نهتف للذي لازال يجري في الحلبة وليس للذي قد بلغ هدفه. ليس العقاب ولا الجزاء ملكا خاصا للفرد؛ إن معاقبته أومجازاته تتم بدافع المصلحة دون أن يكون له حق ادعاء ملكيتهما بعدل. ينبغي القول «لا يُجَازي الحكيم على حسن التصرف» مثلما قد قيل «الحكيم لايعاقب على سوء التصرف، لكن من أجل منع التصرف السيء». لو اختفى الجزاء والعقاب فإن البواعث القوية التي تجعلنا نتحول عن بعض الأفعال وتدفعنا إلى القيام بأفعال أخرى ستختفي هي كذلك؛ مصلحة الإنسانية تقضي تأبيدها؛ ومادام للعقاب والجزاء، للذم والمدح، أثر دقيق على الغرور فإن هذه المصلحة نفسها تتطلب تأبيد الغرور كذلك.

106. الشلال.

لدى رؤيتنا شلالاً نظن أننا نرى هوى عابرا وعسفا في التقوسات والتموجات والتحطمات اللاتحصى في أمواجه؛ إلا أن كل شيء فيه لازم (nécessaire)، ويمكن عد أدبي دُرْدُور فيه رياضيا. قس على ذلك أفعال الإنسان؛ علينا، لو كنا عالمين بكل شيء، أن نحسب فعلا بعد فعل، وأن نحسب كذلك كل تقدم معرفي، كل خطأ، كل خبث. أما الذات الفاعلة فإن وهم حريتها في الإختيار قد شغلها ولاشك؛ لكن لو أن عجلة العالم توقفت لحظة عن الدوران وكان هناك ذكاء عالم بكل شيء وماهر في الحساب كي يستفيد من مثل هذه التوقفات فإنه سيستطيع من خلال ذلك أن يتنبأ بمستقبل كل واحد من الكائنات أزمنة سحيقة وسيحدد كل النقط التي ستمر بها هذه العجلة. يشكل وهم الممثل بخصوص نفسه وفرضية حريته في الإختيارجزءا لايتجزأ من هذه الإوالية الواجب حسابها.

107. اللامسؤولية والبراءة.

لامسؤولية الإنسان الشاملة، بخصوص أفعاله وكيانه، هي أُمَرُّقطرة يجب على رجل المعرفة أن يتجرعهاهو الذي تعود أن يرى في المسؤولية والواجب حروف نبل الإنسانية.

كل اعتباراته، كل تميزاته، كل اشمئزازه قد صارت بذلك مزورة ونقصت قيمتها؛ وإحساسه الأقوى، الذي كان يشعر به تجاه الشهيد، تجاه البطل، كان قائما على خطأ؛ لم يعد بإمكانه أن يَمْدَحَ أويَذُمَّ، مادام ليس هناك معنى في مدح الطبيعة والجبر أو ذمهما. مثلما يحب العمل الفني الناجح، لكن دون أن يمدحه، لأنه لادخل للعمل نفسه في ذلك النجاح، ومثلما يتأمل النبتة، سيكون عليه أن يتأمل فعال الناس وفعاله هو. سيُسْمِحُ له بالإعجاب بقوتها، بجمالها وبكمالها، لكن لن يُسْمَحَ له بأن يرى فيها بعض الاستحقاق؛ التفاعلات الكيماوية وصراع العناصر، عذابات المريض الذي يصيبه الضنى بعد الشفاء، ليست استحقاقات مثلما ليست استحقاقات صراعات الروح وشدائدها التي تؤرجحنا فيها مختلف البواعث حتى لحظة نقرر الانحياز إلى أقواها – على ما يقال (والواقع هو حتى اللحظة التي يقرر فيها الباعث الأقوبشأننا). والحال أن هذه البواعث كلها، مهما كانت الأسماء التي نطلقها عليها كبارا، قد نبتت في نفس المنشأ الذي نعتقد أنه يؤوي سموم البشر؛ ليس هناك بين المكارم والقبائح فرق في النوع بل في الدرجة على أكثر تقدير. ما المكارم إلاقبائح مُصَعَّدَةٌ؛ والقبائح مكرمات تم تحويلها إلى عملٍ فظ، إلى حماقة. فريدةٌ هي رغبة الفرد، رغبته في المتعة الأنانية (ترافقها خشية الحرمان منها) التي تتم تلبيتها في جميع الأحوال كيفما استطاع الإنسان، أي كيفما وجب عليه أن يتصرف : سواء كانت تصرفاته تتم بدافع الغرور، الإنتقام، الشبق، المنفعة، الخبث، المكر، أو بدافع التضحية أو الشفقة أو المعرفة. إن درجة الحكم هي التي تقرر الإتجاه الذي سيدع كل واحد هذه الرغبة تقوده إليه؛ في عقل كل جماعة وكل فرد هناك حضور دائم لتراتبية المنافع التي تصلح لتحديد تصرفاتها و للحكم على تصرفات الآخرين. غير أن هذا السُّلَّم يتغير باستمرار، فكثير من التصرفات، التي ليست سوى حماقات، يقال عنها أنها قبائح، لأن مستوى الذكاء الذي قرر بشأنها كان مُتدنيا. بل أكثر من ذلك، حتى في أيامنا هذه فإن كل التصرفات هي حماقات بمعنى ما، لأن أعلى درجات الذكاء الإنساني الذي تم بلوغه سيتم تجاوزه ولاشك : وآنداك ستُظهر لنا نظرة استعادية أن كل فعالنا وأحكامنا قصيرة النظر وطائشة مثلما تبدو لنا الآن فعال وأحكام القبائل المتوحشة المتخلفة. – التنبه إلى كل هذا قد يتسبب ولاشك في آلام حادة، لكن هناك استنتاجا : هذه الآلام هي آلام الولادة. الفراشة تريد أن تخرج من شرنقتها، لذلك تستبسل في تمزيقها : وهاهي ذي قد أعماها وأضلها النورالمجهول، مملكة الحرية. بعض الناس القادرين على مثل هذه الكآبة (وقليل ماهم!) هم موضع محاولة أولى ستقرر إن كان بمقدور الإنسانية، التي هي الآن أخلاقية، أن تتحول لتصير إنسانية عاقلة. شمس إنجيل جديد تغمر بأول شعاع لها ذرى

روح هؤولاء الأفراد : الضباب يتكثف فيها بشكل لم يسبق له مثيل، والبريق النقي يجاور فيها الظلال العكرة. كل شيء لزُوُم، تقول المعرفة الجديدة : وهذه المعرفة هي في حد ذاتها لُزُوم. كل شيء براءة : والمعرفة هي السبيل التي تُوصِلُ العقلَ إلى هذه البراءة. هَبْ أن المتعة والأنانية والغرور لازمة لإنتاج الظواهر الأخلاقية وإزهارها التام، وهذا هو معنى حقيقة المعرفة وعدالتها، وَهْبْ أن الخطأ ومتاهات الخيال كانا هما الوسيلتين الوحيدتين لسُمُو الإنسانية بالتدريج إلى هذه الدرجة التلقائية من الوضوح والتحرر - فمن سيكون له الحق في ازدراء هاتين الوسيلتين؟ في أن يكتئب حين يرى الهدف الذي تقود إليه هذه السبل؟ كل شيء، في ميدان الأخلاق، ينتج عن تطور، وهذا الكل متغير، سائر، كل شيء فيها جار، هذا صحيح : لكن كل شيء فيها يجري مع التيار كذلك، في اتجاه هدف وحيد. قد تستمر، مع ذلك، العادة الوراثية في الحكم الخاطىء، في الكراهية الخاطئة، في التحكم فينا؛ لكنها ستضعف تحت تأثير المعرفة المتنامية؛ ستنشأ لدينا، في نفس التربة عادة جديدة،عادة التفهم، عادة الحب وعدم الكراهية، عادة النظر إلى أعلى، وربما ستكون لها، في غضون الآف السنين، القوة الكافية لمنح الإنسانية قوة إنتاج الإنسان الحكيم، البريء (الواعي ببراءته)، بنفس الإنتظام الذي تنتج به الآن الإنسان الذي ليس لاحكيما ولا عادلا في شعوره بالإثم - والذي ليس نقيض الآخر بل مسودته الضرورية.

الكتاب الثالث

الحيـــــاة الدينيــة

108. الصراع المضاعَف ضد الشر.

حين يصيبنا شر ما فإنه يمكننا القضاء عليه إما بإزالة سببه أوبتغير الإنطباع الذي يخلفه في إحساسنا، وذلك، إجمالا، بإعادة تفسير ذلك الشر على أنه خير قد نكتشف نفعه فيما بعد. الدين و الفلسفة (وكذلك الفلسفة الميتافزيقية) يسعيان جاهدين إلى تغيير الإحساس وذلك بتغيير حكمنا بخصوص ما يحصل لنا (بالتذرع مثلا بمبدأ أن« الله يعاقب الذي يحبه»)، وبجعلنا نشعر بمتعة أثناء إحساسنا بالألم، بالإنفعال بشكل عام (إنها نقطة بداية الفن المأساتي). كلما ملْنَا أكثر إلى إعادة التفسير وإلى الترتيب كلما قل تفكيرنا في أسباب الشر وفي إزالتها، إن تخفيف الألم و التخدير المؤقتين، الشائعين بخصوص آلام الأسنان مثلا، سيكفيان كذلك بخصوص آلام أشد. كلما ضئُلَتْ سلطة الديانات و الفنون المخدرة يفكر الناس بجدية في القمع الفعلي لآلامهم، الشيء الذي يعود بالمضرة على الشعراء المأساتيين (tragiques) - تَقِلُ مادة المأساة بالفعل بمجرد ما تبدأ في التقلص سيطرة القَدَرِ الثابت ،العديم الشفقةَ – لكن مَضَرَّةَ الرهبان تكون أكبر : لأنهم قد عاشوا حتى الآن على تخدير الآلام الإنسانية.

109. المعرفة عذاب.

كم نود مبادلة كلام الرهبان الزائف الذي يؤكد وجود إلَه يتطلب منا فعل الخير، إله يراقب كل أعمالنا ولحظاتنا وأفكارنا ويشهد عليها، إله يحبنا ويريد لنا الخير العميم في كل المصائب، – كم نود مبادلته بحقائق تكون صحِّيَة، مُطَمْئنَة وإرعائية تماما مثل هذه الأخطاء ! لكن مثل هذه الحقائق لاوجود لها؛ حتى الفلسفة ذاتها لاتستطيع أن تعارضها، على أكثر تقدير، إلا بجواهر ميتافزيقية (حتى هي كاذبة في الواقع). والمأساة هي أننا لن نستطيع الإيمان بأركان الدين والميتافزيقاحين يكون لنا عقل تسكنه المنهجية

الصارمة للحقيقة، حين يكون تطورالإنسانية قد صيَّرنا، من جهة أخرى، رِقَاقاً،حَسَّاسِين، مُعانين، بحيث لن يحتاج إلى أرفع أنواع العلاج والتسلية؛ ثمة، في الواقع، يكمن، بالنسبة للإنسان، خطر دفع حياته ثمنا للحقيقة التي عرفها. يقول بايرون (Byron) ذلك في أبيات خالدة :

حزن هي المعرفة : وبعمق فليحزن
السامقون فيها على الحقيقة الحِمَام،
شجرة المعرفة ليست شجرة الحياة.

إن فضل علاج لمثل هذه المعاناة هو أن نتذكر خفة هوراس الاحتفالية، على الأقل في أسوأ الساعات، في أحلك الظلمات، وأن نقول معه :

أي شيء دقيق
يجمع بين الشجاعة و العذاب ؟
حتى يظل العَيْثَامُ وهذا
الصنوبر منتصبين...

أكيد أن الخفة و الضَّنَى أفضل، على كل المستويات، من رومانسية التقهقر إلى الوراء والفرار، من أي تقارب مع المسيحية؛ لأنه لن يمكننا، في الوضع الحالي للمعرفة، أن نتعامل معها دون أن نلوث نهائيا وعينا الفكري و نشوهه في نظرنا وفي نظر الآخرين. قد تكون هذه المعاناة قاسية جدا؛ لكن المرء لن يستطيع دونها أن يجعل من نفسه دليل الإنسانية ومربيها؛ والويل لمن يريد المجازفة بأن يكون كذلك وليس له هذا الوعي الخالص.

110. الحقيقة في الدين.

من المؤكد أن الدين لم يتم إنصافه خلال عصر الأنوار؛ ومن المؤكد كذلك أن الناس، في المرحلة التالية من رد الفعل، قد ابتعدوا كثيرا عن الإنصاف مرة أخرى وذلك بمعاملتهم للأديان بحب، بل بعشق، وبإقرارهم بأن لها معرفة؛ فما كان على العلم إلا أن يجردها من ثوبها الوثوقي كي يحفظ ال «حقيقة» في صورة غير خرافية.- كانت طريحة كل خصوم الأنوار - أن الأديان تُعَبِّرُ بشكل مجازي، وبمراعاة لفهم

الجمهور، عن هذا التعقل القديم الذي هو الحكـمةُ نفسُها، بما أن كل العلوم الأصيلة في العـصور الحديثـة قد تعود بـنا إليهـا عوض أن تبـعدنا عنـها : بحيـث سيسود بـين أقدم حكماء الإنـسانية وبين المتأخـرين منهم انسجـام، بل تطابق في الآراء وبحـيث أن تقدم المعارف - إن كانت هناك رغبة في التحدث عنه - لن يخص جوهر الأديان بل نشرها بين الناس. إن هذا التصور للدين وا لعلم خـاطيء تماما ولن يجرؤ أحد في وقتنا الحاضر على مناصرته لو أن فـصاحة شوبنهاور لم تُظلُّهُ بجناحها، هذه الـفصاحة ذات النبرات الرنانة التي لـم تؤثر، مع ذلك في المستمعين إليها إلابعد مرور جيل كامل. يمكننا بكل تأكـيد أن نستـخلص مـن التفسـير الدينـي، والأخلاقي فـي ذات الوقت، الذي أعـطاه شوبنـهاور للعالـم وللإنسان كـثيرا من الأشيـاء كي نفهم المسيحيـة والأديان الأخرى، مؤكد أنـه قد أخطأ بخصـوص قيمة الديـن بالنسبـة للمعرفة. هـو نفسه لم يـكن سوى تلمـيذ وديع لدى أساتـذة العلوم في ذلـك العصر الـذين اتبعوا الـرومانسية، رغـم عظم شأنهم، وارتـدوا عن روح عصر الأنوار؛ ولو أنه ولد فـي عصرنا الحاضر لاستحـال عليه أن يتـحدث عن الشـكل المجازي لـلدين؛ كان بـالأحرى سيُحيِّي الحقـيقة، كمـا جرت بذلك الـعادة، بهذه الكـلمات : إن الدين لـم يحتوِ عـلى حقيقـة أبدا، لابشكل مـباشر ولاغير مباشر، لاعلى شكل رُكْنٍ من أركانه ولا على شكل حكمة. لأن الدين إنما يولد من الخوف ومن الحاجة، وقد انسل إلى داخل الوجود من خلال سُبُلِ العقل التائه؛ وربما يكون قد حدث للدين، حين شعر بتهديد العلم له، أن دس نظرية فلسفية ما، بمكر، في منهجه، بغية أن تُكْتَشَفَ فيه لاحقا؛ إنها حيلة لاهوتي مادام الدين قد داخله الشك في نفسه من قبل، إن حِيَلَ اللاهوت التي مُورِسَتْ في وقت مبكر في المسيحية، هذا الدين الذي جاء في عصر علمي مشبع بالفلسفة، هي التي قادت إلى خرافة الشكل المجازي، لكن الفلاسفة، (هؤلاء الخلاسيين، خاصة الفلاسفة المُشعْرِنين والفنانين المتفلسفين)، قد اعتادوا أكثر أن يعتبروا كـل الأحاسيس التي يكتشفونها في أنفسـهم جوهرا أساسيا في الإنسـان، وأن يَدَعُوا بذلك حـتى مشـاعرهم الـدينيـة تؤُثرُ بشـكل كبـير علـى النسيج الفكـري لمناهجـهم. بما أن الفـلاسفة كانوا خـاضعين، في تـأملاتهم، لـلعادات الديـنية التقليديـة، في كثير من الجوانب، أو على الأقل للـهيمنة الوراثية ل «الحاجة الميـتافزيقية» الشهيرة، فإنهم قـد توصلوا إلى طريحات تشبه إلى حد بعيـد، في الواقع، أركان الديانة اليهودية أو المسيحية أو الهندية، - من نوع ذلك التشابه الذي يكون عادة بين الأطفال وأمهاتـهم، خلا أنه فـي هذه الحالة لـم يتوصل الآباء إلـى توضيح هـذه الأمومة، مثـلما يحدث، - وعوض ذلك تخيلوا، في بَراءة إعجابهم، تلك الأسطورة الجميلة بخصوص تشابه عائلي بين كل العلوم والديانات. فـي الحقيقة ليست هناك قرابة ولاصداقة، لابل

لاعداوة حتى، بين الدين والعلم الحق : إنهما يعيشان على كوكبين مختلفين. وكل فلسفة تدع ذَيْلُ مُذَنَّب ديني يشتعل في أقصى منظورات ظلامها تثير الشك حول جانبها الذي تقدمه على أنه علم : إننا نشك في أن يكون كل هذا دينا، مهما يكن مُبَهرجاً بِأُبَّهَة العلم. الحاصل، لو أن كل الشعوب اتفقت على بعض نقاط الدين، على وجود إله مثلاً (ولنقل دون إلحاح أن الأمر لايتعلق هنا بهذه الحالة)، فإن ذلك سيكون برهانا نقيضا تواجه به هذاه النقاط التي يدعمونها، كوجود إله مثلا : الاجماع القومي، والإنساني، بشكل عام، لايمكن، من باب الإنصاف، أن يعتبر سوى حُمْق.ليس هناك، على النقيض من ذلك، أدنى إجماع عام من طرف الحكماء على أية مادةٍ كانت، مع هذا الإستثناء الذي تتحدث عنه أبيات غوته :

كل حكماء العصور أجمعها

يتسمون، يهزون رأسهم يتوافقون :

حُمْقٌ هو انتظار تقدم الَحمْقَى!

أبناءَ الحكمة اعتبروا البُلَدَاَء

فقط بلداءَ كما يليق!

لنعبر عن ذلك بلا بيت ولاقافية وبما ينطبق على حالتنا : إجماع الحكماء يقتضي اعتبار الإجماع القومي حمقا.

111. اصل الشعائر الدينية.

لو عدنا إلى تلك العصور التي كانت فيها الحياة الدينية في ازدهارها لوجدنا فيها قناعة أساسية لم نعد نتقاسمها معها، ولذلك نرى أبواب الحياة الدينية تُغْلَقُ في وجهنا إلى الأبد؛ إنها تعني الطبيعة وعلاقتنا بها. في تلك العصور كان الناس يجهلون كل شيءعن قوانين الطبيعة؛ لم يكن هناك لُزُومٌ لا بالنسبة للأرض ولا بالنسبة للسماء؛ قد يأتي الفصل والشمس والمطر وقد لا يأتون. كانت السببية الطبيعية مجهولة آنذاك. حين يَجْدفُ المرء فإن ضربة المجداف ليست هي التي تحرك الزورق، فالتجديف، على العكَس، ليس سوى طقس سحري بواسطته نرغم عفريتا على دفع الزورق إلى الأمام. كل الأمراض، حتى الموت، هي نتيجة تدخلات سحرية، لم تكن الإصابة بالمرض ولا الموت ظاهرتين طبيعيتين أبدا؛ كانت فكرة «التسلسل الطبيعي للأحداث» غائبة تماما، – ولن يتم إطلاقها إلا لدى الإغريق القدامى، إذن في مرحلة جد متأخرة من عمر

الإنسانية، في تصورهم لـ Moire تتصدر الآلهة. أن يرمي إنسان ما بقوس فإن يدا تقف وراء ذلك، قوة لامعقولة؛ أما أن تنضب المنابع فجأة فإن التفكير يتم أولا في العفاريت الديماسية وخُبثها؛ إن الحركة الخفية التي تُهْلِكُ إنسانا ما فجأة لايمكن إلا أن تكون حركة سهم إله. في الهند، من عادة النجار حسب(Lubbock) أن يقدم قرابين لمطرقته، لبلطته ولأدواته الأخرى، نفس الشيء يفعله البراهماني مع المسمار الذي يكتب به، الجندي مع الأسلحة التي تلازمه، البَنَّاءُ مع مسجته، الفلاح مع محراثه. ما الطبيعة في خيال الناس المتدينين سوى مجموعة فعال تقوم بها كائنات واعية ومريدة، شبكة ضخمة ومعقدة من الفعال التعسفية. لايَمكننا استنتاج أي شيء بخصوص كل ماهو خارج عنا، لايمكننا أن نؤكد أن شيئا ما سيكون كذا أو كذا، أن عليه أ ن يحدث بهذا الشكل أوذاك؛ الشيء الأكيد تقريبا، الشيء المتوقع، هو نحن : الإنسان هو القاعدة، الطبيعة هي غياب القاعدة، - في هذا الافتراض تكمن القناعة الأساسية التي تسود الحضارات القديمة، البدائية، المبدعة في الميدان الديني. نحن المعاصرون نشعر بالعكس : فكلما شعر الإنسان اليوم بغنى روحه كلما صارت أناه متعددة الأصوات وكلما كان تأثير تناغم الطبيعة أكبر مُهَدِيء للروح المعاصرة، نسمع دقات رقاص هذه الساعة الكبيرة بحنين إلى الهدوء، إلى العودة إلى مكان ولادة الصمت، حنين قد يجعلنا نعتقد أننا قادرون على امتصاص هذا التناغم والعثور فيه على متعتنا. فيما مضى كان العكس؛ لو عدنا بالفكر إلى المستويات القديمة والبدائية للشعوب، أو لو أبصرنا المتوحشين الحاليين عن قرب، فسنجد أن القوة الأكبر التي يعتمدون عليها هي قوة القانون، قوة التقليد : الفرد فيها شبه مستعبد تلقائيا، ولكل حركاته انتظام الرقاص. والطبيعة - غير المعقولة، المريعة، الغامضة - تبدو له وكأنها مملكة الحرية، مملكة التعسف، ذات قوة كبيرة، بل أكثر من ذلك، كدرجة من الوجود أكثر من إنسانية، كإله. حينما يشعر كل فرد في هذه الظروف، بأن كل شيء يتوقف على نزوات الطبيعة، وجوده،سعادتُه، وجودُ وسعادة عائلته وجودُ وسعادةُ الدولة، نجاحُ كل المشاريع : من الضرورة بمكان أن تحدث بعض الظواهر في الوقت المرغوب، وأن لاتحدث أخرى في الوقت المناسب. كيف يمكن التأثير في هذا المجهول المرعب، كيف السبيل إلى ترويض مملكة الحرية ؟ هذا هو التساؤل الذي يشغله، الشيئ الذي يبحث عنه بلهفة : أليست هناك إذن أية وسيلة لإخضاع هذه القُوى لشرعية التقليد والقانون التي هي شرعيته ؟ - يميل تفكير المؤمنين بالسحر وبالمعجزة إلى إخضاع الطبيعة للقانون - : باختصار، إن الشعائر الدينية وليدة هذا التفكير. القضية التي يطرحها هؤلاء الناس تقترب كثيرا من هذه القضية : كيف سيتمكن العرق الأضعف،

رغم ضعفه، من فرض القوانين على العرق الأقوى، من أن يُجبْرَهُ، أن يتحكم في أفعاله (في علاقته مع الأضعف) ؟ سيتذكرون في الأول النوع المُسَكِّن من الإكراه، ذلك الإكراه الذي نمارسه حين نكون قد كسبنا ود شخص ما. بواسطة التوسلات والصلوات إذن، بواسطة الخضوع، بواسطة الإلتزام بالوفاء بما عليهم من القرابين ومن الإتاوات المألوفة، بواسطة الاحتفالات المتملقة سيتمكن الناس من ممارسة الإكراه على قوى الطبيعة بحيث تصير مُحَابِيَةً لهم : الحب يستعبد الناس ويستعبدونه. بعد ذلك يمكن للطرفين أن يعقدا اتفاقيات يلتزمان فيها كلاهما باتباع بعض القواعد، يقدمان الضمانات ويؤدي كل منهما اليمين. غير أن هناك نوعا من الإكراه أكثر أهمية وأشد عُنْفاً يتم بواسطة السحر والتعزيم. مثلما يعرف الإنسان كيف يسيء، بمساعدة الساحر، إلى عدو أقوى منه ويجعله يهابه، مثلما يؤثر شراب المحبة عن بعد، كذلك فإن الأنسان الضعيف يعتقد أنه يستطيع إكراه أرواح الطبيعة التي هي أقوى منه. إن الوسيلة الناجعة في كل سحر هي احتفاظ المرء بشيء يعود لشخص آخر، كالشعر أوالأظافر أو بعض الطعام الذي تناول منه، بل بصورته أو اسمه. حين يتم جمع هذا كله فإن عمل السحر يصير ممكنا؛ لأن الإفتراض الأساسي هنا هو أنه لكل عنصر روحي ينتمي عنصر بدني؛ وبمساعدة هذا الإخير يمكن الإمساك بالروحي. مثلما يؤثر الإنسان على الإنسان فإنه قد يؤثر على روح من أرواح الطبيعة؛ لأن لهذه أيضا جانبها الجسدي الذي يمكن إمساكها منه. فالشجرة، بالنسبة له، هي النبتة التي ولد منها، ويبدو هذا التحاذي الغامض برهانا على أن روحا واحدة، تارة صغيرة وتارة كبيرة، قد تشكلت في هذه الصورة أو تلك. الحجر الذي يتدرج فجأة هو جسد تسكنه روح؛ ولو أن صخرة وُجِدَتْ في أرض خلاء يستحيل التفكير في أن قوة إنسانية هي التي نقلتها إليها فإنه يصير أكيدا أن الصخرة قد انتقلت إلى هناك بنفسها، أي : لاشك أن روحا تسكنها. كل ماله جسد يمكن أن يطاله السحر، إذن حتى أرواح الطبيعة. وإذا ارتبط إله ما بصووة مباشرة فإنه سيمكن ممارسة إكراه مباشر عليه(بحرمانه من غذائه القرباني، بجلده، بتكبيله، وبأعمال أخرى من هذا النوع). في الصين، لكي ينتزع أفراد الطبقة الدنيا الحظوة التي يحرمهم منها إِلَهُهُمْ فإنهم يلفون تمثال الإله الذي تخلى عنهم بالحبال، يطرحونه أرضا، يجرونه عبر الأزقة وسط الوحل والزبل : «أيها الكلب،يقولون له، لقد أسكناك في معبد فخم، وزيناك بشكل بهي، وسمناك، وقدمنا لك القرابين، ثم تنكر الجميل.» وقد لاحظنا، حتى في زمننا هذا، في بعض البلدان الكاثوليكية، مثل هذه التدابير الصارمة ضد صور القديسين والعذراء حين رفضت القيام بواجبها أثناء وَبَاء الطاعون مثلا، أو أثناء الجفاف. - كل هذه العلاقات السحرية مع الطبيعة تتولد

عنها الكثير من الحفلات؛ وحين تؤول إلى فوضى كبيرة فإن الناس ينتهون إلى تنظيمها، إلى مَنْهَجَتِهَا، حتى ليعتقدون أنهم قد ضمنوا السير المناسب لسياق الطبيعة بأكمله، خاصة الدورة السنوية الكبرى، بفضل السير الموازي لنظام الطقوس. إن هدف الشعائر الدينية هو ترويض الطبيعة، تسييرها لصالح الإنسان، أي أن تفرض عليها حتمية ليست منها أصلا؛ بينما في العصر الحاضر يحاول الناس معرفة الحتمية الطبيعية كي يقتدوا بها. بإيجاز، إن الشعائر الدينية تقوم على أفكار مفادها أن السحر يفعل فعله من إنسان لإنسان؛ والمجوسي أقدم من الراهب. كماتقوم على أفكار أخرى أكثر نُبْلاً؛ إنها تفترض علاقات إنسانية أساسها التعاطف، تفترض وجود الإرعاء، الاعتراف بالجميل، التوسل المستجاب، المعاهدات بين الأعداء، الرهان المقبوضة، والقوانين التي تحمي الملكية. حتى في المستويات الدنيا من الحضارة لايواجه الإنسان الطبيعة وكأنه قِنٌّ عاجز، إنه ليس بالضرورة عَبْدَهَا المُسْتَسْلِم؛ ومن خلال المستوى الديني الذي بلغه الإغريق خاصة في علاقتهم مع آلهة الأولمب، يمكننا التفكير في تعايش طائفتين، واحدة نبيلة وقوية، الأخرى أقل نبلا؛ إلا أنهما تبدوان في الأصل وكأنهما كل، إنهما من سلالة واحدة، ليس عليهما أن تخجلا من بعضهما. وذلك أروع ماكان في التدين الإغريقي.

112. لدى رؤية بعض أشياء القدم المقدسة.

المدى الذي نبلغه في فقدان بعض طرق الإحساس يوضحه الإتحاد مثلا بين الهرجة، بل الفحش، وبين الشعور الديني : ولكن معنى إمكانية هذا الإتحاد يفلت منا، ولم نعد نفهم وجوده إلا تاريخيا، من خلال أعياد ديميتر وديونيزوس، من خلال ألعاب عيد الفصح والطقوس الدينية المسيحية؛ لكننا نعرف نحن أيضا اتحاد السامي بالمضحك وبالأشياء المشابهة، امتزاج الشجي بالمثير للسخرية : الشيء الذي قد لن تفهمه الأجيال القادمة.

113. المسيحية، هذا القِدَم.

حين نسمع دقات الأجراس القديمة، صباح الأحد ، نتساءل : أَيُعْقَلُ كل هذا ! من أجل يهودي تم صلبه منذ ألفي سنة وكان يدعي أنه ابن الله. إن الإثبات الذي يحظى به هذا الإدعاء ينقصه البرهان، - مُؤَكَّدٌ أن الديانة المسيحية قدَم ينحدر من ليل العصور حتى قلب عصرنا، والإيمان الذي يحظى به هذا الإثبات المزعوم - و الحال أننا عادة ما نكون صارمين في اختبار الإدعاءات - هو لاشك أقدم جزء من هذا الإرث. إله تلد منه امرأة فانية؛ حكيم ينصح بعدم العمل، بعدم العدل وبمراقبة علامات الساعة الوشيكة؛ عدالة تقبل اعتبار البريء ضحية بالنيابة؛ واحد يأمر أتباعه بشرب دمه؛ صلوات من

أجل حدوث المعجزة؛ خطايا ترتكب في حق إله ويكفر عنها إله؛ الخوف من مَاوَرَاء بَابه الموتُ؛ اتخاذ الصليب كرمز، في عصر لايعرف غاية الصليب ولاخزْيَهُ؛ - أية قشعريرة رُعْبٍ يبعثها فينا كل هذا، كنفثة تنبعث من قَبْرٍ ماضٍ سحيق ! من يصدق أننا لازلنا نؤمن بمثل هذه الأشياء ؟

114. ماهو غير إغريقي في المسيحية.

لم يكن الإغريق يرون الآلهة الهوميروسية أربابا فوقهم، ولا كانوا يرون أنفسهم عبيدا دونها، كما اليهود. لم يكونوا يرون على وجه التقريب سوى صور للنماذج الناجحة في طبقتهم، أي المثل الأعلى لكيانهم، وليس نقيضه. كانوا يشعرون اتجاهها بالقرابة، كانت هناك مصلحة متبادلة، نوع من Symmachie*. يُكَونُ الإنسان فكرة سامية عن نفسه باتخاذه هذه الآلهة،والعلاقة التي تقوم بينهما هي علاقة صغار النبلاء بكبارهم؛ بينما للشعوب الرومانية ديانة المزارعين، يعيشون في خوف مستمر من القوى الماكرة والنزقة، من الأرواح المُعَذِّبَة. هناك حيث تتراجع آلهة الأولمب تكون حياة الإغريق بدورها مُعْتَمَةً وَمُقْلَقَة. - كَانت المسيحية، على العكس، تسحق الإنسان وتنهكه تماما ثم تغرقه في حمأة خثرة؛ وفي خضم إحساسه بالحقارة الكاملة هذا يلمع فجأة شعاع من الرحمة الإلهية فيطلق الإنسان، وقد فاجأته الرحمة وأسكرته، صيحة النشوة، ويعتقد لحظة أنه يملك السماء بين جنبيه. إن الإبتكارات النفسية في المسيحية تسعى إلى هذا الإفراط المرضي في الإحساس، إلى الفساد الكبير الذي يتطلبه من القلب ومن العقل : تريد المسيحية أن تُفْنِي، أن تُنْهِك، أن تُذْهِل، أن تُسْكِر، الشيء الوحيد الذي لاتريده هو الإيقاع، ولذلك نجدها، في لب محاباتها، همجية، أسيوية، نقيضة النبيل والإغريقي.

115. مزية التدين.

هناك أناس مُتَّزِنُون وبارعون في التجارة يحملون دينهم مطرزا كشريطة حاشية الإنسانية المتفوقة : حسنا يفعل هؤلاء بحفاظهم على دينهم وذلك لأنهيُجَمِّلُهُم. - كل الناس الذين لا يتقنون عملا من أعمال الحرب (بما في ذلك حرب الكلمة والقلم) ينتهون بأن يصيروا عبيدا : وهؤلاء تكون الديانة المسيحية مفيدة لهم كثيرا، لأن العبودية تأخذ فيها مظهر فضيلة مسيحية، الشيء الذي يُكْسِبُهَا جمالا رائعا. الناس

* ارتأينا ترجمتها ب : تساوق في التصور .

الذين تبدو لهم حياتهم اليومية فارغة ورتيبة يتحولون إلى الدين بسهولة : إنه شيء يمكن تفهمه والصفح عنه، إلا أنهم لايملكون الحق في أن يتطلبوا التدين من أولئك الذين ليس في حياتهم اليومية لافراغ ولارتابة.

116. المسيحي العادي.

لو أن المسيحية كانت على حق فيما تقوله عن الإله المنتقم، عن الخطيئة العامة، عن الاصطفاء بالمِنَّة وعن خطر العذاب الخالد، لكان من علامات الغباوة وسوء الطبع أن لا يجعل المسيحي من نفسه راهبا، حَوَارِيًا أو ناسكا، وأن لا يعمل على خلاصة فقط في خشية وارتعاش؛ سيكون من الحمق أنَ يُهْمِلَ المنافع الأبدية من أجل الرفاهية المؤقتة. إذا افترضنا أن الإيمان موجود، فإن المسيحي العادي يقوم بدور تافه، إنه إنسان لايعرف العد حتى ثلاثة وهو، فضلا عن ذلك، بسبب غباوته، لايستحق أن يعاقب عقابا صارما مثل الذي تتوعده به المسيحية.

117. عن دقة المسيحية.

إن إحدى مهارات المسيحية هي أن تُعَلِّمَ المرء بصراحة أن الإنسان، بشكل عام، دنيء، غير معصوم، وسافل، بحيث أن ازدراءه لامريء آخر يصير مستحيلا. «مهما يرتكب من خطيئة فإنه لايختلف في جوهره عني : أنا الدنيء والمُزْدَرَى على كل المستويات»، هذا ما يقوله المسيحي لنفسه. لكن هذا الإحساس نفسه حدَّته، لأن المسيحي لايؤمن بسفالته الفردية، إنه خبيث بما هو إنسان، بشكل عام، ويطمئن نفسه قليلا وهو يفترض مايلي : كلنا من طينة واحدة.

118. تغيير الملاك.(Personnel)

بمجرد ما تهيمن ديانة مايصير أعداءً لها أولئك الذين كانوا سيصيرون أتباعا لها. .

119. مصير المسيحية.

لقد تولدت المسيحية من الحاجة إلى مواساة القلب؛ والآن عليها أن تبدأ بإذلال القلب كي تستطيع مواساته فيما بعد. إنها تسير نحوانهيارها .

120. الحُجَّة بدافع المتعة.

يعتبر الرأي الممتع رأيا صحيحا : إنها الحجة بدافع المتعة (أو، كما تعبر عن ذلك الكنيسة، الحجل بدافع القوة) التي تفخر بها كل الديانات كثيرا، والحال أنه عليها أن تخجل منها. لولا أن الإيمان يمنح الغبطة لما آمن أحد : فما أشد ضآلة قيمته إذن !

121. لعبة خطرة.

من يَشْرَعْ باب كيانه ثانية للشعورالديني يجد نفسه مُرْغَمًا على تركه ينمو فيه، لن يملك فعل خلاف ذلك. هكذا سيجد كيانه يتغير تدريجيا، يفسح مكانا متميزا لما يرتبط بالعنصر الديني ويَمُتُّ إليه بصلة، سيجد أفق أحكامه وأحاسيسه وقد تَلَبَّدَ كله بذلك، قد غطاه عبور ظلال دينية. وسوف لن يتوقف ذلك الشعور عند ذلك الحد : فلنحترس إذن.

122. الأتباع العمي.

مادام المعلم يعرف جيدا قوة وضعف عقيدته أو فنه أو دينه فإن ذلك يعني أن سلطانها لايزال ضئيلا. والتابع أوالحَوَاري الذي لا يرى ضعف العقيدة، الدين، إلخ، لأن هيبة المعلم والحب الذي يُكِنُّهُ له قد أعمياه، غالبا ما تكون له بذلك قوة أكبر من قوة المعلم. ولولا هؤلاء الأتباع العمي لما كان لأي إنسان أو لأعماله أي تأثير يذكر. ،العمل على انتصار فكرة ما غالبا ما يعني مايلي : مؤاخاتها مع البلادة بحيث ينتهي الوزن الكبير لهذه الأخيرة بالإنتصار ويسحب رداء نصره على تلك الفكرة.

123. هدم الكنائس.

ليس في العالم من الدين ما يكفي حتى نقضي على الأديان.

124. الإنسان دون خطيئة.

حين نفهم «كيف تولدت الخطيئة»، أي عبر قناة أخطاء العقل التي بسببها يعتبر الناس بعضهم، بل يعتبر الفرد نفسه، أشرارا أكثر مما هم في الواقع، فإننا نشعر بقلبناوقد سُرِّيَ عنه، ويحدث أن يبدو لنا الناس والعالم محاطين بهالة مجد البراءة التي تريحناكثيرا. الإنسان، في حضن الطبيعة، طفل بامتياز. أحيانا يرى هذا الطفل في الحلم كابوسا يزعجه، ولكنه حين يستيقظ يجد نفسه دائما في الجنة.

125. لاتَدَيُّنُ الفنانين.

كان هوميروس يشعر وهو وسط الآلهة، أنه في بيته، وكان، باعتباره شاعرا، يجد متعة في رفقتهم لحد أنه صار في غاية اللاتدين؛ كان يتصرف بما يقدمه له الإعتقاد الشعبي – خرافة حقيرة، فظة ومرعبة في بعض جوانبها – بنفس الحرية التي يتصرف بها نحات الصلصال، إجْمَالاً بنفس الصدق الذي لأسخيلوس وأرسطوفان، والذي تَمَيَّزَ به في العصر الحاضر فنانو النهضة الكبار كما تميز به شكسبير وغوته.

126. الفن وميزة التأويل الخاطىء.

كل كشوفات القديس، مخاوفه، عجزه، انخطافاته، هي حالات مرضية معروفة يفسرها هو، ارتكازا على الأخطاء الدينية والنفسية المتأصلة، بخلاف ذلك، أي باعتبارها أشياء أخرى لأمراضا. - كذلك فإن عفريت سقراط قد يكون مرضا في الأذن يفسره، طبقا لأفكاره الأخلاقية السائدة، بخلاف ما قد نفسره به اليوم. ولايختلف الأمر بخصوص هذيان وجنون رسل الوحي ووسطائه؛ إن ما يجعل منها أشياء كبيرة هي دائمادرجة المعرفة، الخيال، الحماس، الأخلاقية،التي تحرك عقول وقلوب المؤولين. إن إحدى أقوى الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الذين يسمون عباقرة وقديسين هي أن يوجدوا بنفوذهم مُؤَوِّلِينَ لايسمعونهم جيدا، وعدم سماعهم هذا يخدم الإنسانية كثيرا.

127. إجلال الجُنُون.

حين لاحظ الناس أن الإنفعال غالبا ما ينير العقل ويوحي بأفكار جيدة تصوروا أن الإنفعالات القوية تخلق الإلهام والأفكار الجيدة : وهكذا تم إجلال الحكيم ووسيط الوحي في المجنون. هذا استدلال خاطىء من الأساس.

128. وَعْدُ العِلْمِ.

هدف العلم المعاصر هو تخفيف الآلم أشد ما يمكن وإطالة العمر أكثر ما يمكن، - وهو مايعني نوعا من الهناء الخالد، المتواضع جدا مقارنة مع وعود الدين.

129. سَخَاءٌ مُحَرَّم.

ليس هناك في العالم ما يكفي من الحب والطيبة كي يُسْمَحُ لنا ببذل القليل منهما لكائنات خيالية.

130. استمرار الشعائر الدينية في النفس.

كانت الكنيسة الكاثوليكية، وقبلها كل الديانات القديمة، ماهرة في استعمال كل الوسائل الكفيلة بالزج بالأنسان في حالات نفسية غريبة وحرمانه من تقديره الهادىء لمصلحته أو من تفكيره المحض، من عقله. كنيسةٌ تهتز من جراء نوطات خفيضة، تضرعاتُ بهيمةٌ، منتظمةٌ ومتحفظةٌ، تصدر عن زمرة من القساوسة الذين ينقلون لاشعوريا تمجيدهم إلى الجماعة ويجعلونها تنتظر وهي شبه قلقة، كما لو أن معجزةً توشك أن تحدث، قشعريرةٌ تثيرها البنايةُ التي تمتد بشكل غامض وتثيرُ الخوفَ من رؤية

المعبود يتجلى في كل تلك الفضاءات المظلمة، – من سيريد العودة بالناس إلى مثل هذه الإوضاع في الوقت الذي لم يعودوا يؤمنون فيه بكل ما تستلزمه ؟ لكن نتائجها لم تذهب هَدْراً مع ذلك : فالعبادة هي التي تجعل من هذا العالم الداخلي للنفس الموهوبة للسمو، للإنفعال، للاستشعار، للندم الكبير وللآمال الشطحية، تجعل منه آلْهِبَةَ الفطرية لدى الناس؛ وما تبقى في النفس من هذه الهبة، في الوقت الحاضر، قد رَعَتْهُ العبادة مذ كان بذرة حتى نما وأزهر.

131. عقابيل دينية

مهما يبلغ اعتقادنا أننا أقلعنا عن الدين فإنه لن يصل إلى حد عدم الشعور بالمتعة في العثور مجددا على أحاسيس وحالات نفسية دينية لامضمون ثقافي لها، في الموسيقى مثلا؛ حين تقدم لنا فلسفةٌ ما تبريراً للآمال الميتافزيقية ولطمأنينة النفس التامة التي تستطيع أن تشيعها، حين تحدثنا مثلا عن «الإنجيل اليقيني في نظر صور العذراء التي رسمها رافائيل»، فإننا نستقبل مثل هذا الإثبات وهذه البرهنة بحماس شديد : البرهنة سهلة هنا بالنسبة للفيلسوف، إنه ينسجم، بما يريد أن يعطيه، مع قلب مستعد لأن يأخذ. سنسجل بهذا الخصوص أن المفكرين الأحرار، الذين لايميزون كثيرا، لاتثيرهم إلا أركان العقيدة، أما جاذبية الشعور الديني فإنهم يعرفونها جيدا؛ وهم يجدون صعوبة في التخلي عن هذا بسبب تلك.– على الفلسفة العلمية أن تحترس كثيرا من الأخطاء التي قد تُهرِّبُهَا لصالح تلك الحاجة الشهيرة – التي هي مكتسبة و وبالتالي فهي عابرة؛ حتى بعض المناطقة يتحدثون عن «استشعارات» للحقيقة في الأخلاق وفي الفن (مثلا عن استشعار«كون جوهر الأشياء واحد») : وهو شيء كان ينبغي أن يُحَرَّمَ عليهم. بين الحقائق التي تم وضعها بعناية وبين مثل هذه الأشياء «المستشعرة » تظل هناك هاوية لايمكن عبورها، ذلك لأن هذه تعود إلى الفكر، وتلك إلى الحاجة. الجوع لايبرهن وجود على غذاء يشبع الجائع بل على رغبته في ذلك الغذاء. «استشعار»هُ لايعني الاعتراف بوجود شيء ما، أيا تكن درجة هذا الاعتراف، بل وضعه في حكم المحتمل في حدود الرغبة فيه أوخشيته؛ ال«إستشعار» لا يجعلنا نتقدم خطوة واحدة في ميدان اليقين. – وتلقائيا نعتقد أن فصولَ فلسفة يَشُوبُهَا ظلٌّ من الدين مُبَرْهَنٌ عليها أكثر من غيرها؛ لكن العكس هو الصحيح، فقط لَدينا رغبة شديدة في أن يكون الأمر كذلك، – أن يكون مصدر الغبطة حقيقة كذلك. هذه الرغبة هي التي تجرنا إلى اعتبار الحجج الرديئة حججا جيدة.

132. عن الحاجة المسيحية إلى الخلاص.

إن التأمل المتأني لظاهرة الروح المسيحية التي تُسَمَّى الحاجة إلى الخلاص قد يتوصل إلى تفسير خالٍ من الإسطورة، أي تفسير نفسي محض. صحيح أن التفسيرات النفسية للحالات والظواهر الدينية كانت حتى الآن تحظى بسمعة سيئة نظرا لأن فقْهاً يزعم أنه حر كان يقوم باستغلال هذا الميدان؛ لأنه كان منذ البداية يرمي، مثلما يدل على ذلك عقل مؤسسه شلير ماخر، إلى الحفاظ على الديانة المسيحية وإلى خلود فقهاء المسيحية : الذين سيجدون في التحليل النفسي لل «وقائع» الدينية مرسى جديداً، وبالخصوص شغلا جديدا. إن ن لم ندع هؤلاء الأسلاف يُضلونا فقد نجازف بتفسير الظاهرة المشار إليها كما يلي. الإنسان واعٍ بالأعمال التي تقع في المستوى الأدنى من سياق تراتبية الأعمال، بل إنه يكتشف لديه ميلا إلى مثل هذه الأعمال يَبْدو له ثباته أقرب إلى ثبات كيانه هو. كم يَوَد تجريب ذلك الصنف الآخر من الأعمال التي يعتبرها الرأي العام هي الأولى والأسمى، كم يود أن يشعر أنه مفعم براحة الضمير التي تصاحب، على مايقال، فكرا نزيها ! واها، إنه لا يتجاوز عتبة الرغبة؛ يأتي عدم الرضى الناجم عن عجزه عن تلبية تلك الرغبة لينضاف إلى باقي عدم الرضى الذي أثاره لديه حظه في الحياة بشكل عام أو عواقب تلك الأعمال التي يقولون عنها أنها قبائح؛ بحيث ينشأ عنها توعك خطير، ويشرع النظر في البحث عن طبيب يكون قادرا على استئصال هذا المرض وكل أسبابه. – لم يكن الإنسان ليشعر من هذه الحالة بمثل هذه المرارة لو لم يكن ميالا لمقارنة نفسه مع الآخرين : ذلك أنه لن يكون لديه آنداك سبب واحد يجعله لايرضى عن نفسه، وما سيحمله سيكون فقط نصيبه من عدم الرضى ومن النقص الإنسانيين، هذا العبء العالمي. لكنه يقارن نفسه مع كائن هو وحده القادر على القيام بتلك الأعمال المزعوم خلوها من الأنانية، والذي يحْيَ في الوعي الخالد للفكر النزيه، إنه الإله؛ إن النظر في هذه المرآة الصافية هو الذي يجعله يكتشف أنه كائن مضطرب المظهر، ومشوه بشكل غريب. بعد ذلك تقلقه فكرة هذا الكائن نفسه، هذا الكائن الذي يلازم خياله في شكل عدالة انتقامية : إنه في كل حالات حياته، صَغُرَ شأنها أم عَظُمَ، يعتقد أنه يرى غضبه، تهديده، بل يشعر استباقا بضربات المقرعة التي يواجهها بوصفه قاضيا وجلادا. من سينقذه من هذا الخطر الذي، بمنظور مدة طويلة جدا من العذاب، يفوق بفظاعاته كل رعب آخر يصوره الخيال.

133

قبل أن نتمثل العواقب الأخرى لهذه الحالة علينا أن نعترف بأن الإنسان لم يقع فيها نتيجة «خطأ»ه أو «خطيئت»ه، لكن نتيجة سلسلة من أخطاء العقل، وأن نعترف أنه إن

بدا له كيانه غامضا وبغيضا إلى هذا الحد فالخطأ خطأ المرآة، وهذه المرآة كانت من عمله هو، عملا ناقصا من أعمال الخيال والحُكْم الإنسانيين. أولا، إن الكائن القادر فقط على إتيان الأعمال الخالصة من كل أنانية هو كائـن أروع من طائر الفنيق؛ لانستطيع حتى أن نتمثله بوضوح، ولو لمجرد كون مفهوم «العمل النزيه» يتبخر عند الاختيار الدقيق. ماعمل إنسان شيئـا أبدا من أجل الآخرين فقط ودون أي دافـع شخصـي؛ كيف يمكنـه أن يفعل شيئا لاعلاقة لـه به، أي دون لُزُومٍ داخلـي (وهو الذي يقـوم على حـاجة شخصـية) ؟ كيف يمـكن للأنا أن تتـصرف دون أنا ؟ - إن إلها كـله حب، مثلـما يقر النـاس به، لن يستطيع، بالمقابل، أن يأتي عـملا واحدا نزيها؛ يُسْتَحْسَنُ أن نَذْكُرَ بهذا الخصوص فكرة لليشـتنبرغ مأخوذة عـن وسط متواضع : «يسـتحيل علَينـا أن نشعر بدل الأخريـن، كما يقال؛ إننـا لانشعر إلا بأنفـسنا. إنه شيء صـعب حين نسمعـه ، لكنه ليس صـعبا إذا ما فهمـناه جيدا. إننـا لانحب أبا ولا أما ولازوجـة ولا ولداً، إنما نحـب الأحاسيس الطـيبة التـي يمثلونـها بالنـسبة لنـا»، أو كما يقـول لاروشفوكو : «يُخْطِيءُ مـن يظن أنه يـحب عشيقته حُبًّا فيها فقط.» أما فيما يتعلق بسبب اعتبار أفعال الحب أسمى من سواها، ليس بسبب جوهرها بالطبع، لكن بسبب منفـعتها، فإني أُحيلُكُمْ على البحوث السالفة «عن أصل الأحاسيـس الأخلاقية». ومع ذلك، إن أراد إنسـانٌ ما أن يكون كله حبـا مثل هذا الإله، ألا يفعل شيئا ولايريد شيئا لنفسه هو بل لكل الآخرين، فإن ذلك يُعَدُّ مستحيلا لسبب بسيط هو كونه مُجْبَرٌ على أن يعمل الكثير من أجله هو إن أراد أن يستطيع عمل الـقليل مـن أجل الـغيـر. ثـم أن هذا يـفتـرض أن الآخر أنـانـي كفـاية كـي يقـبل هـذه التضحـيات، هذه الحياة التي تـوهب له: بحيث أن الـكائنات المَحبَّة والمُضحية يـفيدها بقاء الأنانيين العاجزين عن الحب والتضحية؛ وأنه على الأخلاقية الأسمى بالضرورة كي تبقى، أن تجبر اللاأخلاقـية على الوجود (وهو ما ستقضي به علـى نفسها). - وأكثر من ذلك : الفكـرة التي لدينا عن إله مـاتقلقنا وتهـيننا مادمنا نـؤمن بها، أما تكونهـا فشيء لايمكـن أن يحـوم حولـه الشـك في الوضـع الحالـي للسلالة المقارنة (L'ethnologie comparée) وبمجرد مـانفهم هذا الـتكوين ينـتهي أمر ذاك الإيمان. يـحدث للمسيحي الذي يُقَارِنُ كيـانه بكيان الإلـه مايقع لدونكـيشوت الذي يقـلل من شأن شجـاعته لأن مايملأ رأسه هـو أبطال روايات الفروسيـة ومآثرهم العظيمـة : القاعدة التي علـى أساسها يُبْنَى القياس في كلتا الحالتين هي الأسطورة. وباختفاء فكرة الإله يختفي الإحساس بال «الخطيـئة»، الإحساس بمخالـفة الوصايا الإلـهية، الإحساس بـتدنيس كائن كَرَّسَ نـفسه للإله. يبـقى آنذاك و لاشك هذا القلـق الذي تمتزج به وتتحـد معه خشية عقـاب العدالة الدنـيوية أو ازدراء الـناس؛ لكـن عذاب النـدم، هذا المنـخس الأكثـر حدة من سـواه في

الإحساس بالخطأ، يَكَلُّ دائما حين نتنبه إلى أننا بأفعالنا قد خرقنا التقليد الإنساني، خرقنا قوانين النظام الإنساني، لكننا أبعد مانكون من أن نجازف ب «خلاص الروح الأبدي» وبعلاقتنا مع المعبود. لو أن الإنسان أفلح في نهاية المُطاف في اكتساب القناعة الفلسفية القائلة باللُّزُومية* المطلقة واللامسؤولية التامة عن كل أفعاله، وأن يتمثلها بلحمه ودمه، فإن آخر بقية من الندم ستختفي هي الأخرى.

134

إذن إن كانت تعض الأخطاء، كما قلنا، هي التي أَضَنَّت المسيحي وقادته إلى احتقار نفسه، أي إلى تفسير خاطىء وغير علمي لأفعاله وأحاسيسه، فيجب عليه أن يلاحظ بكامل الإندهاش أن حالة الاحتقار، حالة الندم، حالة الاشمئزاز بشكل عام، ليست دائمة، وأنه يحدث أن تخلو روحه من كل هذا طيلة ساعات يشعر خلالها بالحرية والإقدام من جديد. إن الذي انتصر، في الواقع، هو سُرُورُ كيانه، ذلك الحُبُورُ الذي يأتيه من قوته، وهما مرتبطان بالتخفيف الضروري لكل انفعال عميق؛ هاهو الإنسان قد عاد إلى حب نفسه،إنه يشعر بذلك، – لكن هذا الحب بالضبط، هذا التقدير الجديد لذاته هما اللذان يبدوان له غير معقولين، إنه يرى فيهما شعاع رحمة لا يستحقه نازلا من أعلى.لئن كان مِنْ قَبْلُ يعتقد أنه يرى في كل ما يحدث له إنذارات، تهديدات، عقابات وعلامات مختلفة تدل على الغضب الإلهي، فإنه الآن يُؤَوِّلُ تجاربه بطريقة تجعله يُضَمِّنُهَا الحلم الإلهي : هذا الحدث يبدو له زاخراً بالحب، وذاك الآخر يبدوا له علامة مسعفة، أما الثالث، خاصة وأن حالته النفسية كلها سرور، فيبدو له دليلا على أن الله غفور. مثلما كان في الأول، أثناء عدم رضاه، يخطىء في تفسير أفعاله بالخصوص، فإنه الآن يفعل نفس الشي ء مما يشعر به بالخصوص؛ إنه يعتبر الثقة التي يشعر بها أثرا لقوة تسود خارجا عنه هو، يرى الحب الذي يكنه لنفسه يكتسي مظهر الحب الإلهي؛ وما يسميه عفوا ومقدمة خلاص هما في الحقيقة عفو وخلاص ينبعان من نفسه.

135

هكذا إذن يكون علمُ نفسٍ خاطىء وطريقةٌ خرافيةٌ في تفسير البواعث وردود الفعل العميقة هما الشرط اللازم لكي يصير المرء مسيحيا ويشعر بالحاجة إلى الخلاص. إذا أدرك المرء جيدا ضلال العقل والخيال هذا فإنه لن يعود مسيحيا.

* يقصد أن الإنسان مسير ، غير مخير ، وغير مسؤول عن أعماله . (المترجم) .

136. عن الزهد والقداسة المسيحيين.

كلما حاول بعض المفكرين المنعزلين جاهدين تقديم ظَاهِرَتِيْ الأخلاقية الاستثنائية التي اعتاد الناس تسميتها بالزهد والقداسة وكأنهما نوع من المعجزة التي يعتبر تسليط نور التفسير العقلي على وجهها تدنيسا وانتهاكا للحرمة، كلما تقوى إغراء هذا الانتهاك. لقد أدى دافع طبيعي قوي، بشكل عام، على مر العصور، إلى الاحتجاج ضد هاتين الظاهرتين.إن العلم، بكونه تقليدا للطبيعة، كما أسلفنا القول، يجيز لنفسه أن يعارض طبعهما الذي يقال أنه غير قابل للتفسير، بل للمقاربة. صحيح أن العلم قلما توفق في ذلك حتى الآن : وتبقى هاتين الظاهرتين غير مُفَسَّرَتَيْنِ، وهو مايرضي كثيرا أولئك الذين يزعمون أنهم معجبون بالخارق في ميدان الأخلاق. إنهم يريدون، حتى نقول ذلك بشكل عام، للذي لم يُفَسَّرْ أن يكون غير قابل للتفسير إطلاقا،و ألا يكون غير القابل للتفسير طبيعيا على الإطلاق، بل فوطبيعيا، مُعْجزاً، - إنه التطلب الذي يملأ نفس كل المتدينين والميتافزيقيين (والفنانين أيضا، حين يكونون مفكرين كذلك)؛ بينما يرى رجل العلم في هذا التطلب «افتراضا غير مناسب». - فالعمومية المعقولة الأولى التي نجدها حين نتأمل الزهد والقداسة هي كون طبيعتهما معقدة : لأنه قد تَمَّ بنجاح في كل الأحوال تقريبا، في عالم المادة كما في عالم الأخلاق، إرجاع الخارق المزعوم إلى تعقد معطىً خاضع لشروط متعددة. لنتجرأ، في البداية على عزل بعض نزوات روح القديسين والزهاد المتفرقة ثم نظهرها، في النهاية، جد متشابكة.

137

هناك تحامل على الذات تتضمن أسمى تجلياته بعض أشكال الزهد. يشعر بعض الناس فعلا بحاجة ملحة إلى تحقيق قوتهم وولعهم بالسيطرة بحيث أنهم ينتهون، إما لعدم وجود ماقد يسيطرون عليه، وإما لكونهم قد فشلوا في ذلك في مكان آخر، بالإستبداد ببعض أطرافهم، بقطاع أو بمستوى من كيانهم إذا صح القول. هكذا يجاهر أكثر من مفكر بآراء لاتساعد فيما يبدو على رفع سمعته أو تحسينها؛ كثير من يعرض نفسه لازدراء الناس، بشكل واضح، والحال أن صمته سيجعله يظل إنسانا محترما؛ وآخرون يتراجعون عن آرائهم السابقة دون خشية التناقض الذي قد يُوصفوا به منذ تلك اللحظة : إنهم، على العكس، يجهدون أنفسهم لِيُوصِفُوا به ويتصرفون مثل أولئك الفرسان المتهورين الذين لايحبون فرسا بالفعل إلا حين يجمح، حين يتصبب عرقا ويثور فجأة. هكذا يتسلق الإنسان الجبال الشاهقة عبر طرق وعرة كي يتحدى خَوْفَهُ وَرُكْبَتَاهُ ترتعشان؛ هكذا يجاهر الفيلسوف بأفكار حول الزهد والتواضع والقداسة التي يشوه

بهَاَؤُهَا وجهه بشكل بشع. إن هدا التمزيق للذات، هذا الاستهزاء بالطبع، هذا الازدراء للذات، الذين أقامت لـهم الأديان وزنا كبيرا، ليسوا، بحصر المعنى، سوى درجة عالية من الغرور.هنا تجد الموعظة فوق الجبل مكانتـها : يجد المرء لذة حقيقة في ممارسة العنف على نفسه بواسطـة متطلبات مفرطة، وفي أن يجعل جزءا غـير محدد من روحه يقدس المطالب الاستبدادية. في كل أخلاق زُهْدِيَة يُشْغَلُ الإنسان بجزء منه وكأنه إله، ولأجل ذلك يحتاج إلى تحويل الجزء الباقي إلى شيطان...

138

من المعـروف أن الإنسان لايكـون أخلاقيا طوال الـوقت؛ إذا حكمنـا على أخلاقـيته حسب قدرته عـلى التفاني في سبيـل رفعة التضحية(الـشيء الذي، إن دام وصار عادة، يكون قداسة)، فإننا نجد أنه يكون أخلاقيا أكثـر في الإنفعال؛ تمنحه هذه الدرجة العالية من الانفعال دوافع جديدة ربما لم يكن ليعتـقد، وعقله هاريء كعادته، أنه قادر عليها. كيـف يحدث ذلك ؟ لاشـك أنه يحـدث بسبب تـقارب كل أشـكال الرفـعة والتهـيج الحاد؛ يمكن للإنسان حين يبلغ درجة فريدة مـن الانخطاف أن يصمم على انتقام مروع كمـا قد يصمـم على سـحق مروع لحـاجته للإنـتقام. عـلى كل حـال، إنه، تحت تأثـير انفعاله الـعنيف، يريد رفعة وعـنفا وفظاعة، وإن ارتأى صدفـة أن التضـحية بنفـسه تمنحه نفـس القدر مـن الرضى الذي تمـنحه إيـاه التضـحية بـالغيـر، أو قدرا أكثر، فـإنه يخـتار التضحيـة بنفسه. إن الأمر، بالنسـبة له، يتعلق فقـط بإفراغ شحنة انفعالـه؛ ومن المحتمل جدا إذاك أن يمسك رماح أعدائه كلها ويغرزها فـي صدره كي يخفف من تهيجه. وقد تطلـب الأمر أن يُرَسِّخَ في ذهن الإنسانـية، عبر تعـود طويل، أن في نكران الـذات رفعة وليس في الانتقام وحده؛ وأن المعبود الذي يضـحي بنفسه هو أقوى رموز هذا النوع من الرفعة وأكثرهـا فعالية. يبدوا هذا التخـلي تفوقا على أَشَدِّ الأعداء استعـصاء على الهزم، وسيطرة تمـت فجأة على انفـعال ما، - وبهذا يعتبر قمة الأخلاق. فـي الواقع، إن الأمر يتعلق هنا بصـورة تحل محل أخرى في الوقت الذي تظل فيه النـفس في مستواها، دون تغير. لم يـعد النـاس يفهـمون أخلاقيـة هاته الـلحظات بعد أن خـاب أملهـم وصاروا يستـريحون من انـفعالهم، لـكن إعجابهـم بالذين عـاشوا معهم تـلك اللحـظات في آن واحد يَسْنُدُهُمْ؛ تـصير الكـبريـاء عزاءهـم حين لايعـود لديـهم لا الإنـفعـال النـاتج عن تصرفهم ولا فَهْمُ هذا التـصرف. إذن فأفعال نكران الذات هاته ليسـت أفعالا أخلاقية، في الواقع، مادامت لاتأخذ الغير بعين الإعتبار؛ بتـعبير أدق، إن الغير يمنح للنفس المتوترة إلى أقصى حد فرصة لتخفيف توترها، بفضل نكران الذات السالف الذكر.

139

يسعى الزاهد، تحت اعتبارات عدة، إلى جعل حياته سهلة، وذلك بخضوعه الكامل لإرادة أجنبية أو لقانون، لطقس تشمله دائرته كلية؛ نوعا ما على طريقة البراهماني الذي لايقرر شيئا هو بنفسه،و في كل مرة يتخذ قرارا بمقتضى وصية مقدسة. يعتبر هذا الخضوع وسيلة ناجعة للإمساك بزمام التحكم في النفس؛ يُشْغَلُ المرء فلا يعرفُ الضجَر ولا تَطَالُه إثارة الإرادة الأنانية والانفعال، فلا يشعر، وقد قام بفعل ما، بأي إحساس بالمسؤولية، ومن ثَمَّ لايُعَذِّبُهُ الندم. لقد تخلى بالمرة عن إرادته الشخصية، وذلك أسهل من التخلي عنها من حين لآخر فقط؛ تماما كما يكون التخلي بالكامل عن رغبة ما أسهل من التزام الحذر. لوتفكرنا في العلاقات الحالية بين المواطن والدولة فسنجد هنا أيضا أن الطاعة المطلقة مريحة أكثر مما هي متلائمة مع الظروف. فالقديس يجعل حياته سهلة إذن بهذا التخلي الكامل عن شخصيته، ويخدع نفسه من يُعْجَبُ في هذه الظاهرة بأثرة أخلاقية منقطعة النظير. على كل حال، إن إثبات الشخصية بلا اضطراب ولاتردد أصعب من التخلص منها بالطريقة السالفة الذكر، زد على ذلك أن هذا يتطلب الكثير من النباهة ومن التفكير.

140

بعد أن اكتشفت في عدد كبير من الفعال التي يصعب تفسيرها أشكالا من لذة الإنفعال من أجل الإنفعال سأرى كذلك في احتقار الذات، الذي يعتبر واحدة من خاصيات القداسة، وكذلك في الآلام التي يعذبون بها أنفسهم (من خلال التجويع والجَلْد، فك أعضاء الجسد، والتظاهر بالجنون)، وسيلة يحارب بها أصحاب هذه الطباع النضوب التام لإرادة الحياة لديهم (نضوبَ أعصابهم)؛ إنهم يلجأون إلى أشد وسائل التهييج والتعذيب إيلاما كي ينبعثوا، على الأقل لمن حين لآخر، من هذا الخمول وهذا الضجر اللذين غالبا ما تغرقهم فيهما بلادة الذهن وذلك الخضوع لقوة أجنبية.

141

الوسيلة التي يلجأ إليها الزاهد والقديس كي يجعلا الحياة مطاقَةً وجذابة رغم كل شيء هي حرب يخوضانها عند الإقتضاء وتتناوب فيها الهزائم والانتصارات. يلزمهم لذلك خصْم، وهم يجدونه في ما يسمونه «العدو الداخلي». أي أنهم يستغلون ميلهم إلى الغرور وتعطشهم إلى المجد والسيطرة، وأيضا شهواتهم الحسية، حتى يتمكنوا من اعتبار حياتهم حربا مستمرة ويعتبروا أنعسهم ميدان حرب تتواجه فيه الأرواح الطيبة

والشياطين بحظوظ مختلفة. الخيال الحسَّوي، مثلما نعلم، يُلَطِّفُهُ، بل يكاد يمحوه، انتظام العلاقات الجنسية وبالعكس فإن العفة أواضطراب العلاقات الجنسية تجعله جامحا وداعرا. لقد كان خيال كثير من القديسين المسيحيين فاحشا بشكل فظيع؛ إنهم حين يخضعون لهذه الشهوات لايشعرون بالمسؤولية كثيرا بمقضى النظرية القائلة أن هذه الشهوات هي عفاريت حقيقية تتسلط عليهم بحدة؛ إننا ندين لهذا الإحساس بالصدق في اعترافاتهم، وهو صدق يفيد الكثير. كان من صالحهم أن يعتمدوا ذلك الصراع بحدة تزيد أوتنقص بما أنه كان يحافظ على حياتهم كما رأينا.وكي يبدو الصداع مهما ويثير العطف والإعجاب الدائمين لدى الآخرين، الذين لا قداسة فيهم، فقد تطلب الأمر التنديد المستمر بالحسوية التي وُصِمَتْ بالهرطقة، بل وذهبوا إلى حد الجمع بين خطر الخلود في الجحيم وبين تلك الأشياء بحيث يبدو شبه حقيقة أن المسيحيين، طيلة قرون بكاملها، قد أنجبوا أبناءهم وهم يشعرون بالذنب، الشيء الذي أساء كثيرا للإنسانية بكل تأكيد. إن مانراه هنا هي الحقيقة مقلوبة : وهو موقف غير لائق خصوصا بشأن الحقيقة. صحيح أن المسيحية قد قالت : كل إنسان يكون الحمل به وولادته خطيئة، و في ذروة مسيحية Calderon التي لا تطاق ضاقت هذه الفكرة والتفت إلى حد أنها جعلته يتجاسر على قول هذه المفارقة العبثية أشد ما تكون، في هذه الأبيات المعروفة :

أكبر أخطاء الإنسان
هي ولادته.

في كل الديانات المتشائمة يتم الشعور بالإنجاب على أنه شيء قبيح في ذاته، لكن هذا الشعور ليس أبدا سمةً من سمات الإنسانية الكبرى؛ حتى حكم المتشائمين بعيد عن تحقيق الإجماع بهذا الشأن. أوُمبْيدُوكْلْ، مثلا، لايرى إطلاقا أنه قد يكون في المسائل الإيروسية شيء مخجل أو شيطاني أوآثم، على العكس، إنه لايرى في مرج الهلاك الأبدي سوى مُنْقذ واحد وأملٍ واحد هي أفروديت*، هي التي تضمن له أن الشقاق لن يسود إلى الأبدً، بل سيسلم الصولجان يوما ما لشيطان غفور. لقد رأينا أن مصلحة المسيحيين المتشائمين الذين يحافظون على الشعائر الدينيةً كانت في أن يظل رأي آخر سائدا؛ كانوا في حاجة، وسط الوحدة واليباب الروحي لحياتهم، إلى عدو يكون دائما نشيطا: إلى عدو معترف به عالميا تُمَكِّنُهُمْ مُحَارَبَتُهُ وسحقه من الظهور دائما بمظهر كائنات فوطبيعية، كائنات يكاد لايفهمها من ليس قديسا. وحين يفر منهم

* إلهة الحب والجمال عند الإغريق

هذا العدو إلى الأبد في نهاية المطاف بسبب صحتهم المدمرة ونوعية الحياة التي يَحْيَوْنَهَا، فإنهم يعرفون كيف يرون في الحين نفسهم تعج بالشياطين. كان تأرجح كفتي الميزان، الكبرياء والتواضع، صعودا وهبوطا يَشْغَلُ عقولهم صاحبةَ الأوهام مثلما كان يشغلها تناوب الرغبة وطمأنينة النفس. لم يكن علم النفس، أثناء هذا العصر، يصلح فقط للشك بخصوص الواقع الإنساني كله، بل كذلك لتحقيره، لجَلْده وَصَلْبه؛ كان الناس يريدون أن يكونوا خبثاء وأشرارا، كانوا يسعون وراء أَزْل (angoisse) خَلاص الروح،وراء اليأس من قوتها. كل شيء طبيعي يربط به الإنسان فكرة الشر والخطيئة (كما هو معتاد بأن يفعله الآن في الميدان الإيروسي) يُضْنِي، يُكَدِّرُ الخيال، يمنح نظرة هاربة، يُدْخِلُ المرء في صراع مع يفسه، يجعله مترددا وحذرا؛ حتى أحلامه يعطيها خُلْفَةَ (arrière - gout) وَعْي مُعَذَّب. غير أن هذه المعانات بسبب الطبيعة لا أساس لها في واقع الأشياء : إنْ هي إلَّا رأيٌ في الأشياء. من السهل اكتشاف لماذا يصير الناس خبثاء أكثر حين يقررون أن حظهم الطبيعي خبيث ،يشعرون به دائما على أنه كذلك. إنه مكر الدين ومكر هؤلاء الميتافزيقيين الذين يريدون للإنسان أن يكون خبيثا وآثما بالطبيعة، مكرهم هو الذي يجعله يشك في هذه الطبيعة ويجعله بذلك شريرا هو نفسه : لأن مَنْ عَدمَ القدرةَ على خلع ثياب الطبيعة يتعلم أن يرى قُوى فوطبيعية كي تُحُرره من هذا الحَمْل؛ وفي نفس الوهلة تظهر على الخشبة تلك الحاجة إلى الخلاص التي تحدثنا عنها، والتي لا تطابق أبدا حالة حقيقية من الخطيئة بل حالة وهمية. لنتصفح واحدةً واحدةً تلك القضايا الأخلاقية التي طرحتها قواعد المسيحية وسنجد دائما أن متطلباتها مبالغ فيها، وذلك حتى لا يتمكن الإنسان من القيام بها؛ إن القصد من ورائها ليس أن يصير الإنسان أخلاقيا أكثر، بل أن يشعر بأنه آثم قدر الإمكان. لو لم يكن هذا الشعور مستساغا من طرف الإنسان فلماذا شَكَّلَ مِثْلَ هذا الخيال وارتبط به طويلا ؟ مثلما تم في العالم القديم إنفاق ثروات هائلة من العقل ومن الابتكار من أجل إنماء متعة الحياة من خلال عبادات كانت عبارة عن أعياد، فإنه قد تم، في عصر المسيحية، التضحية بقدر كبير من الذكاء، لكن من أجل مطمع آخر : كانوا يريدون للإنسان أن يشعر أنه آثم في كل الأحوال وأن يجعله ذلك حيويا، منتعشا، نشيطا. الإحياء والإنتعاش والتنشيط مهما كان الثمن - أليس هذا شأن مرحلة متوترة، مفرطة في النضج وفي التحضر ؟ كانت نفوس الناس قد كلت من فرط ما جابت حلقة كل الأحاسيس الطبيعية : لذلك ابتكر القديس والزاهد نوعا جديدا من المثيرات الحيوية. لقد عَرَضَا نفسيهما أمام كل الأنظار، ليس لكي يكونا فعلا نموذجا يحتذى بالنسبة للعدد الكبير من الناس، بل ليكونا مشهدا مريعا وممتعا في ذات الوقت يتم تمثيله داخل حدود

هذا العالم وماورائه الذي كان كل واحد يعتقد، في ذلك الوقت، أنه يرى فيه تارةً بارقةً خالدة من الهناء، وتارة أخرى ألسنةً من اللهب ترمي بها الهاوية. إن عين القديس المركزة على الدلالة المريعة لهذا الوجود القصير على الأرض، على حتمية يوم الحساب الذي سَيُقَرِّرُ الفضاءات اللانهائية لحياة أخرى، هذه العين المحتضرُ تَوَقُّدُهَا في جسد يكاد يكون أثَراً بعد عين قد ارتعش منها أناس العالم القديم أشد ما يكون؛ المجازفة بإلقاء نظرة، تحويل النظر مع الإرتعاش من الرعب، الشعور من جديد بجاذبية المشهد، التملي به في الوقت الذي ترتعش فيه النفس من النشاط والانفعال الباردين - تلك كانت آخر متعة ابتكرها القدَمُ حين فَقَدَ هو الآخر إحساسه بمشهد مصارعات الحيوان والإنسان.

142

مجمل القول أن هذه الحالة النفسية التي يتمتع بها القديس، سواء كان متمرسا أومبتدءً، تتكون من عناصر نعرفها جيدا، إلا أنها، تحت تأثير أفكار أخرى غير الأفكار الدينية، تظهر بأشكال مخالفة وتستوجب بالتأكيد ذم الناس الذين كانت تستطيع، بهذه الزركشة الدينية، بهذا الفهم النهائي للوجود، أن تعتمد على إعجابهم واحترامهم، - على الأقل كانت تعتمد عليهم في ذلك في الماضي. كان القديس تارة يمارس هذا التحامل هلى الذات الذي يقترب كثيرا من التلهف على السيطرة، والذي يمنح إحساسا بالقوة حتى لمن هو وحيد، وتارة أخرى كان شعوره الفياض يقفز من الرغبة في إطلاق العنان لأهوائه إلى الرغبة في ثني ركبتها، وكأنها أفراس وحشية، تحت الضغط القوي لنفس فخورة، تارة يتطلب توقفا كاملا لكل الأحاسيس المزعجة، المعذِّبة، المهيِّجة، يتطلب نوما يقظا، استراحة طويلة في حضن لامبالاة كئيبة، لامبالاة الحيوان والنبات، وتارة أخرى يسعى إلى القتال ويضرم ناره في داخله لأن الضجر ينقل إليه تَثَاؤُبَهُ : هذا الأنا الذي تحداه يسلمه لمقارع احتقار الذات وفظاعاته، يستمتع بجُموح شهواته، بألم الخطيئة الحاد، بل حتى بتصور هلاكه، يملك في نصب الفخاخ لشغفه، كشغف الحاجة الملحة إلى السيطرة التي ستؤدي به إلى الحاجة الملحة للتواضع بحيث تجد روحه المنهكة نفسها متصدعة بفعل هذا التناقض؛ في نهاية المطاف، إن كان يطمح في رؤى، في لقاءات مع الأحياء أو مع كائنات سماوية، فإنه في الواقع يرغب في نوع نادر من اللذة، وقد تكون هي ذتها هناك حيث تتشابك اللذات الأخرى كلها مجتمعة. يكشف نوفاليس (Novalis) ، الذي يعتبر مرجعا في ميدان القداسة، وذلك بسبب تجربته وفطرته، يكشف السر بفرحة ساذجة : « من المدهش أن اتحاد اللذة والدين والفظاظة لم يجذب منذ زمن طويل انتباه الناس إلى تقاربها الكبير وإلى نزوعها المشترك.»

143

إن ما يضفي على القديس قيمة في تاريخ العالم ليس ماهو بل ما يعنيه بالنسبة للآخرين، لغير القديسين. لقد أخطأ الناس بشأنه، فسرّوا حالاته النفسية بشكل خاطىء وأبعدوه عن أنفسهم قدر الإمكان معتبرين إياه ظاهرة لامثيل لها إطلاقا وذات طبيعة غريبة، فوإنسانية : لكن هذا بالضبط هو ما منحه تلك القوة الخارقة التي مكنته من الاستحواذ على خيال عصور وشعوب بأكملها. لم يكن هو يعرف نفسه، كان يفهم أسلوب أمزجته وميوله وفعاله من خلال فن غريب ومصطنع في التفسير، مثل التفسير الروحي(pneumatique) للإنجيل. كان الجانب المزيف والمَرَضي من طبيعته، رفقة مزيج من البؤس الثقافي، من المعرفة التافهة، من الصحة المريضة، ومن الأعصاب المهيَّجة، كان محجوبا عنه وكذا عن الناظرين إليه. لم يكن إنسان طيبا بشكل خاص، وكان أقل حكمة بالخصوص : لكنه كان يدل على شيء من المفترض أنه يتجاوز حدود ما يعرف الناس في الطيبة والحكمة. كان الإيمان به يَسْنُدُ الإيمان بالشيء السماوي والمعجز، بالمعنى الديني لكل وجود، بحتمية يوم الحساب. لقد اتخذت صورة ظل القديس، تحت البريق الغروبي لشمس نهاية العالم التي كانت تسطع على الشعوب المسيحية، أبعادا هائلة : لقد كبرت قيمتها إلى حد أنه لايزال هناك الآن، في عصرنا الذي لم يعد يؤمن بالإله، مفكرون يؤمنون بالقديس.

.144

من المسَلَّمِ به أننا نستطيع أن نعارض صورة القديس هذه المرسومة وفق متوسط النوع البشري كله بصورة أخرى ستترك انطباعا أفضل ولاشك. لكن بعض الاستثناءات من الجنس البشري تظهر هنا وهناك، سواء بدافع رقة شديدة وحب كبير للناس، أو بسحر طاقة نادرة : بعض الاستثناءات الأخرى فاتنة للغاية لأن بعض الخيالات الهاذية تفيض عليها سيولا من النور، كما هو الحال مثلا مع من جاء بالمسيحية، وهو الذي كان يعتبر نفسه ابن الإله ويشعر من جراء ذلك أنه لا إثم عليه؛ بحيث أن الخرافة – سوف لن نصدر في حقها حكما قاسيا، فالقِدَمُ يعج بأبناء الآلهة – مكنته من بلوغ نفس الهدف، ذلك الإحساس بالبراءة التامة، باللامسؤولية الكاملة، التي يَضْمَنُهَا العلم اليوم لكل واحد. – لقد أهملت قديسي الهند الذين يحتلون مرتبة وسطا بين القديس المسيحي والفيلسوف الإغريقي، وبالتالي لايشكلون نموذجا خالصا : المعرفة، العلم – إن كان هناك علم – ، التسامي على الناس الآخرين بفضل الانضباط والتكوين المنطقيين للفكر، تلك أمارة القداسة التي كانت تُشتَرطُ لدى البوذيين، بينما نرى هذه الميزات مُبْعَدَةً وملعونة في العالم المسيحي باعتبارها علامات الزندقة.

الكتاب الرابع

عن روح الفنانين والكتاب

145. كون الاتقان يفلت من الصيرورة.

لقد تعودنا على عدم التساؤل، أمام كل شيء متقن، عن تكوينه، وعلى الاستمتاع بوجوده كما لو أنه انبثق من الأرض بضربة عصا سحرية. من المحتمل أننا لانزال نكابد آثار انفعال ميثولوجي قديم. لانزال تقريبا نحس بنفس الشعور (مثلا داخل معبد إغريقي مثل معبد باستوم) كما لو أن إلها شيد بكل يسر سكناه بتلك الأحجار الضخمة ذات صباح جميل؛ أو، أحيانا أخرى، كما لو أن روحا وجدت نفسها، بفعل سحر مفاجيء، حبيسة حجر وهي الآن تحاول أن تجعله ينطق باسمها. الفنان يعرف أنه لن يكون لعمله التأثير الكامل إلا إذا جعل المتلقي يعتقد أن فيه شيئا من الإرتجال، أن ظهوره للوجود لا يخلو من معجزة بسبب فجاءته، لن يفوته كذلك أن يسهم في هذا الوهم وأن يُدْخِلَ في الفن، في بداية الإبداع، عناصر الإثارة المُلْهَمَة، عناصر الفوضى التي تخبط خبط عشواء، عناصر الحُلم المتيقظ، كل الحِيَل الخداعة الهادفة إلى تهييء روح المشاهد أو السامع بحيث تعتقد في انبثاق مفاجيء للإتقان. - إن علم الفن، وهذا شيء مسلم به، يجب أن يعارض هذا الوهم بكل الوضوح الممكن ويوضح عُجْبَ الفكر ومغالطاته المنطقية التي بموجبها يقع في فخ الفنان.

146. معنى الحقيقة لدى الفنان.

حين يتعلق الأمر بمعرفة الحقائق فإن سلوك الفنان يكون أضعف من سلوك المفكر؛ إنه يرفض رفضاً باتا أن تُنْتَزَعَ منه رموز الحياة الناصعة والعميقة ويقاوم كل المناهج، كل النتائج المجردة والساطعة. إنه يقاوم، على مايبدو، من أجل رفع كرامة الإنسان وقيمتة؛ في الواقع، إنه لايريد التخلي عن المُسَلَّمَاتِ التي تضمن أفضل آثار فنه، مثل الغرائبي، الأساطير، الضبابية، الأطراف(extrêmes)؛ إنه يولي إذن أهمية لدوام نوع نشاطه

الإبداعي أكثر مما يوليها لـلتفاني العلمي في خدمة الحقيقة في كل أشـكالها، مهما يكن المظهر الذي تظهر به بسيطا.

147. الفن المستحضِر للموتى.

يضطلع الفن، عرضيا، بمهمة الحفاظ هنـا وهناك على بعض الأفكار الآيلة للإنطفاء، البـاهتة، وكذلـك بمهمة إحيائهـا. وحين يتخـلص من هـذه المهمة يـجدل رباطا يـضم مختلـف العصور، ويبعـث روحها من جديد. مـن المؤكد أن ذلك الإنبعـاث لايعدو أن يكون ظاهـرا من الحياة، كـظاهر القبر، أو كعـودة الأموات في الحلم، لكـن الإحساس القديم تدب فـيه الحياة من جديد لبـعض الوقت على الأقل ويـعود القلب لينبـض بإيقاع منسي بقية الوقت. لاينبغي لنا إذن أن نَضْغَنَ علـى الفنان نفسه، بسبب هذا النفع العام للأدب، إن لم يكن في مقدمة من ينيرون العقل وسط إنسانية تترجل تدريجيا : لقد ظل طفلا أو مراهقا طيلـة حياته وتأخر عند الوضع الذي فاجأته عليـه غريزته كفنان؛ والحال أن أحاسيس المـرحلة الأولى من الحيـاة، مثلما نعلـم ذلك، أقرب إلى أحاسيـس العصور الماضية منه إلى أحاسـيس العصر الحاضر. إنه سيلفي نفسـه، دون أن يشاء ذلك، مكلفا برد الإنسانية إلى طفولتها؛ ثمة مجده، وثمة أقصى مداه كذلك.

148. حين يُلَطِّفُ الشعراء الحياة.

حين يـريد الشعـراء أن يُلَطِّفُوا حياة النـاس فإنهـم إما يحولـون الأنظار عن الحـاضر المعذَّب وأمـا يَضْفُونَ على هذا الحـاضر ألوانا جديـدة بمساعدة ضـوء يجعلـونه يُشعُّ من عمق الماضي. ولكي يقدروا على ذلك يلزمهم أن يـكونوا هم أنفسهم بعيدين عن الناس الذين ينظرون إلى الماضي بحيث سيمكنهم أن يَكُونُوا جُسُورَ رَبْطٍ مع العصور والأفكار الغابـرة، مع الأديان والحضـارات المحتضرة أو الميتة. بحـصر المعنـى، إنهم دائمـا ولزوما وارثون.هناك بـالطبع أشياء غـير مؤاتية يمكن قـولها بشأن وسائلهم في تلطـيف الحياة : إنهم لا يُهَدِّءُونَ الآلام ولايشفونها إلا في تلك اللحـظة فقط؛ بل إنهم يمنعون الناس من العمل على تحسين فـعلي لوضعهم، وذلك بقتلهم، بواسطة الـتفريغات المُخَفِّفَةِ، لإنفعال غير الراضين الذين يدفعون إلى الفعل.

149. سهم الجمال البطيء.

إن أسمى أنواع الجمال ليـس هو ذاك الذي يفتننا على الفور، الـذي تكون مداهماته لنا قـوية ومسكـرة (فهذا النوع يـثير الإشمئـزاز بسهولـة)، بل الذي يتسـلل إلينـا ببطء، نحمـله معنـا ونحن لانكاد نـشعر به، ويتـفق لنا يـوما أن نجده ثانيـة في حلمـنا، والذي

ينتهي، بعد أن يشغل مكانة متواضعة في قلبنا لمدة طويلة، بأن يَتَمَلَّكَنَا بأكملنا، بأن يملأ بالدمع مآقينا، بأن يملأ هذا القلب حنينا. - وماذاك الحنين الذي تبعثه رؤية الجمال؟ إنه حنين أحدنا إلى أن يكون جميلا : نتصور أن قدرا كبيرا من السعادة يرتبط بذلك. - ألا إن ذلك خطأ.

150. منبع روح الفن.

يَشْمُخُ الفن حيثما يتقهقر الدين. إنه يستعيد طائفة من الأحاسيس ومن الحالات النفسية التي خلقها الدين، يفتح لها قلبه ويبلغ بها أعماقا جديدة وفيضا روحيا يجعلانه قادرا على إشاعة السُّمُوِّ والإلهام، وهو ما لم يكن يدري كيف يقوم به فيما قبل. الآن وقد أصبح ثراء الأحاسيس الدينية نهرا من فرط تناميه فإنه لايفتأ يطفح ويسعى لغزو ممالك جديدة؛ إلا أنَّ تقدم المعارف قد زعزع أركان الدين وبعث في الناس ارتيابا جذريا : وإذْ تَطْرُدُ المعارفُ الإحساسَ من المجال الديني يرتمي في أحضان الفن، وكذلك في أحضان الحياة السياسية في بعض الحالات، لابل في أحضان العلم مباشرة. حيثما أدركنا في طموحات الإنسانية ظلا خفيفا من القلق السامي أمكننا أن نفترض أنها ظلت مُشْرَبَةً برعب شبحي، برائحة البخور، وبظلال الكنيسة.

151. البحر الشعري والتجميل.

يسدل البحر [من بحور الشعر] حجابا على الواقع، يفسح المجال لمكر اللغة ولتشويش الفكر. بسبب الظل الذي يلقيه على الفكرة فإنه تارة يخفي المعنى وتارة أخرى يبْرِزُهُ. مثلما يلزم شيء من الظل للتجميل كذلك يلزم شيء من «الغموض» للتدقيق. يجعل الفن مشهد الحياة مطاقا بتغطيته بحجاب الفكر المشوش هذا.

152. في النفس الذميمة.

يضع الناس للفن حدودا ضيقة جدا حين يتطلبون منه أن يعبر فقط عن النفس السوية، المتزنة أخلاقيا. تماما كما في الفنون الجميلة هناك في الموسيقى والشعر فن النفس الذميمة جنبا إلى جنب مع فن النفس الجميلة، وربما يكون هذا الفن هو الذي تَفَوَّقَ في خلق أقوى آثار الفن التي هي تحطيم النفوس، تحريك الأحجار، جعل الحيوانات بشرا.

153. الفن يُحْزِنُ قلب المفكر.

ماهي قوة الحاجة الميتافزيقية، وماهي الصعوبات التي تجدها الطبيعة في آخر لحظة من لحظات افتراقها معها، يمكننا أن نتنبه إلى ذلك من خلال كون أسمى آثار الفن لاتزال

بسهولة تثير في العقل الحر نفسه، والحال أنه قد تخلص من كل ميتافيزيقا، صدى هذا الوتر الميتافيزيقي الصامت منذ أمد طويل، لابل المُمَزَّق، كما في بعض مقاطع السمفونية التاسعة لبتهوفن حيث يشعر بأنه يحلق فوق الأرض وسط كاتدرائية من النجوم، وفي قلبه حُلْمٌ بالخلود : تبدو له كل هذه النجوم مشعة من حوله، وتبدو له الأرض هاوية إلى الأسفل بلا توقف. - لو أنه تنبه إلى تلك الحالة لشعر بحزن عميق في قلبه ولتأوه من أجل الإنسان الذي سيرد إليه معشوقته الضائعة، سواء أسميناها دينا أو ميتافزيقا. إن مثل هاته اللحظات هي التي تمتحن طبعه العقلي.

154. اللعب مع الحياة.

كانت خفة وطيش التخيل الهوميروسي لازمة لضبط نفس الإغريق المفرطة الشغف وذكائهم الحاد وحفظ توازنهما لحظة. إذا تركوا ذكاءهم يتحدث فكم يكون مظهر الحياة فظا وقاسيا! إنهم لاينخدعون، وإذا ما نسجوا حول الحياة حجابا من الكذب فإنهم يفعلون ذلك عن قصد. كان سيمونيد ينصح مواطنيه بالتعامل مع الحياة وكأنها لعبة؛ لقد كانوا يعرفون حقيقة المعاناة غاية المعرفة (بؤس الناس هو بالضبط الموضوع الذي كانت الآلهة تحب سماعه في التراتيل)، وكانوا يعرفون أن الفن هو الوسيلة الوحيدة القادرة على تحويل البؤس نفسه إلى متعة. لكنهم،عقابا لهم على هذه المعرفة الكبيرة، كانوا يتعذبون بسبب حاجتهم إلى نسج الروايات لدرجة أنه صَعُبَ عليهم، في حياتهم اليومية، أن يحافظوا على أنفسهم طاهرين من الكذب ومن التصنع. كل الشعوب الشاعرة تجد مثل هذه اللذة في الكذب ولا تفقد بذلك أدنى ذرة من براءتها. أما الشعوب المجاورة، بالطبع، فكانت تجد ذلك شيئا محزنا في بعض الأحيان.

155. الإيمان بالإلهام.

للفنانين بعض المصلحة في أن يؤمن الناس بحدسهم المفاجيء وبإلهامهم المزعوم، كما لو كانت فكرة العمل الفني، فكرة القصيدة، الفكرة الأساسية في فلسفة ما شُعَاعَ فَضْلٍ يهبط من السماء. في الواقع، إن خيال الفنان الجيد، أو المفكر، لايكف عن الإنتاج الجيد ،البين بين والرديء،لكن حُكْمَهُ المشحوذ والمدرب، يرفض وينتقي وينسق. إننا نرى اليوم،من خلال دفاتر بتهوفن، أنه قد نَظَمَ أروع ألحانه بالتدريج، مستخرجا إياها تقريبا من عدة مسودات. أما الأقل صرامة في اختياره، والذي يعتمد طواعية على ذاكرته المكررة، فقد يصير، عند الاقتضاء، مُرْتَجِلًا كبيرا؛ لكن ما أدنى مستوى الإرتجال الفني بالنسبة إلى فكرة العمل الفني التي تُخْتَارُ بعد عناء وجد. كل العظماء كانوا

يعملون كثيرا، لايكل لهم عزم حين يتعلق الأمر بالإبتكار، بل كذلك بالرفض، بالتنقيح، بالترتيب.

156. الإلهام مرة أخرى.

حين تكون الطاقة الإبداعية قد تراكمت لبعض الوقت، لأن عَائقاً مامنع تصريفها، فإنها في نهاية الأمر تنصرف في سيل مفاجيء كما لو أن إلهاما مباشرا حصل دون أن يكون هناك عمل داخلي قبلي، أي أنه قد حصلت معجزة . هذا هو الوهم الشهير الذي يهتم كل الفنانين، كما رأينا، بالحفاظ عليه. إن رأس المال قد تراكم فقط، ولم يسقط من السماء فجأة.هناك، فضلا عن ذلك، إلهام واضح، من نفس النوع ، في مواضيع أخرى، كما في ميدان الطيبة والفضيلة والرذيلة.

157. معاناة العبقري وقيمتها.

يريد العبقري الفنان أن يخلق الفرحة، لكنه حين يبلغ مستوى راقيا لا يجد الناس قادرين على الإستمتاع بتلك الفرحة؛ إنه يقدم غذاء لكن لا أحد يقبل عليه. هذا ما يضفي عليه في بعض الأحيان شَجواً مؤثرا ومثيرا للسخرية في آن واحد، لأنه لايملك الحق في إرغام الناس على السرور. شَبَّابَتُهُ تعزف ولكن لا أحد يرغب في الرقص : أيكون هذا مأساويا؟ ربما. إنه في نهاية المطاف، وكتعويض عن هذا الحرمان، يجد في الإبداع متعة أكثر من التي يجدها بقية الناس في الأنشطة الأخرى. إنه يبالغ في إحساسه بالمعاناة،وذلك لكون نبرة شكواه مرتفعة، ولسانه فصيح؛ ويحدث أحيانا أن تكون معاناته كبيرة فعلا، وذلك لكون طموحه ورغبته كبيرين جدا. إن عبقريا في ميدان المعرفة، مثل كبلر أو سبينوزا، عادة مالايكون متطلبا جدا، ولايثير صخبا حول معاناته وحرمانه الكبيرين في الواقع. يمكنه فعلا أن يعتمد على الأجيال الآتية بيقين كبير ويولي ظهره للحاضر، بينما الفنان الذي يفعل ذلك إنما يراهن على شيء ميؤوس منه وسينتهي بكل تأكيد بإصابة قلبه بحزن كبير. هناك حالات نادرة – حين تجتمع في نفس الفرد العبقرية الفنية والمعرفية والعبقرية الأخلاقية – ينضاف فيها إلى هذه المعاناة نوع من المعاناة يليق أن نعتبره الاستثناء الأكثر فرادة في العالم : يتعلق الأمر بالمشاعر التي تتجاوز الشخص، التي تتوجه إلى شعب ما، إلى الإنسانية، إلى مجموع الحضارة، إلى كل كائن يعاني؛ تستمد هذه المشاعر قيمتها من اتحادها بمعارف عزيزة المنال (قلما تكون للشفقة قيمة في ذاتها). لكن أي معيار وأي قسطاس يوجد لقياس صدقها؟ ألا ينبغي، إجمالا، أن نشك في كل من يَدَّعُونَ أن لهم هم أيضا مشاعر من هذا الطراز؟

158. لعنة العظمة.

ماظهرت العظمة إلا وتلاها الانحطاط، خاصة في المجال الفني. الشخصية تدفع المغرورين إلى التقليد السطحي أو إلى المزايدة؛ كل ذوي المواهب العظيمة لهم، بالإضافة إلى ذلك، ذلك الجانب القاتل الذي يَخْنُقُ كثيرا من القوى ومن الرشيمات الضعيفة ويخلق حولهم،على هذا النحو، فراغا في الطبيعة. الحالة الملائمة في تطور فَنٍّ ماهي تعايش عدد من العبقريات في احترام متبادل؛ إنه صراع يُسْمَحُ فيه عادة لذوي الطباع الضعيفة والرقيقة بحظ قليل من الهواء ومن النور.

159. الفن، خطر على الفنان.

حين يستحوذ الفن بقوة على شخص ما فإنه يعود به إلى تصورات العصر الذي كان فيه الفن يزدهر بحيوية كبيرة، إنه إذن يمارس عملية نُكُوصيَّة. كل يوم يزداد تبجيل الفنان للإنفعالات العنيفة، يؤمن بالآلهة والشياطين، يرى في كل مكان من الطبيعة روحا، يبغض العلم، لايستقر طبعه على حال، كما كان الناس في القدَمَ، ويطالب بتغيير كل الأوضاع التي لاتلائم الفن، يطلب ذلك بعنف الأطفال وَعسْفِهِمْ. والحال أن الفنان يكون، بالنسبة للفن، قد صار كائنا متخلفا،بما أنه يتشبث باللَّعب الذي هو شأن الطفولة والشباب : وإلى ذلك ينضاف هذا التطور النكوصي البطيء الذي يعود به إلى أزمنة أخرى. هكذا ينتهي الأمر بأن تنشأ خصومة شديدة بينه وبين معاصريه من نفس السن، ومُحْزِنَةً تكون نهايَتُهُ. بهذا الشكل، حسب روايات الأقدمين، أنهى هوميروس وأسخيلوس حياتهما وماتا كئيبين.

160. طباع مبتكرة.

حين نقول أن المسرحي (والفنان عموما) يخلق طباعا بالفعل، فإن ذلك يكون وهما جميلا ومبالغة، ومن خلال إيجاده وإشاعته [أي الوهم] يحتفل الفن زيادة، إذا صح القول، بواحد من انتصاراته غير المرغوبة. بتعميم سطحي حين ننسب إليه الطبع كذا : وهذا الموقف الناقص جدا الذي نقفه إزاء الإنسان هو الذي يتخذه المؤلف حين يخطط (وهو بهذا المعنى «خلق») لكائنات سطحية تماما مثل سطحية معرفتنا بالناس. هناك تمويه كبير في هذه الطباع التي يخلقها الفنانون، إنها ليست من الإنسان في شيء، وينقصها العمق كثيرا، مثلها مثل الصور المرسومة، لاتتحمل أن تُرى عن قرب. إننا نخطىء خطأ فادحا إذا قلنا أن طبع الإنسان يتناقض كثيرا في خضم الحياة اليومية وأن ذاك الذي ابتكره المسرحي هو النموذج الذي كانت الطبيعة تنوي خلقه. الإنسان

الحقيقي لأزمٌ من أقصاه إلى أقصاه (حتى في هذه التناقضات المزعومة)، لكننا لاندرك دائما هذا اللزوم. الشخصية المبتكَرَة، هذا الشبح، تزعم أنها تدل على شيء لازم، ويكون ذلك فقط بالنسبة للناس الذين لا يفهمون الإنسان الحقيقي إلا من خلال تبسيط فظ ومضاد للطبيعة : بحيث أن بعض الخطوط المضغوطة والمكرَّرة في الغالب، مع كثير من الضوء من أعلى وكثير من الظل والظُّلَيْل من الجوانب، تستجيب لمتطلباتهم. إنهم إذن على أتم استعداد للتعامل مع الشبح وكأنه كائن حقيقي ولازم، وذلك لأنهم اعتادوا أن يخلطوا بين خيال الظل، بين اختزال تعسفي،و بين الإنسان الحقيقي بأكمله، – أما بخصوص الرسام والنحات فإن دعم كونهم يعبرون عن «فكرة» الإنسان هو خيال وهلوسة لاطائل فيهما : إن العين تستبد بنا حين نقول مثل هذه الأشياء، فهي لاترى من جسد الإنسان إلا الظاهر، أي الجلد، والفكرة تشمل باطن الجسد كذلك. تريد الفنون الجميلة أن تصور طباعا على مستوى الجلد؛ وفن اللغة يستخدم الكلمات لنفس الغرض، إنه يعطي صورة الطبع من خلال الأصوات. إن نقطة انطلاق الفن هي الجهل الطبيعي بباطن الإنسان (جسدا وطبعا) : وليس الأمر كذلك بالنسبة للأطباء والفلاسفة.

161. الثقة بالفنانين والفلاسفة مبالغة في تقدير الذات.

إننا نتصور أن تأثير العمل الفني وتأثير الفنان فينا وَهَزَّهمَا لكياننا إثبات لقيمتهما. لكن ينبغي أولا أن نثبت قيمة حكمنا وإحساسنا : والأمر خلاف ذلك. هل هناك، في ميدان الفنون الجميلة، من بهر الناس وفتنهم أكثر من برنان (Bernin) الذي ترك آثارا أقوى من ذلك الخطيب، حسب ما يرويه ديموستين، الذي أشاع الأسلوب الأسيوي وجعل منه حُجَّةً لمدة قرنين من الزمان؟ لكن هذه الحجة الممتدة قرونا بأكملها لاتثبت أي شيء فيما يخص ميزة أسلوب ما وقيمته الدائمة؛ ولا ينبغي كذلك أن نكون جد واثقين من الثقة التي تضعها في أي فنان كان : لأنها لاتقتضي فقط الإيمان بصدق إحساسنا بل كذلك بعصمة حُكْمنَا، والحال أن هذا الحكم أو هذا الإحساس أو كلاهما معاً قد يكون طبعهما شديد الغلظة أو الرقة، قد يكونان بالغي الرهافة أو بدائيان. إن النعم والغبطة التي تُسْبغُهَا فلسفة أو دينٌ ما لا تثبتان شيئا هما الأخريان فيما يخص حقيقتهما : تماما مثل كون السعادة التي يتمتع بها المُسْتَلَب بفعل فكرته المتسلطة لا تبرهن إطلاقا على أن هذه الفكرة توافق العقل.

162. الغرور في إجلال العبقري.

بما أننا نحسن الظن بأنفسنا، ولكن دون أن نذهب إلى حد انتظار رسمنا للخطوط الأولى لإحدى لوحات رفائيل أو لكتابة مشهد يشبه مشهدا في إحدى مسرحيات شكسبير المأساتية، فإننا نقنع أنفسنا بأن مثل هذه الملكات مصدرها أعجوبة تتجاوز المتوسط بكثير، بأنها صُدْفَةٌ نادرة جدا، أو بأنها، إن كانت لاتزال فينا بقية من تَدَيُّن، نعمة إلهية. هكذا فإن غرورنا وحبنا لذواتنا هما اللذان يدفعاننا إلى إجلال العبقري : لأنه علينا أن نتخيله بعيدا عنا بُعْداً كبيرا، نتصوره معجزة حقيقية، حتى لايلحقنا منه أذى، (حتى غوته، الرجل الذي لايَحْسَدُ أحدا، كان يُسَمِّي شكسبير نجمة الأقاصي، وإننا نذكر هذا البيت : «هي النجوم لانشتهيها»). إن نشاط العبقري، بصرف النظر عن إيحاءات غرورنا، لا يبدو في جوهره شيئا مختلفا عن نشاط المُبْتَكِر الميكانيكي، أو عالم الفلك، أو عالم التاريخ، أو البارع في الإحتراب. كل هذه النشاطات قابلة للتفسير إذا نحن تمثلنا رجالا يعمل فكرهم في اتجاه واحد، رجالا يجعلون من كل شيء مادة لهم، يراقبون دائما بنفس الذكاء حياتهم الداخلية وحياة الآخرين، في كل مكان يَرَوْنَ نماذج وما يحرض على العمل، ولا يكلون من تنسيق أدواتهم. ما يفعله العبقري هو تَعَلُّمَ كيف يضع الأحجار ثم كيف يبني، هو البحث الدائم عن مواد البناء ثم الاشتغال عليها. كل نشاط يقوم به الإنسان هو آية في التعقيد، وليس نشاط العبقري فقط : لكن لايشكل أي منهما «معجزة». – فما مصدر هذا الإعتقاد إذن بأن الفنان والخطيب والفيلسوف هم وحدهم العباقرة؟ بأنهم وحدهم يملكون ملكة ال «حدس» ؟ (وهو ما يعني تخصيصهم بمنظار صغير عجيب يسمح لهم بالرؤية المباشرة داخل ال«كينونة» !) جلي أن الناس لايتحدثون عن العبقرية إلا حيثما يشعرون بمتعة أكبر في حضرة آثار ذَكَاءٍ كبير، ومن جهة أخرى، حيثما لايريدون الشعور بالحسد. القول عن شخص ما أنه «سماوي» يعني : «هنا، لامجال للمنافسة». شيء آخر : إننا نبدي إعجابنا بكل شيء تام ومكتمل، ونقلل من قيمة كل شيء هو في طريق الإنجاز. والحال أنه لاأحد يستطيع أن يرى في عمل الفنان كيف تم إنجازه؛ ثمة امتيازه، لأنه حيثما أمكننا مشاهدة تَكَوُّنِ شيءٍ ما فإن نوعا من الفتور يصيبنا. إن فَنَّ التعبيرِ الكَامِلِ الإنجاز يستبعد كل فكرة بخصوص الصيرورة، إنه استبداد الكمال الذي نحن في حضرته. لهذا يعتبر فنانو التعبير بالخصوص، وليس رجال العلم، عباقرة. في الواقع، إن هذا التقدير وهذا الحط من القيمة ليسا سوى صبيانية يمارسها العقل.

163. وعْيٌ حِرَفي.

لاتحدثوني عن المواهب الطبيعية، عن المواهب الفطرية ! إذ يمكننا أن نَذْكُر، في كل المجالات، عظماء كانت موهبتهم ضعيفة. لكن العظمة أتت إليهم، جعلوا من أنفسهم «عباقرة» (كما يقال)، بفضل بعض الخاصيات التي لايود أحد كشف نقصها حين يكون واعيا بذلك. كان لديهم كلهم ذلك الوعي الحِرَفي الذي يبدأ بتعلم إتقان الأجزاء قبل المجازفة بالقيام بعمل شمولي كبير؛ كانوا يَتَأَنَّوْنَ لأنهم كانوا يجدون متعة في إتقان صنع الجزء المُتَمِّم، أكثر مما يجدونها في الأثر الذي يحدثه كُلٌّ بَرَّاقٌ. من السهل، مثلا، أن نصف لشخص ما كيف يصير كَاتِبَ قصة، لكن تنفيذ ذلك يتطلب مهارات نتغاضى عنها حين نقول : «ليست لي موهبة كافية.» لنكتب مائة مشروع قصة أو أكثر، دون أن يتعدى أي منها صفحتين اثنتين، لكنه يكون من الدقة بمكان بحيث لايمكن الاستغناء عن أية كلمة من كلماته؛ لنسجل كل يوم بعض النوادر إلى أن نجد لها الشكل الأخاذ والفعال، لا نَكَلَّنَّ من جمع ورسم طباع ونماذج إنسانية، لانُضَيِّعَنَّ بالخصوص أية فرصة لنحكي ونسمع الآخرين يحكون، والعين والآذان متنبهتان لأثر ذلك على الآخرين، لنسافر كما رسام الطبيعة، كما مصمم الأزياء، لنستخلص من علْمٍ إِثْرَ علْم، حين يُعْرَضُ بشكل جيد، أثراً كأثر الفن، لنفكر، في نهاية المطاف، في بواعثَ فعالَ الإنسانية، ولا نحقرن منها أية إشارة قد تفيدنا، ولنجمع الأشياء من هذا النوع ليل نهار. سندع عقْداً من الزمن ينصرم ونحن نكرر هذه العمليات، وسيُمكن لما سَنُبْدِعُهُ آنذاك في المحْتَرَف أن يظهر في الشارع في واضحة النهار. - لكن، كيف تفعل الأغلَبية ذلك؟ عوض أن يبدأوا بالجزء يباشرون الكل. قد يتفق أن يحالفهم الحظ مرة، أن يثيروا الإهتام، وبعد ذلك سيصير عملهم من سيء إلى أسوأ لأسباب معقولة و طبيعية. - أحيانا، حين لا يكون هناك ذكاء ولاطبع لرسم خطة حياة فنية من هذا الطراز، فإن القدر واللزوم يتكلفان عوضا عنهما بقيادة البارع المستقبلي، خطوة خطوة، عبر كل المراحل التي تتطلبها مهنته.

164. إجلال العبقري، المخاطر والمزايا.

يرتبط الإيمان بمفكرين متفوقين وخصبين بشكل متكرر، وإن لم يكن بالضرورة، بالخرافة الدينية كليا أو جزئيا، الخرافة التي تقول بأن أصل هؤلاء المفكرين فوإنساني وأنهم يتوفرون على بعض المَلَكَات الخارقة التي بفضلها يكتسبون معارفهم عبر طرق تختلف تماما عن طرق بقية الناس. يرى الناس أن لهم نظرا ينفُذ مباشرة إلى جوهر العالم كما لو من ثقبٍ في معطف الظاهر، ويعتقدونهم قادرين، دون أن يتحملوا عناء

العلم ويجربوا دقته، على أن يُبْلغونا، بوسطة هـذا النظر التنبؤي الخارق، بحقائق أساسية ونهائيـة بشأن الإنسان والعالم. مـا دامت المعجزة في مجـال المعرفة تلقى من يـؤمن بها فإننا ربما سنسلم بأن الـذين يؤمنون بها يجنون منها بعض النفع، مـادام هؤلاء، بتبعيتهم اللامشروطة للـمفكرين، يضعون عقلـهم، أثناء تطوره، في أفضل مدرسـة وأفضل نظام وُجِدَا على الإطـلاق. بالمقابل، من المـشكوك فيه أن تـكون خرافة امتـيازاتها وملكـاتها الخاصة، ذات نـفع بالنـسبة للعـبقري نفـسه حين تنـشأ لديه. إن قشـعريرة الرعـب التي تستولـي على الكائن البشـري حين يواجه نفسه تُعـتبر أمارة سيئة علـى كل حال، سواء تعلق الأمر بالرعـب المقدس الشهير لدى القياصرة أو برعـب العبقري الذي هو موضوعنا هنا، وأمارة سيئة هي تلك اللحظة التي تتسرب فيها رائحة القرابين التي لا تقدم إلا لإله إلى مخ العبقري بحيث يبدأ يترنح ويعتبـر نفسه كائنا فوإنسانيا. ومع مرور الزمن تكون عواقبه : الشعور بعدم المـسؤولية وبامتلاك حقوق استثنائية، اليـقين بأن مُعاشرَته وحدها نعمة يَمُنُّ بـها، ويصيبه غضب جـنوني عند أدنى محـاولة لمقارنته بالآخريـن أو اعتباره أدنى منهم، وكذلك عـند كشف مواضع الفشل في عمله. بمجـرد مايكف عن ممارسة النقـد الذاتي تتساقـط القوادم من ريشه الـواحدة تلو الأخرى؛ وتـتأكل الخرافة السـالفة الذكـر قُوَّتَهُ حتـى جذورهـا، وربما تجعل منه منـافقـا حين تخـونه تـلك الـقوة . حـتى المفكـرون من صالحهم ولاشـك أن يُكَوِّنُوا فكرة واضحة عـن قوتهم وعن أصـلها، وأن يدركوا إجـمالا تلك المزايا الإنـسانية المحضة الـتي اجتمعـت لهم، والمصادفات المـوافقة التي انضافت إليها : إذن هناك لديهم، من جهة، طاقة مستمرة، إقدام متعدد الأغراض، شجاعـة شخصية كبـيرة، وزيادة على ذلك هـناك حظ التعـليم الذي وُفِّرَ لهـم، بـشكل مبـكر، أفضـل الأساتذة، أفـضل النـماذج، وأفضل المناهج. إن كـانوا بالـطبع يـرومون إحداث أكبر أثر ممكن فإن جهلهم بأنفسهـم وَهِبَةَ شبه الجنون المجانية كانا دائما يتركان أثرا خـارقا، وذلك لأن النـاس، على مـر العصور، قـد أبدوا إعجـابهم ب، وحسـدوهم على، تلك القـوة التي بفضلها يلغـون إرادة الناس ويجرونهـم إلى الوهـم الـكبير بأن أدلة فوطبيعيين هم الذين يقودونهم. بل إن اعتقاد الناس أن شخصا مايملك قوى خارقة يُعتبر مصدر انتشاء وتحمس : بهذا المعنى يكـون الجنون، كما قال أفلاطون، قد جلب للناس أكبر النعم.– ومن المحتمل كذلك أن تـكون ذرة الجنون هذه، في بعض الحالات النادرة والمعزولة، هي الوسيلة التي مكنت من الحـفاظ على وحدة بعض هذه الطباع المنتشرة في كل الأقاصي : حتى في حياة الأفراد غالبا ماتـكون للأفكار الجنونية قيمة العلاجات الـتي إن تـفرقـت صارت سـموما؛ ورغـم ذلـك فإن الـسم، فـي كل «عـبقـري» يؤمـن بسماويتـه، ينتهي بالظهـور كلما تقدم ال «عبقـري» في السن : نتذكر نابـوليون، مثلا،

الذي مزج طبعُه إيمانه بنفسه وبنجمه بازدراء الناس الذي كان ينجم عن ذلك، وذلك حتى يسمو إلى هذه الوحدة القوية التي تميزه عن سائر الشخصيات المعاصرة، إلى أن جاء اليوم الذي تحول فيه ذلك الإيمان نفسه إلى قدرية شبه مجنونة وجرّد نظرته من كل توقدها ونفاذها ثم كان في النهاية سبب هلاكه.

165. العبقرية والعجز.

من بين الفنانين، يكون ذوو العقول الأصيلة الذين يبدعون بتلقائية هم من قد لاينتجون، عند الإقتضاء، سوى هذر ولغو كلام، بينما ذوو الطباع الأقل حرية، الموهوبون، كما يسمونهم، تكو ذاكرتهم دائما مليئة بأكبر قدر من الأشياء الجميلة وتنتج شيئا لابأس به حتى في لحظات ضعفها. لكن إذا كانت العقول الأصيلة تخذل نفسها فإن الذاكرة لن تسعفها بأي شكل من الأشكال : إنها عقول تزهر ولاتثمر.

166. الجمهور.

كل ما يطلبه الجمهور من المأساة هو أن تؤثر فيه إلى حد جعله يذرف نهائيا كل ما لديه من دموع. على العكس من ذلك، فالفنان الذي يذهب لمشاهدة المأساة الجديدة يجد متعة في الإبتكارات التقنية والأساليب الماهرة، في تناول المادة وتوزيعها، في الطريقة الجديدة التي وظفت بها بواعث وأفكار قديمة. إنه ينظر إلى العمل الفني من زاوية جمالية،زاوية المبدع. النظرة التي أشرنا إليها في البداية، الباحثة عن منفعتها الشخصية في المأساة، هي نظرة عامة الناس. أما الإنسان الذي في مووقع بين الإثنين، فلا شيء يقال عنه، إنه ليس عامة الناس وليس فنانا، ولا يعرف ما يريد : كما أن متعته غامضة وبين بين.

167. التربية الفنية للجمهور.

حين لاتتم معالجة نفس الموضوع مرات عديدة من طرف مختلف المتضلعين فيه فإن الجمهور لايتعلم أن يتجاوز اهتمامه بمادة الموضوع، لكنه سينتهي هو الآخر بأن يدرك الفروق والابتكارات الدقيقة والجديدة في معالجة الموضوع وبأن يتذوقها حين يعرف هذا الموضوع مدة طويلة من خلال التعديلات العديدة التي تدخل عليه، ولن تعود جاذبية الجدة أو جاذبية الفضول هي ما يثير إحساسه.

168. على الفنان وجمهوره السير بنفس الخطى .

يحب أن يكون المرور من مستوى أسلوبي معين إلى مستوى آخر بطيئا حتى يتمكن المستمعون والمشاهدون، وليس الفنانون فقط، من مسايرة هذا التقدم ومعرفة ما يجري.

وإلا فإن هاوية فجائية تُفتح بين الفنان، الذي يبدع أعماله في برج عاجي، وبين الجمهور الذي أصبح عاجزا عن الارتفاع إلى هذا البرج وينتهي، بالرغم عنه، بالتردي أسفل لأنه حين لا يرفع الفنان جمهوره فإن هذا الجمهور يتردى بسرعة، ويكون ترديه عميقا وخطيرا بقدر ما يكون العلو الذي رفعه إليه عبقري ما، مثل النسر الذي تطلق مخالبه سلحفاة مرفوعة إلى عنان السماء.

169. أصل الهزلي.

إذا اعتبرنا أن الإنسان كان طيلة مآت الألفيات حيوانا يتملكه الخوف، وأن كل مباغته وكل حدث غير متوقع يدفعه إلى التهيؤ للقتال، وربما للموت، وأنه حتى فيما بعد، في إطار النظام الإجتماعي، كان أمنه كله يقوم على المتوقَّع، تحدار (tradition) الأفكار والنشاطات، فإننا لن نندهش لكون كل مباغتة، كل كلمة أو حركة غير متوقعة، مهما تكن خالية من الخطر ومن الأذى، تثير لدى الإنسان انبساطا فيشعر آنذاك بعكس الخشية : ينبسط الكائن المتوقِع والمرتعش خوفا، وينشرح تماما، - يضحك الإنسان. هذا المرور من خشية عابرة إلى مرح قصير الأمد هو ما نسميه الهزلي. في ظاهرة المأساوي، على العكس، يمر الإنسان بسرعة من مرح كبير ودائم إلى خشية كبيرة، لكن بما أن هذا المرح الكبير والدائم أشد ندرة لدى الناس من بواعث الخشية، فإن هناك في العالم من الهزلي أكثر مما فيه من المأساوي، يضحك الناس أكثر مما ينفعلون بكثير.

170. طموح الفنان.

كان الفنانون الإغريق، فنانو التراجيديا مثلا، يبدعون كي ينتصروا، لم يكن ممكنا تصور فنهم دون مساعدة : فإيريس (**Eris**) هزيود*، أي الطموح، هي التي كانت تمنح عبقريتهم أجنحة تحلق بها. والحال أن هذا الطموح يتطلب، فوق كل شيء، أن يرتفع عملهم إلى أقصى درجات الكمال في نظرهم، الكمال مثلما كانوا يتصورونه هم دون أن يأخذوا بعين الاعتبار لا الذوق السائد ولا الرأي العام بخصوص ما يجعل العمل الفني ممتازا؛ وهكذا ظل أسخيلوس ويوربيدس زمنا طويلا دون تحقيق أي نجاح قبل أن يكونوا في نهاية الأمر حكاما قدروا أعمالهم حسب القواعد التي كانوا يطبقونها هم أنفسهم. وهكذا إذن يطمحون إلى الإنتصار على منافسيهم طبقا لتقديرهم هم، أمام محكمتهم هم،إنهم يريدون أن يكونوا كاملين فعلا، وإذاك يطلبون من الخارج

* هزيود : (ق 8 ق . م) شاعر يوناني يعرف ب : أبي الشعر اليوناني التعليمي . (المورد)

(dehors) أن يوافق على تقديرهم، أن يؤكد حكمهم. الطموح إلى المجد يعني هنا «التفوق وتمني أن يظهر ذلك للملأ». إن عدم تفوق المرء ورغبته رغم ذلك في مايلي التفوق يُعد غرورا. أما إن كانت الرغبة هي ما ينقصه، دون أن يندم عليها، فذاك كبرياء.

171. اللزوم في العمل الفني.

يبالغ الناس الذين يتحدثون كثيرا عن اللزوم في العمل الفني، فالفنانون يبالغون بدافع الرغبة في المجد الفني، والجاهلون بأصول الفن يبالغون بسبب الجهل، إن أشكال العمل الفني، التي توفر لأفكاره وسيلةللتعبير عن نفسها، والتي هي إذن طريقته في التعبير، يكون فيها دائما بعض الإختيار، مثل سائر أشكال التعبير. يستطيع النحات أن يضيف أو يحذف قدرا من اللمسات الخفيفة : كذلك المؤدي، سواء تعلق الأمر بممثل أو، فيما يخص الموسيقى،بعازف ماهر أو برئيس الجوقة. كل هذه اللمسات و التنقيحات تعجبه اليوم،وفي الغد لاتعجبه، إنها هناك من أجل الفنان لا من أجل الفن،لأن الإلتزام بالدقة وبالمجهود اللذين يتطلبهما منه التعبير عن فكرته العظيمة يجعله في حاجة إلى كبنة (biscuit) ولُعب هنا وهناك حتى لا ينفرمن العمل.

172. تجاوز الأستاذ.

يكون عازف البيان، الذي يعزف عملا موسيقيا ألفه أستاذ ما،قد عزف أفضل ما يمكن إن إستطاع أن يجعلنا ننسى أستاذه ويوهمنا بأنه يروي حدثا من أحداث حياته أو أنه يعيش آنذاك لحظة عظيمة. أما إن كان عازفا لا شأن له فإن الكل ولاشك سيلعن ثرثرته عن حياته. عليه إذن أن يعرف كيف يغري خيال المستمع. هذا ما يفسر كل نقائص وشذوذ «المهارة في العزف».

173. إصلاح الحظ.

تعرف الحياة فنانين كبارا تقابلهم صُدف محزنة ترغم الرسام مثلا على أن لايخطط من أهم لوحاته سوى فكرة هاربة، أو، لكي يضرب مثلا آخر ترغم بتهوفن على أن لايترك لنا من عدة سوناتات عظيمة (كسوناتةSi majeur) سوى اختصارات غير كافية تُعزف سمفونية على البيان. وعلى الفنان الذي يأتي من بعد أن يحاول إصلاح حياة العظماء بعد فوات الأوان : هذا ما سيفعله مثلا ذاك الذي، بكونه بارعا في مستلزمات التجويق الموسيقي، سيبعث الحياة من جديد في تلك السمفونية التي ترقد رقدة الموت خطأ في رمس البيان.

174. تصغير.

كثير من الأشياء والأحداث والأشخاص لايطيقون أن نعاملهم بأدنى مما يستحقون. لانستطيع تصغير بناية كاهن أبولون لتصير في حجم آنية مزخرفة، فَكِبَرُ الحجم شيء لازم لها. ومن النادر جدا أن يطيق شيء صغير أصلا أن يتحول إلى شيء كبير ، لذلك سيكون نجاح كُتاب السيَر في تصغير عظيم أيسر من نجاحهم في تعظيم صغير.

175. الحِسّوية في فن العصر الحاضر.

غالبا ما يخطىء الفنانون اليوم حين يرومون التأثير بأعمالهم في الحواس : لأنه لم يعد لدى مستمعيهم ومشاهديهم فيض الإحساس الذي كان ولا يمرون من العمل الفني، خلافا لنوايا الفنان إلا ليصلوا إلى «قدسية» انفعالهم القريبة جدا من الضجر. – تبدأ حسويتهم،ربما، بالضبط حيث تنتهي حسوية الفنان، إنهما تلتقيان، على أكثر تقدير، في نقطة واحدة.

176. شكسبير أخلاقي.

لقد تأمل شكسبير الإنفعالات كثيرا، كما أن طبعه قد قَرَّبَهُ منها كثيرا (غالبا ما يكون المسرحيون سيئي الطبع). وبما أنه لم يعرف كيف يثرثر بشأنها، كما فعل مونتيني (Montaigne)، فقد وضع ملاحظاته بخصوصها على لسان شخصياته المنفعلة : وهو شيء مناقض للطبيعة ولاريب، لكنه يجعل مسرحياته مفعمة بثروة فكرية إلى حد تبدو معه المسرحيات الأخرى وكأنه لا فكر فيها، وما أسهل ما تثير نفورا شاملا. – إن جُمل شيلر (التي تكاد دائما ترتكز على أفكار خاطئة أو تافهة) هي بالضبط جمُل مسرحية، وبما هي كذلك فإن تأثيرها يكون بليغا : بينما جمل شكسبير تُشَرِّفُ نموذجه، الذي هو مونتيني، وتخفي في طيات شكلها الذرب أفكارا بسيطة جدا. لكن الجمهور يراها، نتيجة لذلك، بعيدة جدا ونحيلة، إنها إذن لاتؤثر فيه.

177. التموضع على مدى الأذن.

لايكفي أن نجيد العزف، بل يجب أن نتموضع على مدى الآذان. لن نسمع من الكمان، وهو بين يدي أمهر العازفين، سوى كُرِنْ كرن، إذا كانت القاعة فسيحة جدا؛ وقد لانميز حينها الأستاذ من أي عازف رديء.

178. الآثار الأكيدة للعمل غير التام.

مثلما يكون للصور الناتئة تأثير كبير على الخيال بسبب ظهورها وكأن شيئا ما أمسك بها فجأة أثناء خروجها من الحائط فتسمرت في مكانها : كذلك فإن العرض غير

الكامل، كمـا لو كان ناتئا، لفكرة مـا أولفلسفة بأكملـها، يكون أحيانا أكثر فـعالية من عرضها من الألف إلى الياء : إننا بذلك ندع لنظر القارىء مجالا أكبر للفعل، نحثه على متابعة تطوير ما يـبرز أمامه في خضم الظل والنور، على إتمام الفكـرة والتغلب على ذلك العائق الذي كان يعرقل بُروزها بشكل كامل حتى ذلك الحين.

179. ضد الأصلاء.

حين يرتدي الفن قماشا رثا ندرك أفضل ما يكون الإدراك أنه فن.

180. فكر جمعي.

لايملك الكاتب الجيد فكره هو فقط بل فكر أصدقائه كذلك.

181. نوعان من الإنكار.

إن سوء حظ الكتاب الثاقبين والواضحين هو كون القارىء يجدهم مُسَطَّحِينَ، ومن ثمة لايتكلف أي عناء لفهمهم؛ وحظ الكتاب الغامضين هو كون القارىء يجهد نفسه قدر الإمكان ليفهمهم ويعزو إليهم المتعة التي مصدرها مجهوده هو.

182. العلاقة مع العلم.

كل أولئك الذين لايتحـمسون للعلم إلا حين يقومون فيه باكـتشاف مَا لايهتمون به اهتماما فعليا.

183. المفتاح.

إن كانت الفكرة التي تثير ضحكَ وسخرية قـليلي الذكاء تصير ذات قيمة كبيرة في نظر إنسـان نابغة فذلك لأنها، بـالنسبة له، مفتـاح كنوز مَخْفِيَة، وبالنسبة لـهم هي جزء خردة قديم لاغير.

184. غير قابل للترجمة.

ليس أفضل ما في الكتاب ولا أسوأ ما فيه هو ما لايقبل الترجمة.

185. مفارقات المؤلف.

مفارقات المؤلف المزعومـة التي تثير حنق القارىء غالبا مالا تـكون في كتاب المؤلف وإنما في رأس القارىء.

186. نباهة.

المؤلفون الشديد و النباهة يثيرون أشد الابتسامات خُفية.

187. النقيضة.

النقيضة هي الباب الضيقة التي يجد الخطأ متعة في التسلل منها إلى الحقيقة.

188. أسلوب المفكرين.

أغلب المفكرين لايحسنون الكتابة لأنهم لايكتفون بإطلاعنا على أفكارهم وحدها بل كذلك على تفكيرهم فيها.

189. الأفكار في القصيدة.

يجعل الشاعر أفكاره تتقدم على ظهر عربة الإيقاع في شكل احتفالي : ذلك لأنها لاتمشي على أرجلها عادة.

190. ذنب في حق نباهة القارىء.

حين يناقض أحد المؤلفين موهبته فقط لأجل أن يكون في مستوى القارىء فإنه يرتكب الخطيئة الوحيدة التي لن يغفرها له هذا القارىء أبدا : إذا افترضنا، بالطبع، أنه قد تنبه لذلك قليلا. يمكننا إجمالا أن نغتاب الإنسان ما استطعنا ذلك : لكن يجب أن نعرف، من طريقة الاغتياب، كيف نجعل غرورنا ينتصب من جديد.

191. حدود الصدق.

حتى أكثر الكتاب صدقا تفلت منه كلمة زائدة حين يريد أن يعظم مرحلة ما.

192. أفضل المؤلفين.

أفضل المؤلفين هو ذلك الذي يخجل من أن يتحول إلى أديب.

193. قانون جائر ضد الكُتاب.

ينبغي لنا أن نعامل الكاتب وكأنه مجرم لايستحق إخلاء سبيله أو العفو عنه إلا في حالات نادرة جدا : سيكون ذلك علاجا ناجعا لتكاثر الكتب.

194.مهرجو الثقافة المعاصرة.

يعتبر مهرجو البلاط في العصر الوسيط نظراء لكتاب الروايات المسلسلة في عصرنا، إنهم رجال من نفس الصنف، نصف عاقلين، فكهون، مفرطون، مرحون، لايحضرون

أحيانا إلا لكي يُلَطفوا شجو النفوس ببعض الالتماعات وشيء من الثرثرة ويغطوا بصراخهم على صخب الأجراس واحتفاليتها أثناء الأحداث العظيمة؛ فيما مضى كانوا في خدمة الأمراء والنبلاء، هم اليوم في خدمة الأحزاب (صحيح أنه لايزال هناك قدر كبير من خضوع الشعب للأمير اليوم في التحزب وفي نظام الأحزاب). والحال أن الأدباء المعاصرين يقتربون كثيرا من كتاب الروايات المسلسلة، إنهم «مهرجو الثقافة المعاصرة» الذين سنحاكمهم بتسامح كبير، وذلك بعدم اعتبارهم مسؤولية كاملة. إن النظر إلى نشاط الكاتب على أنه مهنة يجب أن نعتبره، بكل إنصاف، نوعا من الجنون.

195. على غرار الإغريق.

هناك حاليا عائق كبير أمام تقدم المعرفة، ذلك أن المبالغة في الإحساس، والتي تستمر منذ مائة سنة، لم تترك سوى كلمات منتفخة ومتكلِّفة. إن الدرجة العالية من الثقافة التي تسيطر عليها (إن لم تكن تستبد بها) المعرفة تحتاج للعودة إلى بساطة كبيرة في الإحساس، بساطة تكون متجانسة بفضل تركيز قوي لكل الكلمات؛ وقد سبَقنا الإغريق في هذا زمن ديموستين. تعتبر المغالاةُ سمة كل الكتب الحديثة، وحتى حين تكون قد كتبت ببساطة فإن الإحساس بالكلماَت فيها يكون غريبا. العلاج هو دقة التفكير، الإيجاز، الفتور، العري، حتى وإن تم الدفع به عن قصد إلى الحد الأدنى، باختصار، التحفظ في الإحساس، والاقتضابية، - ليس هناك علاج غيره. الحاصل أن هذه الطريقة الفاترة في الكتابة والإحساس جذابة جدا في أيامنا هذه، بشكل مفارق : وفي ذلك خطر بكل تأكيد. لأن هذا الفتور القاطع مُهَيِّج تماما مثله مثل الحرارة المرتفعة.

196. الرواة الجيدون مُربون فاشلون.

غالبا ما تكون لدى الرواة الجيدين ضمانة، دقة نفسية تثير الإعجاب مادامت قادرة على التمظهر في ما تقوم به شخصيات رواياتهم، لكنها تُناقض بشكل مثير للسخرية بلاهةَ تأملهم النفسي : إلى حد أن مستوى ثقافتهم يبدو في لحظة ما رفيعا ورائعا، وفي اللحظة التالية يبدو متدنيا ومثيرا للشفقة. وكثيرا مانراهم يفسرون أبطالهم والأفعال التي يأتونها تفسيراً خاطئا بشكل جلي، - لاريب أنهم مربون فاشلون، مهما بدا ذلك مُستْبْعداً. من المحتمل أن يكون عازف بيان كبير قلما فكر في الشروط التقنية، في الفضائَل، في الرذائل، في احتمالات الاستعمال والتربية الخاصتين بكل أصبع (أخلاق تفعيلية)، وحين أراد التحدث عن تلك الأشياء ارتكب أخطاء فادحة.

197. المشتغلون بالمعرفة، كتبهم، قراؤهم.

إننا نقرأ قراءة مزدوجة كتب الأشخاص الذين نعرفهم (أصدقاء كانوا أم أعداء) مادامت هذه المعرفة لاتفتأ تهمس بالقرب منا : «هذا عمل يمت إليه بصلة، هذه سمة مميزة لطبيعته الخالدة، لأعظم اللحظات في حياته، لموهبته»، ونوع آخر من المعرفة يسعى بالموازاة إلى تحديد المردود الباطن لهذا العمل، تحديد الاعتبار الذي يستحقه هو لذاته مستقلا عن مؤلفه، تحديد مدى إثرائه لمعرفتنا. غني عن القول أن هذين النوعين من القراءة ومن التقويم يضايقان بعضهما. إن محاورة صديق لصديقه لن تنضج ثمار المعرفة إلا إذا نسيا أنها صديقين وَقَصرا تفكيرهما على موضوع الحوار وحده.

198. التضحية بالإيقاع.

يُقْدِمُ بعض الكتاب الجيدين على تغيير إيقاع مرحلةمن مراحل تطورهم لسبب وحيد وفريد هو كونهم لايظنون القراء العاديين قادرين على فهم بحر الشعر الذي كان سائدا أثناء تلك المرحلة في صيغتها الأولى : فهم إذن يسهلون عليهم الأمر بتفضيلهم بعض الإيقاعات المعروفة أكثر. إن هذا التراجع أمام العجز الإيقاعي لدى القراء قد أثار الحسرة في نفس أكثر من كاتب لأنه قد تخلى عن أشياء كثيرة من قبل. – ألن يصدق ذلك على بعض الموسيقيين الجيدين؟

199. إغراء العمل الفني غير التام.

غالبا ما يكون أثر العمل غير التام أكثر من أثر العمل التام، خصوصا في المديح : إنه يحتاج، كي يبلغ غرضه، إلى سحر العمل غير التام، ذلك العنصر الامعقول الذي كأنه يُغْرِي بالبحر خيالَ المستمع ويحجب، كما الضباب، الشاطىء المقابل، أي حدود الشخص الذي يتعلق الأمر بمدحه. حين نَعُد المزايا المعروفة لدى شخص ما دون أن نخشى الاسترسال في الجزئيات فإننا دائما نثير الشك حول كونها مزاياه الوحيدة والفريدة. إن مدح شخص ما مدحا كاملا يعني الإرتفاع فوق الإنسان الذي نمدحه حتى ليكاد العلو يُغَيِّبُهُ عن الأنظار. لذلك يكون إتمام العمل إضعافا له.

200. الكتابة والتعليم يتطلبان الحذر.

الذي يتعاطى الكتابة ويحس بشغفها لايتعلم من كل ما يقوم به أو يشعر به تقريبا سوى ما يمكن إيصاله للآخرين بطريقة أدبية. إنه لايعود يفكر في نفسه بل في الكاتب وجمهوره، يريد أن تكون له آراء عميقة، لكن ليس ليستعملها هو شخصيا. الذي

يُدَرس يكون أغلب الوقت عاجزا عن التصرف الشخصي من أجل مصلحته، إنه دائما يفكر في مصلحة مريديه، ولايجد المتعة في أية معرفة إلا إذا كان سيُلَقنُهَا لـهم. إنه ينتهي بأن ينظر إلى نفسه كَمَعْبَرٍ للمعرفة، وإجمالا كمحض وسيلة، حتى أن جديته بخصوص نفسه لايعود لها وجود.

201 . ضرورة الكتاب الردئيين.

من الضروري أن يكون دائما هناك كتاب رديئون، لأنهم يرضون ذوق الأجيال الناشئة التي لم تنضج بعد، هؤلاء أيضا لهم حاجياتهم تماما مثل الآخرين الناضجين. لو أن حياة الإنسان كانت أطول لكان عدد الأفراد الناضجين يفوق، أو على الأقل يساوي، عدد الأفراد غير الناضجين، وبما هي عليه الآن فإن الناس يموتون شبابا في أغلب الأحيان، أي أن أغلبية الناس هم دائما ناقصوا الذكاء ذوو الذوق الرديء. وهم يطالبون زيادة على ذلك، بكل ما أوتو من قوة الشباب، بإرضاء حاجياتهم ويُوجِدُون بالقوة كتابا رديئين يخدمونهم.

202. قريب جدا وبعيد جدا.

يحدث أن لايتفاهم القارىء والمؤلف لأن المؤلف يعرف موضوعا ما معرفة جيدة ويجده شبه ممل حتى إنه يوفر على نفسه الأمثلة التي يعرف منها المئآت، أما القارىء فغريب عن الموضوع ويكاد يرى أن كل أسبابه غير معقولة حين يحرمه من الأمثلة.

203 . تهيؤ الفن الذي كان.

من بين كل كنا نقوم به في الثانوية كان التدرب على الأسلوب اللاتيني أغلى شيء : كان تمرينا فنيا بالضبط، بينما كان الغرض من كل المواد الأخرى هو المعرفة. إن إعطاء الإنشاء باللغة الألمانية المقام الأول يعتبر همجية، لأنه ليس لدينا أسلوب ألماني نموذجي على مستوى الفصاحة الشائعة. أما إن شئنا استخدام الإنشاء باللغة الألمانية لتشجيع التدريب على التفكير فسيكون من الأفضل، بكل تأكيد، أن نترك منه الأسلوب جانبا، في الوقت الراهن، إذن أن نميز بين التدريب على التفكير والتدريب على التعبير . هذا الأخير يُعْنَى بالطرق المتعددة في التطرق لمادةما، وليس الابتكار الشخصي لمادة ما. كان عرض موضوع مُعْطى يشكل لوحده كل العمل الذي يقوم به ذلك الخطاب اللاتيني الذي كان الأساتذة القدماء يقابلونه برهافة سمع افتقدناها منذأمد بعيد. فيما مضى كان من يتعلم أن يجيد الكتابة بلغة حديثة يدين بذلك لهذا التدريب (أما اليوم فنحن مجبرون على ارتياد مدارس الفرنسيين)؛ بل في الأمر أكثر من

ذلك : لقد كان من يرتادها يُكَوِّنُ فكرة عن سُمو الشكل وصعوبته ويُلفي نفسه مهيأ للفن أيا كان نوعه بسيره في الطريق الحقيقي الوحيد، طريق الممارسة .

204. المعتم والواضح جداجنب إلى جنب.

الكتاب الذين لايعرفون كيف يعبرون بوضوح شامل عن أفكارهم يختارون، إيثاراً للجزء، أقوى العبارات وأفعال التفضيل وأكثرها مبالغة : ينتج عن ذلك إشعاع كضوء المشاعل الذي ينير دروبا متشابكة وسط الأشجار.

205. رسم أدبي.

إن أفضل وسيلة لتصوير شيء غني بالدلالات هي أن نستخرج من الشيء نفسه، كما يفعل عالم كيماوي، الألوان التي سنصبغه بها و نستخدمها، كما يفعل الفنان، كي نجعل اللوحة تولد من انفصال الألوان وتحولها، و ستحتفظ اللوحة بشيء من العنصر الطبيعي الفتان الذي يعطي للشيء ذاته دلالته.

206. الكتب التي تعلمنا كيف نرقص.

هناك بعض الكتاب الذين يثيرون، بمعرفتهم كيف يعبرون عن المستحيل بظواهر الممكن وكيف يتحدثون عن الأخلاق وعن العبقرية كما لو أن هذه وتلك ليستا سوى نزوة وهوى عابر، يثيرون إحساسا بفيض من الحرية كإحساس الإنسان الذي حقق أهدافه واستسلم، في خضم اندفاع فرحته الداخلية، للرقص.

207. أفكار غير تامة.

مثلما أن لعمر الإنسان، وكذلك للطفولة والشباب، قيمة في ذاتهم ويريدون أن يتم تقديرهم تحت اعتبارات أخرى غير الانتقالات والجسور، كذلك فإن الأفكار التي ظلت غير تامة لها هي أيضا قيمتها. ما ينبغي فعله بالتالي ليس إزعاج شاعر ما بتفسير دقيق لأفكاره بل هو الاكتفاء بلا يقين أفقه كما لو أن المجال لايزال مفتوحا أمام العديد من الأفكار. إننا على العتبة نتظر وكأننا ننتظر إخراج كنز : يبدو أننا سَنوفَّق في اكتشاف أفكار عميقة. يستبق الشاعر سعادة المفكر شيئا ما باكتشافه فكرة أساسية ويثير فينا رغبة عارمة تدفعنا إليها، أما هي فتمر، مبتهجة، ملامسة رأسنا، متباهية بأجمل أجنحة فراشة – وهاهي ذي مع ذلك تفلت منا.

208. الكِتاب الذي كاد يصير إنسانا.

يفاجأ الكاتب مفاجأة لاتنتهي حين يرى كتابه الذي انفصل عنه يحيا حياته الخاصة، يتشكل لديه الإنطباع الذي قد يتشكل لدى حشرة انفصل عنها جزء منها وصار يحيا مستقلا. قد ينساه تماما، قد يسمو فوق الأفكار التي ضمّنها إياه، قد لن يفهمه بعد، وقد يكون فَقَدَ تلك الأجنحة التي كان يحلق بها حين كان يتأمل الكتاب : وهاهو ذا الكتاب يبحث عن قرائه، يبعث الحياة، يلهم الفرح، يلهم الرعب، تتولد عنه أعمال أخرى، يَصِيرُ روح بعض التصميمات وبعض الأعمال - باختصار، يحيا ككائن له روح وعقل ولكنه مع ذلك ليس إنسانا. لعل الكاتب قد جلب أسعد الحظوظ لأواخر أيامه بكون كل ما كان لديه من أفكار وأحاسيس حاملة للحياة، من قوى، من سمو، من إشعاع، مازالت تحيا في كتاباته، إنه لم يعد يمثل سوى الرماد بينما ناره قد توزعت في كل الآفاق ولم تنطفىء.

209. حبور الشيخوخة.

المفكر، وكذلك الفنان، الذي أنقذ أفضل ما لديه وَضَمَّنَهُ أعماله يشعر بفرحة تكاد تكون ماكرة حين يرى جسده وعقله وقد عَدَى عليهما الزمن وجعلهما حُطَاماً، وكأنه يرقب، من مُنْزَوَاهُ، لصا يبذل جهده ليفتح خزنته، وهو يعلم أن الخزنة فارغة وأن كل كنوزه في مأمن.

210. خصوبة هادئة.

ليس أرسقراطيو العقل بالفطرة في عجلة من أمرهم، فإبداعاتهم تَنْبُتُ وتسقط من الشجرة ذات مساء خريفي هادىء، دون أن تتم رغبة الآخرين فيها ولاقسرهم أوانتزاعهم لها بنفس السرعة التي بها تسقط. تعتبر إرادة الإبداع المستمر شيئا سوقيا ينم عن الحسد، عن الغيرة وعن الطمع. حين نكون ذوي شأن فإننا لانحتاج إلى فعل أي شيء - ومع ذلك فإننا نفعل الكثير. هناك صنف آخر أسمى من صنف الإنسان «المنتج».

211. أخيل وهوميروس.

تجري الأمور دائما كما جرت مع أخيل وهوميروس : لدى الواحد منهما تجربة المعيوش وله إحساس به، والآخر يصف هذه التجربة وهذا الإحساس. الكاتب الحقيقي إنما يعبر فقط بالكلمات عن عشق الآخرين وتجربتهم، فهو فنان لكي يتخيل الكثير إنطلاقا من القليل الذي يحس به. لايكون الفنانون أبدا من كبار العاشقين، لكنهم

يعتبرون أنفسهم كذلك، مع إحساسهم اللاشعوري أن الناس سيصدقون عشقهم المتصنع لو أن حياتهم تشهد على تجربتهم في العشق. يكفي أن يستسلم المرء لرغباته، أن لايسيطر على نفسه، أن يطلق العنان لغضبه وشبقه، وفي الحين سيصرخ كل الناس : كم هو عاشق ! لكن العشق الفاتك، العشق الذي يحرق الفرد ويضنيه في الغالب، له شأن آخر : الذي يشعر به لن يصفه، بكل تأكيد، في روايات، في معزوفات موسيقية، أو في مسرحيات. غالبا ما يكون الفنانون فساقا، وذلك بالضبط حين لايكونون فنانين : وتلك قصة أخرى.

212. شكوك قديمة بخصوص تأثير الفن.

هل صحيح، مثلما يريد ذلك أرسطو، أن المأساة المسرحية تُطهر المستمع من الخوف والشفقة بحيث أنه يعود إلى منزله هادءا وساكناً؟ هل صحيح أن قصص الأشباح تجعل المرء أقل خوفا وأقل تصديقا للخرافة؟ صحيح، في مايخص بعض الظواهر البدنية، كالمتعة الغرامية ميلا، أن إشباع الرغبة ينتج عنه هدوء الغريزة وخمودها المؤقت لكن الخوف والشفقة ليسا بهذا المعنى رغبتين عضويتين محددتين تتطلبان التنفيس. وإشباع الرغبات يؤدي، على التمادي، إلى تقوية الغريزة، بالرغم من هذا الهدوء الدوري. من المحتمل أن تكون المأساة المسرحية قد لطفت الخوف والشفقة وطهرتهما في كل حالة على حدة لكنهما، على العموم، قد يكونان تضخما بفعل التأثير المأساوي، وقد كان أفلاطون على حق، رغم كل شيء، حين ظن أن المأساة المسرحية تجعلنا على العموم أكثر خوفا وسهولة في التأثر. وبذلك سيجد الشاعر المأساتي نفسه متأثرا حتما برؤية كئيبة وقلقة للعالم، بروح حنون قابلة للتأثير وميالة للبكاء، وقد يكون كذلك مطابقا لرأي أفلاطون أن يتراجع الشعراء المأساتيون، وتتقهقر بتراجعهم كل المدن التي تبتهج بهم، ليقعوا في مغالاة جامحة، مغالاة لاتفتأ تتنامى. - لكن أي حق لعصرنا في الإجابة على السؤال الكبير الذي طرحه أفلاطون بخصوص التأثير الأخلاقي للفن؟ حتى يوم يكون لدينا فن، - أين هو تأثير هذا الفن، أيا كان هذا التأثير؟

213. متعة العبث.

كيف للإنسان أن يجد متعة في العبث؟ لأن تلك تكون الحالة في كل مرة يضحك فيها الناس، بل يمكننا القول أن متعة العبث تكاد تكون حيثما تكون السعادة. إن تحول التجربة إلى نقيضها، تحول المعياري إلى المجاني، واللازم إلى هوى عابر، لكن بحيث لايسبب هذا المثل أدنى أذى ولايتكرر أكثر من مرة واحدة، إن ذلك التحول هو ما

يجعلنا في حالة فرح،ويُخَلِّصُنَا مؤقتا بالفعل من إكراه اللزوم، من النفعية والذرائعية، الذين نرى فيهم عادة أسيادنا القساة القلوب. إننا نضحك ونلعب كلما انفجر المُتَوَقَّع (الذي عادة ما يسبب ضيقا وكآبة) دون أن يجرحنا. إنها فرحة العبيد خلال أعياد زحل.

214. تعظيم الواقع.

لما كان الناس يرون في الغريزة الإيروسية معبودا ويُحسون بها، بامتنان وَتَدلّه، تعمل فيهم، فإن تعلقهم هذا قد تأثر، على مر العصور، باتحاده مع أفكار سامية، وبالتالي صار معُظَمّاً بشكل كبير. هكذا فإن بعض الشعوب قد عرفت، بفضل فن الأمثلة هذ (idéalisation)، كيف تجعل من أمراضها مساعدين أقوياء للحضارة : مثل الإغريق الذين كانوا يعانون، في القرون الأولى، من أوبئة خطيرة (كداء الصرع ومرض الرقص الزنجي) وخلقوا منهما نموذج كاهنة باخوس الرائع. -لقد كانت للإغريق صحة جيدة بالفعل، كان سرهم هو تبجيل المرض وكأنه معبود، شريطة أن يكون قويا.

215. الموسيقى.

الموسيقى، في ذاتها وَلِذَاتِهَا، ليست غنية بالدلالة بالنسبة لكياننا الداخلي، مهما يكن التأثر الذي يجعلنا نعتبرها لغة الإحساس المباشرة قويا، غير أن ارتباطها بالشعر قد وضع الكثير من الرمزية في حركة الإيقاع وفي قوة وضعف الأصوات حتى أننا الآن نتوهم أنها توجه الخطاب مباشرة إلى الروح وتنبع منها. لن تكون الموسيقى المسرحية ممكنة إلا إذا غزا فن الأصوات مجالا واسعا من الوسائل الرمزية بفضل الليدة(lied)*، بفضل الأوبرا والعديد من المحاولات في علم الإيقاع المحاكاتي. «الموسيقى المطلقة» هي إما شكل في ذاته، في المرحلة البدائية من مراحل الموسيقى التي تتولد فيها المتعة ببساطة من الأصوات المختلفة القوة التي يحدثها الإيقاع، وإما رمزية الأشكال التي تتضمن اللغة حتى بدون شعر، وذلك إثر تطور اتحد من خلاله هذان الفنان إلى أن تم في نهاية المطاف نسج الشكل الموسيقي من خيوط الأفكار والأحاسيس. بإمكان الناس الذين ظلوا في مرحلة متخلفة من مراحل تطور الموسيقى أن يحسوا بطريقة شكلية محضة بنفس المقطع الذي سيفهمه المتقدمون أكثر على أنه رمزي في كل جزئياته. ليست هناك أية موسيقى في ذاتها عميقة أو ذات دلالة أو تتحدث عن ال «إرادة»، عن «الشيء في ذاته».لم يكن الفكر ليتصور هذا إلا في مرحلة أخضعت الحياة السابقة كلها للرمزية الموسيقية.

* أغنية شعبية ألمانية (المترجم) .

الفكر نفسه، وهو وحده، هو الذي أدخل هذه الدلالة في الأصوات، تماما كما في فن المعمار حيث وضع، في علاقة الخطوط والأحجام، دلالةتعتبر في ذاتها أجنبية تماما عن قواعد الميكانيكا.

216. الحركة واللغة.

يعد تقليد الحركات أقدم من اللغة، هذا التقليد الذي نقوم به لاشعوريا والذي لايزال في أيامنا هذه، رغم التراجع المفروض بشكل عام على الإيمائية وعلى تعلم التحكم في العضلات، قويا جدا بحيث أننا لانستطيع أن نرى حركات وَجْه ما دون أن يحدث إعصاب* في وجهنا (يمكننا ملاحظة أن تثاؤبا متصنعا يثير لدى منْ يراه تثاؤبا طبيعيا). إن تقليد الحركات يجعل المقلد يحس نفس الإحساس الذي تعبر عنه هذه الحركات على وجه أوجسد الشخص الذي يتم تقليده. هكذا تعلم الناس أن يتفاهموا، وهكذا يتدرب الطفل على فهم أمه. بصفة عامة، لقد تم التعبير عن إحساسات مؤلمة كذلك من خلال حركات تسبب بدورها ألما (كنتف الشعر مثلا، أو لطم الصدر،أو ليٌّ وتغضين عضلات الوجه بعنف).وبالعكس كانت حركات السرور تحمل في طياتها سرورا، ومن ثمة تكون سبيلا سهلة للتفاهم (الضحك الناتج عن الدغدغة، التي هي شيء سار، كان بدور يصلح للتعبير عن إحساسات أخرى سارة). - بمجرد ماتم التفاهم بين الناس من خلال الحركات نشأت رمزية الحركات : أعني أنهم تمكنوا من التفاهم بواسطة لغة تجمع بين الرموز والأصوات. وقد بدأوا بانتاج الصوت والحركة (التي كان ينضاف إليها كرمز) كي يكتفوا لاحقا بالصوت. -غالبا مايبدو أن نفس الشيء الذي نراه الآن ونسمعه في تطور الموسيقى قد حدث في العصور القديمة نفسها : والحال أن الموسيقى تكون في البداية، دون تفسير الرقص والإيمائية لها، ضوضاء فارغة، ويحدث أن تتدرب الأذن، من خلال تعود طويل على توازي الموسيقى والحركة، على تفسير الرموز الموسيقية مباشرة، وتنتهي ببلوغ درجة عالية من الفهم السريع بحيث لاتعود في حاجة إلى الحركة المرئية إطلاقا وتفهم الملحن دونها. إذاك نتحدث عن موسيقى مطلقة، أي عن موسيقى يتم فهم كل شيء فيها على الفور رمزيا ودون مساعدة أي شيء آخر.

217. الإفقار الحسي للفن العظيم.

لقد تمت عقلنة آذاننا أكثر فأكثر من جراء تدريب الذكاء ذلك التدريب غير المألوف الذي يقوم به التطور الفني للموسيقى العصرية. كما أننا اليوم نتحمل قوة أشد في

* إعصاب (innervation) : طريقة انتشار الأعصاب في عضو ما .

الأصوات، نتحمل كثيرا من ال «ضجيج»، لأننا قد تدربنا أكثر من أسلافنا على تمييز الحكمة الموجودة فيهما. إن أحاسيسنا الآن، بتنقيبها الفوري عن الحكمة، أي عن «هذا يعني» وليس عن ما «هو»، قد تم إنهاكها شيئا ما : إضعافٌ يتجلى مثلا في السيادة المطلقة لمزاج النوطات، لأن الآذان التي لا تزال الآن تميز بين دُو رافعة وسي خافضة هي في حكم النادر. بهذا الإعتبار فإن أذننا قد صارت عامية. ثم إن الجانب القبيح من العالم، الذي هو عدو الحواس في الأصل، قد خضع للموسيقى، ومن ثمة فقد توسعت بشكل كبير جدا إمبراطورية الموسيقى خاصة فيما يخص التعبير عن الرائع، عن المرعب، عن الغامض؛ صارت موسيقانا تُنْطِقُ أشياء كانت خرساء فيما مضى. بنفس الطريقة زرع بعض الرسامين في العين فطنةً أكثر وتقدموا ليتجاوزوا ماكان يسمى فيما مضى متعة الألوان والأشكال. هنا أيضا خضع جانب العالم الذي يعتبر قبيحا في الأصل للمهارة الفنية. - ماهي عاقبة كل هذا؟ كلما تأقلمت العين والأذن مع الفكر كلما اقتربتا من الحد الذي تكف عنده حسيتهما : الفرحة تنزوي في المخ، أعضاء الحواس نفسها تُنْهَكُ وَتَضْمُرُ، والرمز يحل مكان الشيء بالتدريج، - وإلى الهمجية تقودنا هذه السبيل كأي سبيل أخرى. قبل أن نَبْلُغَ، ذلك يمكننا أن نقول لأنفسنا : العالم الآن أقبح مايكون، ومع ذلك فهو يدل على أجمل عالم بالإطلاق. والحال أن مع انتشار رائحة عنبر هذه الدلالة وتبخرها يصير عدد الذين يدركونها شديد الندرة؛ أما الآخرون فيتمسكون بالقبح، في نهاية الأمر، ويسعون للاستمتاع به مباشرة، وهو الشيء الذي لن ينجحوا فيه أبدا مع ذلك. هناك إذن في ألمانيا تيار مزدوج في التطور الموسيقي : هنا زمرة قوامها عشرة آلاف شخص لاتفتأ متطلباتها تسمو، تصير دقيقة، وهي ترهف سمعها أكثر فأكثر ل «هذا يعني»، وهناك الأغلبية الساحقة التي تجد نفسها عاجزة كل عام عن فهم الدلالات حتى وهي متخذة أشكال القبح المحسوس، والتي تتعلم بمتعة متنامية أن تبحث في الموسيقى عما هو قبيح ومقيت في ذاته، أي عما هو حسي بشكل دنيء.

218. الحجر حجر أكثر من ذي قبل.

إننا على العموم، لم نعد نفهم المعمار، أو على الأقل، لم نعد نفهمه بالطريقة التي نفهم بها الموسيقى، وشتان ما بين هذا الفهم وذاك. لم نعد نفهم رمزية الخطوط والأشكال، كما فقدنا عادة فهم التأثيرات الصوتية للبلاغة، وقد انتهى بنا الأمر أن رضعنا هذا النوع من حليب الأم الذي هو حليب الثقافة منذ أولى لحظات عمرنا. في الأثر التاريخي الإغريقي أو المسيحي كان لكل شيء دلالته في الأصل، وهذا من منظور

نظام الأشياء السامي : كان جو الدلالة اللاَّتَنْضُب يُغَلف الأثر كخمار سحري. لم يكن الجمال يدخل في النمط إلا بشكل عرضي، دون أن يضر أساسا بالإحساس الجوهري الذي يخلقه الواقع الرائع والمقلق، الذي يكرسه الحضور الإلهي والسحر؛ كان أكثر ما يفعله الجمال هو تلطيف الرعب، - لكن هذا الرعب كان هو الشرط الأول في كل مكان. ماذا يشكل جمال اللحظة بالنسبة لنا الآن؟ ما يشكله وجه جميل لامرأة لاعقل لها : نوعا من القناع.

219. الأصل الديني للموسيقى العصرية.

نشأت الموسيقى كتعبير عن الروح في الكاثوليكية التي كانت موضع إصلاح بعد مجمع الثلاثين، ويرجع الفضل في ذلك إلى Palestrina الذي أدخل في الأصوات ورعاً وإحساسا عميقا تطربه الحياة الجديدة؛ كما تم ذلك لاحقا، في البروتستانية، على يد باخ الذي أعطاه التقويون* عمقا وخلصوه من طبعه الذي كان دوغمائيا في الأصل. كان الشرط المسبق والتهيؤ اللازم لهذين الإبداعين هما ممارسة الموسيقى كما كانت في عصر النهضة وفي ماقبل النهضة، خاصة تلك الدراسة العلمية للموسيقى، تلك المتعة العلمية في الواقع التي يتم الإحساس بها في براعة تآلف الأنغام واصطحاب الأصوات. من جهة أخرى، كان لابد من سابقة الأوبرا : إذ من خلالها رفع الدنيوي احتجاجه ضد تلك الموسيقى الفاترة التي أصبحت موسيقى علمية، وصمم على بعث الروح في بوليمني**. - لولا هذا التجديد الديني في العمق، لولا أصداء روح هيجها لورع، لظلت الموسيقى علمية أو متبعة أسلوب الأوبرا. روح الموسيقى العصرية هي روح الإصلاح المضاد (لأن تلك التقوية التي دخلت موسيقى باخ أيضا نوع من الإصلاح المضاد). تلك ضخامة مانـدين به للحياة الدينية. - لقد كانت الموسيقى نهضة مضادة في ميدان الفن، وإليها تُعْزَى مرحلة الرسم المتأخرة لدى موريو (Murillo)، وربما تعزى إليها حتى الباروكية : أكثر مما يعزى إليها فن المعمار في عصر النهضة أو في العصور القديمة. وحتى حاليا يمكننا أن نتساءل : لو أن موسيقانا العصرية كانت قادرة على نقل الأحجار، فهل كانت ستشكل منها معمارا قديما؟ أشك في ذلك كثيراً. لأن الذي يسود في هذه الموسيقى، أعني العشق، لذة التسامي، لذة إعلاء شأن الحالات النفسية، إرادة تكثيف الحياة بأي ثمن، التغيرات المفاجئة في الإحساس، الأثر القوي للنتوء الذي يخلقه الظل والضوء، تجاور الإنخطاف والبسيط، - كل هذا قد ساد ذات مرة وخلق

* التقوية (piétisme) : حركة دينية نشأت في ألمانيا في ق . 17 وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية .

** Polymnie : ربة الإيقاعات المتعددة ، وهي واحدة من ربات الفنون التسع عند الإغريق (المورد)

قوانين جديدة تخص الأسلوب في الفنون الجميلة. - ولم يكن ذلك لافي العصر القديم ولا في عصر النهضة.

220. المَاوَرَاء في الفن.

لا، إننا لانُسَلِّمُ دون أن نتألم كثيرا بأن فناني كل العصور قد رفعوا، من خلال التحليق الذي كان يحملهم إلى السمو، إلى سماء التشويه، هذه التمثلات بالضبط التي نعلم اليوم أنها خاطئة : هم الذين مجدوا الأخطاء الدينية والفلسفية التي ارتكبتها الإنسانية، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا إيمانهم بحقيقتها المطلقة. والحال أنه إذا نقص الإيمان بتلك الحقيقة بشكل عام فإن ألوان قوس قزح ستصير باهتة داخل حدود المعرفة والوهم الإنسانيين : سيستحيل إذاك أن يزدهر هذا النوع من الفن الذي يفترض في الأشياء ليس دلالة كونية فقط بل ميتافزيقية أيضا، مثله في ذلك مثل الكوميديا الإلهية، مثل لوحات رفائيل، مثل جداريات مايكل انجلو، ومثل الكاتدرائيات القوطية. لئن كان مثل هذا الفن وهذا الإيمان قد وجدا يوما، فإنه لن يتبقى منهما ذات يوم سوى أسطورةمؤثرة.

221. الثورة في الشعر.

لقد شكل التقيد الصارم الذي فرضه الشعراء الفرنسيون على أنفسهم فيما يخص وحدة سير الأحداث، وحدة الزمان والمكان، فيما يخص الأسلوب،النظم والنحو، اختيار الكلمات والأفكار، شَكَّلَ مدرسة توازي في أهميتها مدرسة الطباق والتسلسل في تطور الموسيقى العصرية، أو تعابير Gorgias في الفصاحة الإغريقية. إن التقيد بهذا الشكل قد يبدو عبيثا، إلا أنه ليست هناك أية وسيلة أخرى للتحرر من المذهب الطبيعي إلا البدء في الإنحصار بأكبر عزم (أوربما بأكبر تعسف) ممكن. شيئا فشيئا نتعلم المشي بسهولة حتى على السلالم الضيقة التي تَعْبُرُ مهاوي عميقة جدا ونعود بغنيمة رشاقة قصوى في الحركة، كما يشهد على ذلك تاريخ الموسيقى في نظر كل المعاصرين. نرى هنا كيف تنحل القيود واحدا فواحدا إلى أن تظهر في النهاية وقد تم التخلص منها تماما : إن هذا الظهور هو النتيجة النهائية لتطور لازم في الفن. أما الشعراء المعاصرون فلم تتح لهم فرصة تطور يُخَلِّصُهُم تدريجيا من القيود التي فرضها الشعراء على أنفسهم فيما قبل. في ألمانيا سَخِرَ Lessing من الشكل الفرنسي، أي من الشكل الوحيد للفن الحديث، وأحال على شكسبير، بحيث أننا فقدنا استمرارية هذا التخلص من القيود لنقفز إلى عمق المذهب الطبيعي -أي أننا عدنا إلى الوراء، إلى بدايات الفن. لقد حاول

غوته أن يتحرر من هذا المذهب الطبيعي من خلال البحث باستمرار عن أشكال جديدة ومختلفة من التقيد؛ ولكن حتى صاحب الموهبة الكبيرة هذا لم ينته إلا إلى التجريب المستمر حين انقطع خيط التطور. يَدين شيلر بسلامة الشكل النسبية لديه للمأساة المسرحية الفرنسية، نموذجه الذي يبجله بتلقائية، وإن كان قد تنكر له، وقد احتفظ باستقلاليته تجاه Lessing (الذي نعلم أنه كان يرفض المقالات المسرحية). كما أنه لم يعد في فرنسا ذاتها فجأة، بعد رحيل فولتير (Voltaire) ، ذوو المواهب الكبيرة الذين بإمكانهم أن يتابعوا تطور المأساة المسرحية انطلاقا من هذا التقيد إلى تلك الحرية الظاهرية، وقد قاموا لاحقا، اقتداءا بألمانيا، بمعانقة نوع من الروسوية [نسبة لروسو]، نوع من طبيعة الفن، وشرعوا في التجارب. يكفي، من حين لآخر، أن نقرأ كتاب محمد لفولتير كي نُكَوِّنَ فكرة واضحة عما فقدته الثقافة الأوربية من جراء هذه القطيعة مع التقليد (tradition). لقد كان فولتي آخر الشعراء المسرحيين الكبار، وهو الذي أخضع لنير الإيقاع الإغريقي روحَهُ المتغيرة الشكل التي كانت كذلك في مستوى أكبر العواصف المأساتية، لقد قدر على مالم يقدر عليه أي ألماني،وذلك لأن قرابة الطبعين الفرنسي والإغريقي أقوى من قرابة الطبعين الألماني والإغريقي، كما أنه كان آخر الكُتاب الكبار الذين كانت لديهم، فيما يتعلق بالنثر الخطابي، أُذن إغريقية، وعي فني إغريقي، وبساطة الإغريق وأناقتهم،كما كان، زيادة على ذلك، واحدا من أواخر الرجال الذين عرفوا كيف يجمعون بين حرية الفكر الكبيرة وبين عقلية مضادة للثورة بشكل جريء دون أن يكونوا لاجبناء ولا متناقضين.منذ ذلك الوقت صار العقل الحديث، بقلقه وببغضه للإيقاع وللحد ، متفوقا في كل الميادين، في البداية، أطلقته حُمى الثورة من عقاله، لكنه بعد ذلك وضع العنان في عنقه من جديد حين خاف على نفسه، – إلا أنه عنان المنطق وليس عنان الإيقاع الفني كما كان من قبل. لقد تذوقنا في فترة ما، بكل تأكيد، وبفضل هذا الإنطلاق، أشعار كل الشعوب، كُلَّ ما أزدهر في الأقاليم النائية، النسغ الأصلي، الازهرار البري، الجمال الغريب والتباين الكبير، انطلاقا من الأغنية الشعبية حتى شكسبير، هذا «المتوحش الكبير»؛ إننا نستمتع بالأفراح ذات الطابع المحلي وبأفراح زينة المرحلة، التي كانت مجهولة لدى كل الشعوب الفنانة حتى الآن؛ نستفيد كثيرا من «الميزات المتوحشة» لعصرنا، تلك التي روجها غوته ضد شيلر كي يضع الجانب المشوه من فاوست في جو ملائم. لكن إلى متى؟ هذا السيل العارم من أشعار كل الشعوب المختلفة الأساليب حتما سيجرف شيئا فشيئا ذلك الركن من الأرض التي يمكن أن ينمو فيه نُسغ خبيء بكل هدوء؛ وحتما سيصير كل الشعراء مقلدين ومُجَرِّبين، ونَقَلَةً مغامرين، مهما تكن قوتهم كبيرة في البداية؛ وفي الأخير إن

الجمهور الذي نسي أن يرى الفعل الفني المحض في التمكن من وسائل التعبير، في الإمتلاك الشامل للخطط وتنظيمها بإتقان، هذا الجمهور سينتهي حتما أكثر فأكثر إلى تقدير القوة من أجل القوة، اللون من أجل اللون، الفكرة من أجل الفكرة، بل تقدير الإلهام من أجل الإلهام ؛ وبالتالي لن يتذوق عناصر وشروط العمل الفني وإلا فسيتذوقها متفرقة، بل سينتهي بأن يتطلب ذلك بشكل طبيعي بحيث أن الفنان سيجد نفسه مرغما على أن يقدمها له متفرقة. أجل، لقدتحررنا من قيود الفن الإغريقي والفرنسي «العبثية»، لكننا تعودنا رويدا رويدا أن نرى كل القيود، وكذلك كل تقييد، شيئا عبثيا، - وهكذا يسير الفن قُدماً إلى خرابه مع مروره (وهو شيء مفيد بكل تأكيد) بكل مراحل بداياته، بمراحل طفولته ونقصه، بمراحل جرأته وإفراطه السالفة : إنه، وهو ماض إلى هلاكه، يفسر تكونه وصيرورته. اللورد بايرون (Byron) واحد من العظماء، يمكننا بكل تأكيد أن نثق في غريزته كما في نظريته التي لم ينقصها شيء سوى ثلاثين سنة من الممارسة زيادة ، - قال اللورد بايرون في مكان ما : « فيما يتعلق بالشعر بشكل عام ، كلما فكرت فيه كلما اشتد اقتناعي بأننا قد ضللنا الطريق نحن كلنا. كلنا نتبع نظامًا ثورياً خاطئُ داخلياً، - وسيصل جيلنا، أو الذي يليه،إلى نفس القناعة. » بايرون هذا هو نفسه الذي يقول : أرى في شكسبير أسوأ مثل، وإن كان شاعرا فذا.» أليس عن نفس الشيء تماما تعبر مهارة غوته التي صارت أكثر نضجا في النصف الثاني من حياته؟تلك المهارة التي مكنته من التقدم كثيرا على سلسلة من الأجيال بحيث يمكننا إجمالا أن نؤكد أن غوته لم يؤثر في أحد بعد، وأن زمنه سيأتي لاحقا؟ ذلك لأن طبعه قد أبقاه طويلا في طريق الثورة الشعرية، لأنه استمتع، إلى حد إنضابه تماما، بكل ما مكنت تلك القطيعة مع التراث من اكتشافه بطريقة غير مباشرة ومن مايشبه بعثه من تحت أنقاض الفن، ويتعلق الأمر بأشياء جديدة، بلقيات، بمنظورات، بأنماط، لهذا كان لتغييره الإتجاه فيما بعد ولتحوله وزن كبير : إنهما يعنيان أنه كان في أمس الحاجة لأن يعيد الإرتباط مع التراث الفني ولأن يعيد شعريا ابتكار كمال القديم والتام كي يعيده إلى أجزاء المعبد وأورقته التي لم تتهدم، لأن يعيد ابتكاره من خلال تخيل العين، على الأقل، إن بدت قوة الساعد في نهاية المطاف عاجزة عن التشييد هناك حيث يتطلب الهدم طاقات هائلة. كانت الحياة مع الفن بالنسبة إليه تعني الحياة مع ذكرى الفن الحقيقي : كان نشاطه الإبداعي قد صار وسيلة لدعم الذكرى، لدعم فهم مراحل قديمة من عمر الفن اختفت منذ أمد طويل. لاشك أن طموحاته كانت مستحيلة التحقيق بالنسبة لقوى العصور الحديثة؛ لكن الحزن الذي سببته له قد تم تعويضه عنه بفرحة معرفة كونها قد تحققت فيما مضى وأنه بإمكاننا نحن أيضا أن نساهم في تحقيقها. ليس

أشخاصا، بل أقنعة مثالية إلى حد ما؛ ليس الواقع، وإنما كُلٌّ مجازي؛ ميزاتُ عصر، طابعٌ محلي تم تخفيفه حتى أمسى لا مرئيا وأسطوريا؛ الطرق الحالية في الإحساس وقضايا المجتمع المعاصر وقد تم تبسيطها، وقد جُردت من خاصيتها المَرَضيَة في الإغراء والعشق، وقد حُرمت من كل إمكانية الفعل وإلا فالفعل بالمعنى الفني؛ ليست المواضيع ولا الخاصيات الجديدة وإنما بعثها باستمرار بمجهود التجديد والتحويل : هذا هو الفن مثلما فهمه غوته أواخر حياته، مثلما كان الإغريق والفرنسيون يمارسونه.

222. ماتبقى من الفن.

في الواقع إن الفن يكتسي قيمة كبيرة حين تواكبه بعض المُسَلَّمَات الميتافزيقية، كالإعتقاد الذي يُسَلِم به الناس عموما بأن الطبع ثابت وأن جوهر العالم يظهر باستمرار في كل الطباع والفعال : وهكذا يصير عمل الفنان صورة للثبات الأبدي بينما الفنان لن يستطيع أبدا، فيما نرى، أن يضفي الشرعية على صورته إلا لحظة، لأن الإنسان، الذي هو نتاج تطور، هو بشكل عام عرضة للتغير، وأن الفرد نفسه ليس فيه شيء دائم أو ثابت. –نفس الشيء ينطبق على فرضية ميتافزيقية أخرى : لو افترضنا أن عالمنا المرئي ليس سوى ظاهر، كما يسلم بذلك فلاسفة ماوراء الطبيعة، فإن الفن سيكون أقرب إلى عالم الحقيقة، لأنه ستكون هناك تماثلات كثيرة بين عالم الظاهر وعالم الرؤية الحُلُمية لدى الفنان، وماتبقى من الإختلاف سيرفع دلالة الفن ذاتها إلى مستوى يتجاوز دلالة الطبيعة، مادام الفن سيصور ثبات الأشكال ونماذج الطبيعة. – والحال أن هذه المسلمات خاطئة. وبمجرد ما نعترف بخطأها فأي مكانة ستبقى لفن العصر الحاضر؟ لقد عَلَّمنا الفن على مدى آلاف السنين أن ننظر إلى الحياة وإلى كل شكل من أشكالها باهتمام ومتعة، وأن نستدرج أحاسيسنا هذه إلى الحد الذي نصرخ فيه : «أيا تكن هذه الحياة فهي جميلة.» هذا الدرس الذي يلقننا إياه فن الإستمتاع بالوجود والنظر إلى الحياة الإنسانية وكأنها قطعة من الطبيعة، دون أن نحس إحساسا قويا بالتعاطف معها، والنظر إليها فقط كشيء خاضع لقوانين التطور، – هذا الدرس قد تجذر في أعماقنا، وهاهو الآن يظهر للوجود مرة أخرى متخذا شكل حاجة ملحةللمعرفة. يمكننا أن نتخلى عن الفن دون أن نفقد مع ذلك تلك المَلَكة التي اكتسبناها بفضله : مثلما تخلينا عن الدين ولم نتخل عن لحظات السمو والارتفاع اللذين أفادتهما الروح منه. بما أن الفنون الجميلة والموسيقى هما معيار هذا الغنى في الإحساس الذي تم اكتسابه وتنميته بسبب الدين، فإنه لو حدث واختفى الفن فإن كثافة وتنوع الإقبال على الحياة اللذين زرعهما سيظلان مع ذلك في حاجة إلى الإشباع لاتنقضي. العلم هو الذي يحل محل الفن في تطور الإنسان.

223 . أفول الفن .

مثلما نتذكر شبابنا ونحن شيوخ ونحتفل بأعياد الذكرى، كذلك سيصير الفن عما قريب، بالنسبة للإنسانية، ذكرى تثير أفراح شبابها. ربما لم يتم أبدا من قبل فهم هذا العمق وبكل الجوارح مثلما يتم في الوقت الحاضر حيث يبدو أن سحر الموت يحيطه بهالته. لنتذكر تلك الحاضرة الإغريقية في جنوب إيطاليا التي ظلت تحتفل بالأعياد الإغريقية يوما واحدا في السنة، وهي تذرف دموع الحزن لرؤيتها الهمجية الأجنبية تقضي شيئا فشيئا على تقاليدها الأصيلة. لاشك أن الاستمتاع بالإرث الهليني بشكل كبير وتذوق ذلك الرحيق الرائع بلذة كبيرة لم يكن ممكنا إلا وسط أولئك الهلينيين المحتضرين. قريبا سوف لن نرى في الفنان سوى أثر رائع، وسنضفي عليه عزة قلما نود أن نضفيها على أمثالنا، كما لو كان أجنبيا بارعا كانت قوته وجماله يشكلان سعادة القرون الماضية. ربما نكون قد ورثنا أفضل مافينا عن الأحاسيس التي تنتمي إلى هذه القرون الماضية والتي قلما نستطيع ولوجها الآن عبر طريق تؤدي إليها مباشرة. لقد غربت الشمس، لكنها لاتزال تضيء سماءَ حياتنا وتُنورها حتى ونحن لانراها.

الكتاب الخامس

خصائص الحضارة الراقية والحضارة الدنيا

224 . التعظيم بواسطة التدني.

يعلمنا التاريخ أن العرق الذي يحافظ على نفسه جيدا داخل شعب ماهو ذلك العرق الذي تكون لأغلبية الأفراد فيه عقلية جماعية حية بسبب تماثل كبرى مبادئهم المعتادة وغير القابلة للنقاش، إذن بسبب اعتقادهم الجماعي. ثمة تتقوى العادات الصالحة والمتينة، ثمة يتعلم الفرد الخضوع، ثمة يتلقى الطبع، مجانا، حَزْماً تنميه التربية فيما بعد. الخطر الذي يتهدد هذه الجماعات القوية، المرتكزة على أفراد لهم نفس الطبع ولهم خاصية حيوية، هو التبليد الذي تقويه الوراثة بشكل تدريجي، والذي يلازم الثبات دائما كظله. إن التقدم الفكري لهذه الجماعات يتوقف على الأفراد المستقلين الطلقاء والضعفاء أخلاقيا : إنهم الرجال القادرون على القيام بمحاولات جديدة، بتجارب جديدة. عدد لايحصى من أفراد هذا الصنف يهلكون بسبب ضعفهم، دون نتيجة واضحة، لكنهم في الغالب،خاصة حين تكون لهم ذرية، يحُدثون شروخا في انسجام الجماعة، ومن فينة لأخرى يوجهون ضربة لعنصر الثبات فيها. في هذا الموضع المجروح والموهَن يتم بث عنصر جديد في مجموع الجسد الذي يجب أن تكون قوته من الشدة بمكان بحيث تُدخل هذا الجديد في دمها وتتمثله. إن للطباع التي تتدنى أهمية كبيرة في كل مكان لَزِمَ أن يحدث فيه تقدم. إن أي تقدم جماعي لابد أن يسبقه ضعف جزئي. الطباع القوية تحافظ على النوع والطباع الضعيفة تساهم في تطويره. يحدث للفرد شيء مماثل لهذا، إذ يندر أن يكون هناك تدن أو بتر، بل حتى عيب، وبشكل عام، قصور جسدي أو معنوي دون أن ترافقه فائدة ما في موضع آخر. في عرق مُحَارب ومُهتاج قد يكون للرجل المُسْقام، مثلا، فرص أكثر ليعيش على الهامش ويكتسب فيه كثيرا من الهدوء ومن الحكمة، ستكون للأعور عين تظل قوية،ستكون للأعمى رؤية أعمق للحياة الباطنية وسمع مرهف على أية حال. في هذه الحالات،

لايبدو لي أن الصراع من أجل البقاء هو وجهة النظر الوحيدة التي انطلاقا منها يمكن تفسير تقدم أو تنامي قوة فرد أوعرق ما. على العكس، لابد من مساهمة العنصرين التاليين : أولاً، تنامي القوة الثابتة بواسطة روابط تحافظ على جماعية الإعتقاد والإحساس في عقول الأفراد،وثانيا، إمكانيةٌ بلوغ أهداف أسمى، إمكانية يوفرها ظهور طباع متدنية وبالتالي ظهور ضعف وجروح جزئية في القوة الثابتة. إن الطبع الأضعف بالضبط، لكونه أكثر دقة وحرية، هو الذي يجعل التقدم،كيفما كان نوعه، ممكنا. الشعب الذي يبدأ لديه التقرح والضعف في موضع ما ولكنه يبقى قويا وسليما في مجموعه قادر على تحمل عدوى الجديد والإستفادة منها من خلال امتصاصها. بالنسبة للفرد ستكون مهمة التربية كالتالي : أن تجعله في وضع آمن وقوي بحيث لن يمكن أبدا، على العموم، أن يُحَادَ به عن طريقه. وسيكون على المربي آنداك أن يصيبه بجروح، وأن يستفيد من الجروح التي أصابه بها القدر، وبمجرد ما يولد الألم والحاجة بهذا الشكل فسيكون ممكنا أن يبث فيه عنصرا من الجدة والنبالة من خلال نُدُوبه. سيمتص طبعه ذلك العنصر كله ويجعل رائحة نبالته تفوح في الثمار التي سَيُثْقَلُ بها لاحقا. –فيما يخص الدولة يقول ماكيا فيل (Machiavel) أن «شكل الحكومات ذو أهمية دنيا، وإن كان أنصاف المثقفين يعتقدون خلاف ذلك. الهدف الكبير للسياسة ينبغي أن يكون هو البقاء، الذي يساوي كلما تبقى باعتباره أغلى ثمنا من الحرية. » وحده البقاء الطويل، السليم المرتكزات والضمانات، يجعل التطور الثابت لبث التهذيب أمرا ممكنا على كل حال. لاشك أن السلطة، التي هي أخطر رفيقة لكل بقاء، ستقاوم ذلك في أغلب الأحيان.

225. الفكر الحر، مفهوم نسبي.

نسمي مفكرا حرا ذاك الذي يفكر بطريقة مخالفة لما كنا ننتظره منه بسبب أصله، وسطه، حالته،ووظيفته، أو بسبب الآراء السائدة في عصره. هو الإستثناء، والمفكرون المُسْتَعْبَدُونَ هم القاعدة. إن ما يؤاخذه به هؤلاء هو كون مبادئه الحرة إما تنبع من الرغبة في المفاجأة أو تُسَوِّغَ الإتيان بفعال حرة، أي أنها من تلك المبادىء المتنافرة مع الأخلاق المستعبدة. أحيانا يقال أن المبدأ كذا أو كذا من هذه المبادىء الحرة يمكن أن يُستنبط من خَطَلٍ في العقل ومن تمجيده؛ لكن وحده الخبث يتكلم هكذا، الخبث الذي لا يصَدِّقُ هو نفسه شيئا مما يقول، لكنه يريد استعماله بقصد الإضرار : لأن المفكر الحر عادة ما تكون علامةُتفوق ذكائه وَحِدَّته مكتوبةً على وجهه ومقروءة بوضوح شديد يجعل المفكرين المستعبدِين يدركونها جيدا. لكن الإنحرافيْن الأخريْن لفكره الحر ينبثقان عن

نية صادقة، والحقيقة هي أن كثيرا من المفكرين الأحرار يولدون من هاته الطريقة أو من تلك. لكن هذا قد يكون سببا يجعل المبادىء التي توصلوا إليها بهذه الوسائل حقيقية وأكيدة أكثر من مبادىء المفكرين المستعبَدين. إن مايهم في معرفة الحقيقة هو أن نمتلكها وليس الدافع وراء البحث عنها أو الطريقة التي أوصلتنا إليها. إن كان المفكرون الأحرار على صواب فالمفكرون المستعبدون على خطأ، لايهم إن كان الأولون قد توصلو إلى الصواب بدافع لاأخلاقي وبقي الآخرون حتى اليوم متعلقين بالخطأ بدافع أخلاقي. - الحاصل أنه ليس من طبع المفكر الحر أن تكون له آراء أصح، ماهو من طبعه بالأحرى هو أن يكون قد تحرر من التقاليد، سواء نجح في ذلك أو أخفق. لكن الحقيقة ستكون بجانبه رغم ذلك، أو على الأقل دأب البحث عن الحقيقة : هو يريد البراهين ويريد الآخرون المعتقدات.

226 . أصل الإيمان .

لايبني العقل المستعبد اختياره على هذا السبب أو ذاك، بل يختار بفعل العادة، يختار أن يكون مسيحيا مثلا، لكن ليس لأنه تفحص مختلف الديانات واختار من بينها؛ يختار أن يكون انجليزيا، لكن ليس لأنه انحاز إلى جانب انجلترا، لا، لقد وجد المسيحية وانجلترا قريبتين منه فتبناهما، مثلما يصير من وُلد في بلد الكروم شاربا للخمر. لاحقا، بعد أن يكون قد صار مسيحيا وانجليزيا، ربما قد ينجح في العثور على بعض الأسباب التي تؤيد اعتياده؛ ومهما حاولنا أن نسقط هذه الأسباب فإننا لن نغيره هو، أو وضعه على الأقل. لِنُجْبِرْ، على سبيل المثال، عقلا مستعبَدا على الإتيان بأسباب ضد الزواج من امرأة ثانية وسنرى جيدا إذاك إن كان تَحمُّسه المقدس للزواج بواحدة يرتكز على حجج أم فقط على الإعتياد. والإعتياد على مبادىء فكرية مجردة من الحجج هو بالضبط ما نسميه إيمانا.

227. الحق والخطأ مستنبطان استدلاليا من نتائجهما.

كل الدول وكل نظم المجتمع: الطبقات، الزواج، التربية، كلها تستمد قوتها ودوامها من إيمان العقول المستعبَدة، - إذن من غياب الحجج، أو على الأقل من رفض تحري الحجج. هذا ما لاتحب العقول المستعبدة أن تعترف به إلا فيما ندر، إنها تشعر به كشيء مخجل. والمسيحية، التي كانت بريئة في استهاماتها الفكرية، لم تشأ أن ترى شيئا من هذا المخجل، وتطَلَّبتْ من الناس الإيمان ولاشيء غير الإيمان، ورفضت بغضب طلب الحجج؛كانت تشدد على نجاحات الإيمان : كانت توحي للناس بأنهم سيشعرون بميزة الإيمان وبواسطته ستأتيهم السعادة. في الحقيقة، إن الدولة تتصرف بنفس الطريقة،وكل

أب ينشيء ابنه بنفس الطريقة : اعتبر هذا وحده حقا، يقول له، وسترى كم هو نافع. والحالة هذه فإن هذا يعني أن الفائدة الشخصية التي نحصل عليها من رأي ماتبرهن على أن هذا الرأي حق،وأن منفعة عقيدة ماتضمن يقينها وحُسن مرتكزها الفكريان. إن هذا يشبه قول المتهَم لهيأة المحكمة : إن محامي يقول كل الحقيقة، انظروا لما ستسفر عنه مرافعته : ستُعْلَنُ براءتي. بما أن العقول المستعبَدة لا تعتنق إلا المبادىء التي تعود عليها بالمنفعة فإنها تفترض أن الأراء لدى المفكر الحر ماهي إلا وسيلة يبحث بها عن منفعته وأنه لا يضفي صفة الحق إلا على مايجني منه فائدة ما. وبما أن مايبدو نافعا له نقيض ما يبدو نافعا لمواطنيه ولزملائه فإن هؤلاء يُقرُّون بأن مبادئه خطر عليهم؛ وإن لم يقولوه فإنهم يشعرون به : لايمكن أن يكون على حق بما أنه يُضرُّبنا.

228. الطبع الحاد والحَسَن.

عبودية الأراء، التي حولتها العادة إلى غريزة، هي التي تؤدي إلى مانسميه حدة الطبع. حين يتصرف المرء تحت تأثير بواعث قليلة، لكنها لاتتغير أبدا، فإن فعاله تكتسب منها طاقة كبيرة؛وإذا وافقت هذه الفعال مبادىء العقول المستعبَدة فإنها تحظى بالقبول، وبشكل عَرَضي تُوَلِّدُ لدى مَنْ قام بها إحساسا براحة الضمير. إن ما يشكل مانسميه حدة الطبع هي البواعث القليلة، السلوك الحيوي وراحة الضمير. تنقص هذا الطبع الحاد معرفة إمكانات الفعل واتجاهاته المتعددة؛ وذكاؤه تنقصه الحرية، إنه مستعبَد، لأنه لن يُريه، في حالة معينة، سوى إمكانيتان؛ وسيكون عليه آنذاك، حتما وطبقا لطبعه كله، أن يختار واحدة منهما،وسيفعل ذلك بسهولة وبسرعة مادام لن يختار من بين خمسين إمكانية. يميل الوسط الذي يربي الفرد إلى حرمانه من الحرية إذ يقترح عليه أقل مايمكن من الإمكانيات. ويعامل المربون الفرد كما لو كان كائنا جديدا، دون شك، لكن ككا ئن يدون تحويله إلى نسخة. لئن بدا الإنسان في الأول كجديد لم يسبق له مثيل في الوجود فإن الأمر لايتعلق مع ذلك بتحويله إلى شيء معروف، شيء موجود من قبل. إن مانسميه الطبع الحسن لدى الطفل هو بالضبط ذلك التمظهر التدريجي لعبوديته للوجود المعطى بصفة نهائية، وبانحيازه إلى جانب العقول المستعبدة يشرع الطفل في التدليل على استيقاظ حسه القطيعي،وهذا الحس هو الأساس الذي سيسمح له بأن يكون فيما بعد صالحا لدولته ولطبقته.

229. قياس الأشياء لدى العقول المستعبَدة.

هناك أربعة أشياء تقول العقول المستعبدة أنها مبَرَّرة. أولا : كل الأشياء التي تدوم، ثانيا : كل الأشياء التي لاتزعجنا، ثالثا : كل الأشياء التي نجني منها بعض الفائدة،

رابعا : كل الأشياء التي من أجلها قَدَّمْنَا تضحيات. هذه الأخيرة تفسر مثلا لماذا تستمر، وبحماس كبير، حرب بدأت والشعب لها كاره بمجرد ما تُقَدَّمُ التضحيات الأولى. - يجب على المفكرين الأحرار الذين يدافعون عن قضيتهم في مؤتمر العقول المستعبدة أن يبرهنوا أنه كان هناك دائما مفكرون أحرار، أن يبرهنوا إذن على أن الفكر الحر يدوم، ثم أنهم لايسعون لأن يكونوا مزعجين، وأنهم أخيرا، وإجمالا، يحملون بعض الفائدة للعقول المستعبدة ؛ لكن بما أنهم لن يستطيعوا إقناع هؤلاء بهذه النقطة الأخيرة فإنه لاجدوى من البرهنة على النقطة الأولى والثانية.

230. العقل القوي.

يُعتبر المفكر الحر ، إذا ما قورن بالذي يقف التقليد (tradition) إلى جانبه ولايحتاج إلى حجج يبرر بها فعاله، يُعتبر دائما ضعيفا، خاصة في فعاله، لأن لديه الكثير من البواعث ومن وجهات النظر التي صيرت يده مترددة وغير متمرسة. ماهي الوسائل التي ستجعله قويا نسبيا حتى يستطيع على الأقل أن يُثْبِتَ نفسه ولايضمحل سُدىً؟ كيف يُولَدُ العقل القوي؟ المسألة، في حالة منفردة، هي مسألة إبراز العبقرية. من أين تأتي الطاقة، القوة المتينة، التحمل، التي بها يسعى الفرد، ضد تيار التقليد، إلى اكتساب معرفة بالعالم تكون شخصية تماما؟

231. تَكَوُّنُ العبقرية.

قد تساعدنا البراعة التي يحاول بها السجين أن يفر، وكذلك برودة الدم والصبر الفائقان اللذان يستغل بهما أدنى فرصة، على فهم الطريقة التي بها تخلق الطبيعة عبقريا - كلمة أرجو أن تُفهم دون أية خلفية ميثولوجية أو دينية : إنها تحبسه في زنزانة وتُغيظُ رغبته في الفرار. أو، حتى نُعَبر بصورة أخرى : الذي ضل طريقه كلية داخل الغابة، لكنه يجهد في بلوغ البلدة المنبسطة بالسير في اتجاه معين بطاقة خارقة، قد يكتشف سبيلا جديدا لا يعرفه أحد؛ هكذا تَولَدُ العبقريات التي نحتفل بأصالتها. - لقد ذكرنا آنفا أن بَتْرَ عُضْوٍ، أو وجود ضُمور أو نقص بارز في عضو ما يوفر في الغالب فرصة لعضو آخر ليطور مزايا استثنائية بما أنه عليه أن يقوم بوظيفة زائدة على وظيفته. انطلاقا من هذا يمكننا أن نكتشف أصل الكثير من المواهب المتألقة. - من هذه الإشارات العامة حول تكون العبقرية سننقل التطبيق إلى هذه الحالة الخاصة، تَكَوُّنُ المفكر الحر الكامل.

232. تخمينات حول أصل الفكر الحر.

مثلما جبال الجليد تنمو حين ترشق الشمس بحار المناطق الاستوائية بنيران أقوى من السابق، يمكن كذلك لفكر حر قوي وفي أتم كماله أن يثبت أن هناك، في مكان ما، اضطراما شديدا للغاية في الإحساس.

233. صمت التاريخ.

بشكل عام، يبدو أن التاريخ يُعَلِّمُنَا عن تكوين العبقرية مايلي : أسيئوا معاملة الناس وعذبوهم (كذا يصرخ التاريخ بالأهواء، بالغيرة، بالحقد وبالحسد)، ادفعوهم إلى أقصى حد، الواحد ضد الآخر، طيلة قرون، وإذاك، ملتهبا كما لو بشرارة بعيدة منطلقة من الطاقة الهائلة التي تحررت بهذه الطريقة، ربما ينبثق نور العبقرية فجأة؛ إذاك ستَجْمَحُ القوة المعبأة، ستَجْمَحُ مثل حصان نخسه مهماز الفارس،وتقفز إلى مجال آخر. - إن الذي يتوصل إلى تكوين فكرة واضحة عن تكون العبقرية ويود أن يطبق الطريقة التي تستخدمها الطبيعة عادة، عليه أن يكون هو الآخر شريرا وقاسيا مثلها تماما. - لكن ربما لانكون قد سمعنا صوت التاريخ جيدا.

234. قيمة منتصف الطريق.

ربما كان تكوين العبقرية خاصا بمرحلة محدودة من عمر الإنسانية. إذا لايجب أن ينتظر المرء من مستقبله ما انتجته فقط بعض الظروف المعينة في لحظة مَا في الماضي، كآثار الإحساس الديني المدهشة مثلا. لقد كان لهذا الإحساس زمنه، وهناك أشياء ممتازة جدا لن تتكرر أبدا لأنه هو وحده القادر على خلقها. وهكذا لن يكون للحياة والحضارة أفق يحدده الدين. وربما لا يكون حتى نموذج القديس ممكنا إلا نتيجة لبعض الخجل في الذكاء سوف لن يتبقى منه أي أثر في المستقبل، على ما يبدو. ربما كانت ذُرى الذكاء مخصصة هي الأخرى لعصر واحد من عمر الإنسانية : لقد تمظهرت (وتستمر في التمظهر، لأننا نعيش ذلك العصر) في الوقت الذي اتجهت فيه طاقة هائلة تراكمت من الإرادة لمدة طويلة، اتجهت استثنائيا، بفعل الوراثة، اتجاها فكريا. سينتهي أمر هذه الذرى حين لاتعود هذه الطاقة الغفل خاضعة لمثل هذه التربية. ربما تكون الإنسانية، وقد بلغت منتصف الطريق، منتصف وجودها، قريبة من هدفها الخاص أكثر مما ستكونه عند نهاية الطريق. لربما يكون محكوما على بعض القوى بالإستنزاف التام، كتلك التي ينبع منها الفن، مثلا؛ وقد تزول حُظْوَةُ لذة الكذب والمبهم والرمزية والإنتشاء والإنخطاف. بل أكثر من ذلك، لو حدث أن الحياة انتظمت في دولة خالية

من العيوب فلن يعود ممكنا عثورنا على أي باعث من بواعث الشعر في الحاضر، ولن يتبقى آنداك مَنْ يطالب بالخيال الشعري سوى المتخلفون. سيلقي هؤلاء، على كل حال، نظرة حنينية إلى الوراء، على عصر الدولة الناقصة، عصر المجتمع النصف متخلف، على هذا العصر الذي هو عصرنا.

235. العبقرية والدولة المثالية في تناقض.

يطمح الإشتراكي إلى توفير الرفاهية لأكبر عدد ممكن من الناس. ولو أن مصدر هذه الرفاهية، أعني الدولة الخالية من العيوب، وجدت فعلا، فإن هذه الرفاهية ذاتها ستدمر الأرض التي عليها ينمو الذكاء الكبير، والفردانية القوية بشكل عام : أعني كل طاقة قوية. بمجرد مايتم تأسيس هذه الدولة ستكون الإنسانية قد استُنزفت بإفراط بحيث لن تستطيع إنتاج العبقرية. ألاينبغي إذن أن نتمنى احتفاظ الحياة بطبعها العنيف، ألا تكف عن إثارة وتجديد قواها وطاقاتها الفضة؟ والحالة أن القلب المتشوق، يريد بالضبط إلغاء هذاالطبع العنيف والفظ، وأشد القلوب التي يمكننا تخيلها شوقا سيكون هو الأكثر تشوقا للمطالبة بالإلغاء،ورغم ذلك فإن تشوقه يستمد ناره واضطرامه بل ووجوده ذاته من طبع الحياة الفظ والعنيف هذا؛ القلب الأشد شوقا يريد إذن إلغاء أساسه، إفناء ذاته، أي أنه يريد شيئا غير منطقي تماما، إنه ذكي. الذكاء الكبير والقلب المتشوق لايمكنهما أن يتعايشا في ذات الشخص الواحد، والحكيم الذي يُصدر حكما على الحياة يتعالى حتى عن الطيبة ويعتبرها، هلى أكثر تقدير، شيئا لامجال لإدخاله في التقييم الشامل للحياة. الحكيم مُرْغَمٌ على معارضة هذه الرغبات الطيبة الذكية، لأن المهم بالنسبة إليه هو بقاء نموذجه، وفي الأخير إنتاج ذكاء متفوق؛ إنه لن يكون، على الأقل، مع تأسيس «الدولة الخالية من العيوب»، مادام الأفراد المنهوكون هم وحدهم من يجدون مكانهم فيها. على العكس من ذلك، فالمسيح، الذي نتصوره هنا كالقلب المتشوق، قد يَسَّرَ تبليد الناس وانحاز إلى جانب العقول الضعيفة وكَبَحَ تَكَوُّنَ الذكاء المتفوق : وكان ذلك شيئا منطقيا. يمكننا التنبؤ بأن نظيره، أي الحكيم الكامل*، سيعارض حتما وجود المسيح في المجتمع. تعتبر الدولة مُؤَسَّسَة حكيمة أقيمت لغرض حماية الأفراد من بعضهم البعض، ولو بالغنا في تهذيبها فإن الفردف في نهاية الأمر، هو الذي سيضعف، بل سَيُلْغَى من جراء ذلك، - وبذلك يتلاشى جذريا هدف الدولة الأول.

* يعني العقل الحر عند نيتشه .

236. مناطق الحضارة.

يمكننا أن نقول، بشكل مجازي، أن مراحل الحضارة تقابل مختلف المناطق المناخية، باستثناء كون هذه المراحل تتوالى عوض أن تكون متجاورة مثل المناطق الجغرافية. إن المنطقة الحضارية التي اجتزناها تترك لدينا، إجمالا، ذلك الانطباع الذي يتركه المناخ المداري،إذا ما قارناها بالمنطقة الحضارية المعتدلة التي علينا أن نمضي إليها. هناك في الطبيعة تناقضات شديدة، تعاقب فجائي لليل والنهار، سعيرٌ وَلوَانٌ مزهر، تبجيلٌ لكل الظواهر المفاجئة والغامضة والمرعبة، فجائية العواصف، في كل مكان هناك فيض مفرط في قُرُون خصْب الطبيعة. ويواجه ذلك في حضارتنا سماء صافية، لكنها غير مشرقة بتاتا، هواء نَقي يكَاد لايتغير، شيء من الرطوبة، بل شيء من البرد أحيانا : هذا هو التناقض بين هاتين المنطقتين. حين نرى الأهواء الشديدة العنف وقد هزمتها وحطمتها قوة مخيفة هي قوة التمثلات الميتافزيقية فإنه يتكون لدينا نفس الإنطباع الذي تُخلفه رؤية نمور متوحشة تنعصر أمام أعيننا، في المناطق المدارية نفسها، بين حلقات أفاعي ضخمة جدا. تنقصُ مناخَنا الروحي مثلُ هذه المشاهد، خيالُنا معتدل، حتى في الحلم لانشاهد شيئا مما كانت الشعوب الماضية تراه بأم عينيها. لكن ألا يجدر بنا أن نهنيء أنفسنا على هذا التغيير، مع احتمال أن نُقر بأن زوال الحضارة المدارية يَضُر أساسا بالفنانين وبأن هؤلاء يجدوننا، نحن غير الفنانين، عاميين شيئا ما ؟ بهذا المعنى فإن للفنانين الحق كل الحق في أن يجحدوا ال «تقدم» ، لأنه في الواقع يمكننا، على الأقل، أن نشك في ما إذا كانت الألفيات الثلاثة الأخيرة شاهدة على حصول تقدم في الفنون. لن يكون لفيلسوف ميتافزيقي، مثل شوبنهاور، أي دافع كي يستنتج أن هناك تقدماً، لَوْ تأمل الألفيات الأربعة الأخيرة من زاوية الفلسفة الميتافزيقية والدين. - لكن بالنسبة لنا نحن فإن وجود منطقة حضارية معتدلة يعتبر هو وحده تقدما.

237. النهضة والإصلاح.

لقد حوت النهضة الإيطالية كل القوى الإيجابية التي تدين لها الحضارة المعاصرة بوجودها : تحرر الفكر، ازدراء السلطة، انتصار الثقافة على عجرفة الأصل، التحمس للعلم ولماضي الإنسانية العلمي، انعتاق الفرد، شعلة الصدق، النفور من الظاهر المحض والبحث عن الأثر (شعلة تفجرت في عدد كبير من طباع الفنانين متطلبة منهم الإتقان، بصفاء أخلاقي كبير، ولاشيء غير الإتقان في أعمالهم) : بل أكثر من ذلك، إن في حضارتنا المعاصرة قوى إيجابية عرفها عصر النهضة، لكنها لازالت لم تسترجع، حتى الآن نفس القوة التي كانت لها آنداك. لقد كانت النهضة هي العصر الذهبي في هذه

الألفية، رغم كل ما شابها ورغم كل عيوبها. مقابل ذلك نجد في هذه الخلفية الإصلاح الألماني، ذلك الاحتجاج الشديد من طرف ذوي العقول المتخلفة الذين لم ينالوا بغيتهم من الرؤية القروسطية للعالم، والذين كانوا يشعرون بضيق كبير، عوض الابتهاج المرغوب، من جراء رؤيتهم علامات تَفَسُّخ الحياة الدينية والتسطح الغريب الذي آلت إليه، والذين أعادوا الناس إلى الوراء بعنادهم كشماليين، وبأعمال عنف جديرة بحالة حصار أثاروا رد الإصلاح المضاد، رد المسيحية الكاثوليكية المشروع دفاعا عن النفس، وأخَّروا بقرنين أو ثلاثة ازدهار العلوم التام وهيمنتها بدون منازع،وربما جعلوا اندماج العقل القديم والمعاصر مستحيلا إلى الأبد. إن المهمة الكبيرة للنهضة لايمكن أن تنجح وقد عرقلها احتجاج العبقرية الألمانية التي بقيت في أثناء ذلك متخلفة (هي التي كانت على حق، في العصور الوسطى، حين عَبَرَتْ جبال الألب مرارا من أجل خلاصها).لقد تطلب الأمر حظ كوكبة سياسية غريبة كي يتمكن لوثر من البقاء ويتمكن هذا الاحتجاج من التَّقَوِّي: لأن الإمبراطور كان يحميه حتى يستخدم تجديدَهُ وسيلةَ ضَغْط على البابا، وكان البابا يشجعه سريا حتى يجعل من الأمراء البروتستانت داخل الإمبراطورية موازنين للإمبراطور. ولولا هذا التواطؤ الغريب لكان لوثر قد أُحْرِقَ مثل Huss *- ولكان فجر فلسفة الأنوار قد أشرق مبكرا شيئا ما وببريق أجمل من الذي يمكننا تصوره اليوم.

238. إنصاف الإله في حالة صيرورة.

حين ينبسط تاريخ الحضارة كله أمام أنظارنا في تشابك الأفكار القبيحة والنبيلة، الصحيحة والخاطئة، ويكاد منظر هذا التدفق يصيب الروح بالدوار، فإننا ندرك أي عزاء يوجد في تصور إله في حالة صيرورة : يكشف هذا عن نفسه تدريجيا في تحولات الإنسانية ومحنها،لا يصير كل شيء مجرد إوالية عمياء، مجرد تفاعل قُوىً دون غاية ولاسبب. إن تأليه الصيرورة منظور ميتافزيقي - كما لو من أعلى منارٍ يُطَل على بحر التاريخ - وجد فيه جيل من العلماء المغرمين جدا بالتاريخ عزاءهم؛ ولا ينبغي أن نغضب لذلك مهما يكن هذا التصور خاطئا. وحده الذي ينفي التطور، مثل شوبنهاور، لايشعر بأي شيء من بؤس هذا التدفق التاريخي، وبالتالي يستطيع، لكونه لايعرف ولايحس أي شيء من هذا الإله في حالة صيرورة ومن الحاجة إلى الإقرار بوجوده، يستطيع أن يُرخي العنان بعدل لتهكمه.

---

* جون هس مصلح ديني تشيكي ، أتهم بالهرطقة فاعدم حرقا . (م)

239. الثمار حسب الفصول.

كل مستقبلٍ أفضلَ نتمناه للإنسانية هو حتما مستقبل أسوأ بأكثر من اعتبار. إنه لهذيان،فعلا أن نعتقد أن مرحلة جديدة ومتفوقة من مراحل الإنسانية ستجمع كل مزايا المراحل السابقة، وأنه سيكون بمقدورها، مثلا، أن تحقق أسمى أشكال الفن. ذلك أن لكل فصل مزاياه ومفاتنه الخاصة، وهي تُقصي مزايا ومفاتن الفصول الأخرى. إن ما تولد عن الدين ونشأ بجواره لن يستطيع أن يولد من جديد بعد أن يتم تدمير الدين. قد يَحمل بعض الأبناء التائهين والمتأخرين على توهم شيء ما بشأن هذا الموضوع تماما مثلما تَحْملُ على ذلك ذكرى فن الماضي المتقطعة : إنها حالة تشي بإحساس بالضياع وبالإحباط، لكنها لاتبرهن على وجود قوة قادرة على خلق فن جديد.

240. وقار العالم المتنامي.

كلما تسامت ثقافة إنسان ما كلما كثر عدد مجالاتها التي تُفلت من سخريته، من هُزئه. لقد كان فولتير مُمْتَناً من أعماق قلبه للسماء بخصوص ابتكار الزواج والكنيسة، وهكذا فقد سَلَّانَا كثيرا، لكنه هو وعصره، وقلبه القرن السادس عشر، قد سَخِرُوا جيدا من هذه المواضيع حتى أنهم استنزفوها. كل الفكر الذي لانزال ننفقه في هذا الميدان باطل، وهو بالخصوص زهيد الثمن لحد أنه لن يثير رغبة المشترين .الآن نستخبر عن القضايا؛ إنه عصر الجد. من لايزال اليوم يقيم وزنا، من وجهة نظر السخرية، لتأمل الاختلافات بين الحقيقة والمظهر المُدَّعي، بين ماهو الإنسان ومايريد أن يمثله ؟ يُوَلِّدُ الإحساس بهذه المتناقضات أثرا مخالفا تماما بمجرد ما نسعى لأن نَسْبِرَ عمق الأشياء. كلما حاول الإنسان فهم الحياة كليا كلما نقص هزءه، اللهم إلا إذا انتهى إلى الاستهزاء ب «عمق فهمه».

241. عبقري الحضارة.

لو أردنا أن نتخيل عبقري الحضارة فماذا ستكون طبيعته ؟ إنه يستعمل أدواته، وهي الكذب والعنف وأشد الأنانيات فظاظة، بيقين كبير بحيث أننا لن نقول عنه إلا أنه كائن شيطاني وشرير، لكن نواياه،التي تشف هنا وهناك، نبيلة وحسنة. إنه سنتور، نصفه حيوان ونصفه إنسان، وله زيادة على ذلك أجنحة ملاك في الرأس.

242. تربية معجزاتية.

لن يأخذ الإهتمام الذي أُعْطِيَ للتربية كامل قوته إلا حين نكف عن الإيمان بمتعال واحد وبعنايته؛ فقد ازدهر الطب، هو الآخر، بمجرد ماكف الإيمان بالعلاجات الخارقة.

لكن الناس لايزالون في الوقت الحالي يؤمنون بالتربية المعجزاتية، لأنهم رأوا أن الفوضى الكبيرة ،اختلاط الأهداف، وعدم ملاءمة الظروف، قد انتجت أقوى الرجال وأخصبهم : كيف سيكون هذا ممكنا بشكل طبيعي ؟ - بدء من الآن سندقق النظر في هذا، قريبا سنُخضع حتى هذه الحالات لاختبار أكثر صرامة : ولن نكتشف فيها أية معجزات. بما أن الظروف متشابهة فإن كثيراً من الأشخاص يموتون باستمرار، بينما الفرد الذي تم إنقاذه، على العكس من ذلك، قد أخذ منها فائضا من الطاقة، نظرا لكونه تحمل هذه الظروف غير المواتية بفضل قوة فطرية لاتقهر، بل مارس هذه القوة ونماها : الشيء الذي يفسر المعجزة. إن تربية لاتؤمن بالمعجزة سيكون عليها أن تتأمل ثلاث نقط. أولا : كم هو مقدار الطاقة الموروثة ؟ ثانيا : كيف يمكن إيقاظ طاقات جديدة ؟ ثالثا : كيف نؤالف الفرد مع متطلبات الحضارة العديدة والمتعددة دون أن تربكه وتهدم وحدة كيانه، - باختصار، كيف يمكن وضع الفرد في مكانه ليكون طباق* الثقافة الشخصية والحياة العامة، كيف يمكنه أن يكون اللحن السائدة واللحن المصاحب في الوقت ذاته ؟

243. مستقبل الطبيب.

ليست هناك، في الوقت الراهن، مهنة تمكن صاحبها من الإرتقاء إلى الأعلى مثل مهنة الطبيب، خاصة منذ لم يعد في إمكان أطباء الروح، مديري الضمير المزعومين، أن يمارسوا مواهبهم كَمُعَزِّمِينَ (exorcistes) بموافقة عامة، ومنذ صار المثقفون يتجنبونهم. إن الطبيب، في الوقت الحالي، يدرك، قبل أن يبلغ قمة تكوينه الفكري، أحسن الطرق العصرية ويتمكن من ممارستها بشكل جيد، كما يعرف كيف يصوغ بسرعة تلك الاستنتاجات من الأثر إلى العلة التي [أي الاستنتاجات] تشكل مجد المشخصين. عليه أن يمتلك، فضلا عن ذلك، فصاحةً تناسب كل فرد على حدة وتُطير قلبه من جوفه، رجولة تكفي رؤيتها ليذهب الجبن (هذه الدودة التي تنخر كل المرضى)، مرونةَ دبلوماسي كي يعقد روابط بين من هم في حاجة إلى فرح كي يُشفوا وبين أولئك الذين، لأسباب صحية، عليهم (ويمكنهم) أن يمنحوا الفرح، دقة الشرطة ودقةَ المحامي كي يخُمن أسرار الروح دون أن يفشيها،- باختصار، يحتاج الطبيب الجيد اليوم في فنه إلى طرق وامتيازات كل نقابات الحرفيين الأخرى : مسلحا بهذا الشكل سيمكنه أن يصير ولي نعمة المجتمع بأسره، وذلك بالإكثار من الأعمال الخيرية، من متعة العقل وخصوبته، بتدارك الأفكار والنوايا السيئة، بتدارك الدناءات (التي غالبا ما يكون مصدرها المنفر هو البطن)، بإقامة أرستقراطية الجسم والعقل (بفضل الزيجات التي

* contre - point = لحن يضاف إلى لحن آخر على سبيل المصاحبة (المترجم) .

سَيُتمـها والتـي سيـمنعـها)، بجـعل حـد، بدافع الإحـسان، لكـل العـذابات الأخلاق وتبكيت الضمير المزعومة؛ هكذا سيتحول من «الطبيب المشعوذ» إلى مخُلَصٍ، دون يكون في حاجة، مع ذلك، إلى الإتيان بمعجزات، ولا إلى ارتقاء الصليب.

244. إلى تخوم الجنون.

إن مجمـوع أحاسيسـنا ومعارفنـا وتجاربنا، أي ثـقل الحضارة كلـه، قد تزايد بـشكـ كبير نتـج عنه تهيج الملكات الـعصبية والفكرية، وهو خـطر كبير : الطبقات المـثقفة ا البلـدان الأروبية كلـها عُصابية، وتـكاد لاتكون هـناك واحدة من كبـريات عائلاتـها يلامـس أحد أفرادهـا الجنون عـن قرب. هنـاك الآن طرق عـدة لاستعـادة العافـية، دو شك، لكن الشيء الذي يبقى ضرورياً بالأساس هو تخفيض كثافة الإحساس، تخفيد عبء الحضارة المرهِق، هذه الحـضارة التي، حتى وإن تكبدت خسائـر فادحة، لن تتر لنا مع ذلـك حرية ترجي تلـك النهضة الجديدة الـتي ستكون شيئـا عظيما. إننـا مدينو بـفيـض من العواطـف والإحسـاسات الـعميقـة للمسيـحية، لـلفلاسفـة، للـشعـ وللموسيقيين، وإن لـم نرُدها أن تخَنقنا بتكاثرها فلا بد لنا أن نتوسل إلى روح العلم الذ يجعلنا، إجمالا، بـاردين شيئا ما، شكوكيين شيئا ما، ويجمـد بشكل خاص نهر الإيم الجامح ويحولـه إلى حقائق أخيرة ونهـائية، ذلك النهر الذي جـعلت منه المسيحـية سيـ شديد الإندفاع.

245. الحضارة تُذَابُ كالجرس.

لقد اتخذت الحضارة شكلها، مثل جـرس، في قالـب مصنوع من مادة هي بالأحر فظة وعامية : نفاق وعنف وتوسع غيـر محدود يقوم به كل الأفراد وكل الشعوب، كـ لحسابه الخاص، هذا هو القالـب. هل حان أوان إفـراغ هذا القالب ؟ هل تجمد السكـ هل تمـاسكـت الغـرائز الصالحـة المفيدة وعـادات الروح النبـيلة وانتـشرت في كل مـك بحيـث لن تعود هـناك حاجة لـلجوء إلى الميـتافزيقـا وإلى أخطاء الـذين، لن تعـود هـ حاجـة لأية من هذه الـقساوات وأعـمال العنـف التي تشـكل الرابـط القوي بين إنـسـ وإنسـان، بين شـعب وشـعب ؟- لانـنتظـرن قط، كـي نجيـب علـى هذا الـسؤال مساعدةَ وإشارةَ إلـه ما : على بصيرتنا أن تقـرر هنا. على الإنسان نفسـه أن يمسك بيـ القياد العام للإنسانيةً، على «علمه بكـل شيء» أن يتيقظ كي يسهر منذ الآن على مصـ الحضارة.

246 . عمالقة الحضارة.

حين ننظر إلى هذه الأحواض المُثَلّمَة التي اتخذتها المَجْلَدَات فراشا لها فإننا قليلا ما نعتقد في إمكانية أن يأتي وقت ينبسط فيه في نفس المكان وادٍ غابي وفلاحي تتخلله الجداول. نفس الشيء ينطبق على تاريخ الإنسانية، القوى الأكثر همجية هي التي تفتح الطريق، وتكون هدامة في البداية، لكن نشاطها يكون، مع ذلك، ضروريا كي تتمكن نعومة الحضارة من تشييد منزلها مكانهَا لاحقاً. هذه الطاقات المرعبة - هذا نفسه الذي نسميه الشر - هي مهندسو الإنسانية المعماريون وروادها السيكلوبيون*.

247. الإنسانية تدور في حلقة.

ربما ليست الإنسانية سوى مرحلة من مراحل تطور جنس حيواني معين له مدة نمو محدودة : الإنسان الذي تطور من قرد سيعود قردا، ولن يكون هناك أي أحد ليهتم بهذه النهاية الغريبة للكوميديا. مثلما أدى انحطاط الحضارة الرومانية وسببه الرئيسي الذي هو توسع المسيحية إلى تبشيع شامل للإنسان في الإمبراطورية الرومانية، فمن المحتمل جدا كذلك أن تكون عاقبة الإنحطاط المحتمل للحضارة الأرضية في شموليتها هي تبشيع فظيع جدا للإنسان، لينحط في النهاية إلى حيوان ثم إلى قرد. - وبما أننا نستطيع التفكير في هذا الاحتمال فقد نستطيع تدارك انتهاء المستقبل إلى مثل هذا الأمر.

248. عزاءُ تقدمٍ ميئوس منه.

يعطي عصرنا انطباعا بكونه حالة مؤقتة، فالحضارات القديمة والتصورات القديمة عن العالم لاتزال باقية جزئياً، أما التصورات فلم تُرسخها العادة بعد، وبالتالي تَنْقُصُهَا الوحدة والتماسك. يبدو أن كل شيء يعود سديما، أن القديم يتيه، أن الجديد لايساوي شيئا ويضعف باستمرار. نفس الشيء ينطبق على جندي يتعلم المشية العسكرية، يكون في وقت ما مترددا وعديم المهارة أكثر من أي وقت مضى لأن عضلاته تتحرك تارة حسب النظام القديم وتارة حسب النظام الجديد، ولاتكون الغلبة النهائية لأي منهما. إننا نتأرجح، لكن لا ينبغي أن يجعلنا ذلك نقع في حيرة قد تدفعنا إلى التخلي عن المكتسب الجديد. علاوة على ذلك، يستحيل علينا أن نعود إلى القديم، لقد أحرقنا سفننا إلى الأبد، ويبقى علينا أن نكون شجعانا، مهما يكن ما سينجم عن ذلك.

* Cyclope : عملاق أسطوري له عين واحدة وسط الجبين .

– فلنسر، لنتحرك من مكاننا، هذا كل ما يلزم ! قد يأتي نوم تشبه فيه مشيتنا تقدما ما، رغم كل شيء، وإلا، فسيكون بإمكاننا دائما أن نكرر كلمة فردريك الكبير، لكننا سنكررها آنذاك على سبيل المواساة : آه ياعزيزي شولتزر، إنك لاتعرف هذا العرق الملعون الذي ننتمي إليه.

249. المعاناة من ماضي الحضارة.

يعاني الذي يكون فكرة واضحة عن مشكلة الحضارة، منذ لحظة تكوين تلك الفكرة، من نفس الإحساس الذي يعاني منه من ورث ثروة تم تجميعها بطرق غير شرعية، أو أميرا اعتلى الحكم بفضل أعمال العنف التي قام بها أسلافه. إنه يفكر بحزن في أصله، ويكون في أغلب الأحيان خَجِلاً وسريع الإنفعال. إن كمية الطاقة وإرادة الحياة والفرح التي يخصصها لثروته غالبا ما يوازنها ملل كبير : إنه لا يستطيع نسيان أصله. إنه ينظر إلى المستقبل بكآبة، فهو يعرف مسبقا أن ذريته ستعاني، مثله، من الماضي.

250 .العادات.

كلما انحسر تأثير البلاط والأرستقراطية المنغلقة على نفسها تتلاشى العادات الحسنة، ويمكن أن نلاحظ هذا التلاشي بدقة من عقد إلى عقد حين نعرف كيف نلاحظ فعال العامة التي تصير رعاعية بشكل جلي يوما عن يوم. لم يعد أحد يعرف كيف يحيي ويجامل بظرف، وينتج عن ذلك هذا الشيء المثير للسخرية، ففي الوقت الذي يكون فيه إبداء الاحترام المستحق (لرجل دولة كبير مثلا، أو لفنان كبير) شيئا واجبا، فإن الناس يستعيرون لذلك لغة العاطفة المشبوبة، لغة الولاء التام والدائم – بسبب الحرج، بسبب نقص الظرف واللطافة. حتى اللقاءات العمومية والرسمية تبدو مُتَصَنَّعة أكثر فأكثر، ومهما بدت ودية وصادقة فهي ليست كذلك. – فهل نكون قد بلغنا نقطة لاتستطيع عندها العادات التوقف عند المنحدر القاتل ؟ يبدو لي بالأحرى أنها ترسم تجويف منحنى وأننا نقترب من وضعها الأكثر انخفاضا. بمجرد ما يرسخ المجتمع آراءه ومبادئه لتتمكن من القيام بوظيفة تكوينية (بينما العادات التي يتعلمها الناس اليوم، وهي نتاج أوضاع قديمة، يتعلمونها وينقلونها وقوتها تتناقص كل يوم) ستكون هناك عادات في العلاقات، ستكون في معاشرة الناس حركات وعبارات ستبدو، في بساطتها، ضرورية وطبيعية مثل تلك الآراء والمبادىء. إن ما سينتج عنه كل ذلك هو التقسيم الأفضل للوقت والعمل، هو التمرين الرياضي المعدل كي يقترن بأحسن ساعات الفراغ، هو التأمل المتزايد والصارم منذ ذلك الحين، هذا كله الذي سيمنح للجسم ذاته

رهافة ورشاقة. - صحيح أنه يمكننا هنا أن نفكر، ببعض السخرية، في علمائنا : هم الذين يريدون أن يكونوا رواد هذه الثقافة الجديدة، هل يتميزون إذن بعادات أفضل ؟ قلما تكون تلك حالهم، مثلما يبدو لي، وإن كان ذهنهم ولاشك يقظا كفاية كي تريد ذلك طبيعتهم : ليست لهم بعد أية حرية في اتخاذ المواقف، لكونهم نصف رجال دين علمانيين ونصف مؤدبي كريمي النسب، مؤدبي طبقة النبلاء التي يخضعون لها، وهم، زيادة على ذلك، ضامرون ومحنطون بفعل إدعاء العلوم بنهجهم طرقا بليدة عفى عليها الزمن. إنهم لم يكفوا، فيما يخص جسدهم بكل تأكيد، وغالبا فيما يخص ثلاثة أرباع عقلهم، عن مغازلة ثقافة هرمة، بل شائخة، وبما هم كذلك فإنهم هم أنفسهم شائخون، أما العقل الجديد الذي يتحرك، من حين لآخر، في هذه الهياكل المسنة فلا يصلح في الوقت الراهن إلا لجعلهم حائرين وجبناء أكثر. إنهم مسكونون بأشباح الماضي كما بأشباح المستقبل : ما المدهش، منذ الآن، إن لم يظهروا بمظهر لائق، إن لم تكن هيأتهم لطيفة ؟

251. مستقبل العلم.

يمنح العلم الكثير من الرضى لمن يخصص له عمله وأبحاثه، لكنه يمنح القليل منه فقط لمن يحفظ نتائجه. وبما أن كل حقائق العلم الكبيرة تصير شيئا فشيئا تافهة وعامية فإن حتى هذا القليل من الرضى يختفي : لهذا لم نعد، منذ وقت طويل، نعثر على أدنى متعة في حفظ جدول الضرب، الرائع رغم ذلك. إذا كان العلم يجرد ما يواسي الناس، من ميتافريقا ودين وفن، من الكثير من المتعة، وإذا صار هو نفسه يمنحهم متعة أقل فأقل، فإنه سينضب، وهو أكبر منابع المتعة الذي يدين له الناس تقريبا بكل إنسانيتهم. لذلك سيكون على الحضارة المتفوقة أن تزود الإنسان بمخ مزدوج، بما يشبه مخين، واحد للإحساس بالعلم، والآخر للإحساس بما ليس علما : متقابلين، دون تطاول، قابلين للإنفصال وكَتُومَيْن؛ هذا ما تتطلبه العافية. يكون مصدر الطاقة في منطقة، وفي الأخرى يكون المُنَظِّم : يجب أن يتم التسخين بالأوهام، بالأفكار البليدة، بالإنفعالات، ثم يتم استخدام العلم البعيد النظر لتدارك النتائج الضارة والخطيرة التي قد تنجم عن تسخين مفرط. إذا لم نستوف شرط الحضارة المتفوقة هذا فإننا نستطيع أن نتنبأ بكل تأكيد بالمجرى الذي سيتخذه التطور الإنساني : سيختفي ذوق الحقيقة كلما قلت المتعة التي تمنحها؛ وسيستعيد الوهم والخطأ والأسطورة خطوة خطوة، نظرا لارتباطها بالمتعة، تلك الأرض التي كانت ملكا لهم فيما مضى؛ وستكون النتائج المباشرة لذلك هي خراب العلوم والانزلاق إلى الهمجية؛ سيكون على الإنسانية أن

تَشْرع من جديد في نسج نسيجها بعد أن تكون، مثل Pénélope ، قد نقضته ليلا. لكن من يضمن لنا أنها ستجد القوة دائما للقيام بذلك؟

252. لذة المعرفة.

كيف يحدث أن تكون المعرفة، التي هي مادة الباحث والفيلسوف، مقرونة باللذة؟ أولا، وبشكل خاص، لأننا نعي فيها قوتنا، إذن لنفس السبب الذي يجعل التمارين الرياضية تمنح متعة حتى في غياب المتفرجين. ثانيا، لأننا، أثناء البحث، نتجاوز في نفس الوقت تصورات قديمة ونتجاوز الذين يمثلونها، لأننا ننتصر عليهم، أو على الأقل نظن ذلك. ثالثا، لأن المعرفة الجديدة، مهما تكن بسيطة، تمنحنا إحساسا بأن مكانتنا أعلى من كل الآخرين، بأننا وجدنا من يمتلك الحقيقة بشأن هذا الموضوع. أسباب اللذة الثلاثة هذه هي الأهم، لكن هناك، حسب طبيعة الذات العارفة، أسبابا ثانوية كثيرة. – لقد سردتهُا في لائحة مهمة، في مكان لن يبحث عنها فيه، من خلال دراستي بخصوص شوبنهاور : القائمة التي أوردتها يمكن أن ترضي كل خادم محنك للمعرفة، حتى وإن تمنى محو ظل السخرية الذي يبدو منثورا على هذه الصفحات. إذ صحيح أنه «لابد أن تنصهر كمية من الغرائز ومن الغرائز الإنسانية الصغيرة جدا» كي تعطي ميلاد العالم، صحيح أن العالم من معدن نبيل جدا، ولاشك، لكنه خالص قطعا، وأنه «مكون من شبكة معقدة من الدوافع اللاّتقوم ومن البواعث المتعددة» يمكن أن نقول نفس الشيء عن تكون وطبيعة كل من الفنان والفيلسوف والعبقري الأخلاقي – وعن كل الأسماء الكبيرة الممجَّدة في هذه الدراسة، أيا تكن تلك الأسماء. كل الأشياء الإنسانية تستحق أن نتأملها، من جهة التكون، بسخرية : لذلك فالسخرية في العالم غير ضرورية.

253 . الوفاء، دليل الرُسوخ.

إنه لمن الأدلة القاطعة على جودة نظرية ما أن يكون صاحبها قد ظل وفيا لها أربعين سنة دون أن تخامره أدنى ريبة بخصوصها. لكنني أزْعُمُ أنه ليس هناك فيلسوف واحد لم تُفلت منه، في الأخير، نظرة ازدراء – أو على الأقل نظرة ريبة – تجاه الفلسفة التي أتى بها أيام شبابه. – لكنه ربما لم يقل شيئا عن ذلك التغير بدافع من الكبرياء أو – وهذا شيء محتمل لدى ذوي الطباع النبيلة – بدافع رِفْقِه بمُريديه.

254. امتداد المهم.

كلما تسامت ثقافة الإنسان كلما صار كل شيء مهما بالنسبة إليه، يعرف كيف بسرعة يجد الجانب المثقِّف في الشيء ويميز النقطة التي قد يسد عندها هذا الشيء فراغا في فكره أو يؤكد إحدى أفكاره. هكذا يزداد اختفاء الملل كل يوم، لكن في نفس الوقت يزداد اختفاء حساسية الروح المفرطة. ينتهي المرء بأن يصير وسط أمثاله مثل عالم الطبيعيات (naturaliste) وسط النباتات وبأن يعتبر نفسه ظاهرة يجب ملاحظتها، وهو ما يثير بقوة غريزة المعرفة لديه.

255 .خرافة التزامن.

يعتقد الناس أن الأشياء المتزامنة مرتبطة. يموت أحد الأقارب في مكان بعيد، وفي الوقت نفسه نراه في الحلم، ترون ذلك جيدا ! لكن عددا لايحصى من الأقارب يموتون دون أن نحلم بهم. إن مثل ذلك مثل الغرقى الذين ينذُرون على أنفسهم : لكننا لانرى في المعبد لاحقا نذور الذين غرقوا. – يموت شخص ما، ينعب البوم، وتتوقف الساعة : وتريدون ألا تكون هناك علاقة بين هذا كله ؟ مثل هذه الحميمية مع الطبيعة، التي يُقِرُّ بها هذا الحدس، تخدع الناس. يوجد هذا النوع من الخرافة، في شكل أكثر تهذيبا، لدى بعض مؤرخي الحضارة وبعض رساميها المصابين إجمالا بنوع من رُهاب الماء (hydrophobie) تجاه كل المصادفات العبثية التي تزخر بها، رغم ذلك، حياة الأفراد والشعوب.

256 .حيث يتدرب الناس بالعلم على السلطة وليس على المعرفة.

إن قيمة الممارسة الصارمة لعلم دقيق، لبعض الوق، لاتكمن بالضبط في نتائجه : لأن هذه الأخيرة لاتشكل سوى قطرة متناهية في الصغر من بحرٍ ما هو جدير بأن يُعْرَف. لكننا نفيد منها فائضا من الطاقة، من المنطق الاستنتاجي، من الصلابة في المجهود المستمر. لقد تعلمنا أن نبلغ الهدف بوسائل تناسب هذا الهدف. بهذا المعنى يعتبر شيئا ثمينا أن يكون المرء قد اشتغل بالعلم ولو مرة واحدة في حياته، نظراً لِكُلٍّ ما سيقوم به لاحقاً.

257. فتنة العلم الفتوية.

لقد احتفظ البحث عن الحقيقة، في الوقت الراهن، بسحر المعارضة القوية، في كل النقط، للخطأ الذي صار مُنْهَكاً ومملا، لكن هذا السحر يسير نحو التلاشي. صحيح أن

العصر الذي نحياه الآن لايزال عصر شباب العلم، وعادتنا هي اتباع الحقيقة كما نتبع فتاة حسناء، لكن حين يأتي اليوم الذي تصير فيه امرأة ناضجة وذات نظرة شرسة، فما الذي سيحدث ؟ إن الحقائق الأساسية، في كل العلوم تقريبا، لم يُعْثَرْ عليها إلا حديثا جدا، أو مازال البحث عنها جاريا، هذه لحظة فتانة أكثر من تلك التي لن يتبقى فيها للباحث، وقد تم اكتشاف الأساسي كله، سوى لقاطة تافهة من الخريف (وهذا إحساس قد يصير مألوفا لدينا في بعض المواضيع التاريخية).

258. تمثال الإنسانية.

يتبع عبقري الحضارة طريقة Cellini وهو يسبك تمثال Persée : أوشكت المادة المذابة ألا تكفي، لكن كان لزاما أن تكفي، لذلك قذف فيها بالصحون والأطباق وكل ماكان يقع في يده. وعبقرينا كذلك يقذف في السبك بالأخطاء، بالرذائل، بالآمال، بالأوهام، وبأشياء أخرى من معدن بخساً كان ثمنه أم غالياً، لأنه يتحتم قطعا أن يخرج تمثال الإنسانية كاملا من القالب، لذلك ما أهمية المادة الرديئة التي تكون استعملت هنا أو هناك ؟.

259 . حضارة رجولية.

كانت الحضارة الإغريقية في عصرها الكلاسيكي حضارة رجال. أما فيما يتعلق بالنساء فبريكليس يستنزف هذا الموضوع بهذه الكلمات في خطاب مأتمي : أكبر مزايا النساء هي أن الرجال يتحدثون عنهن بأقل مايمكن في ما بينهم. - كانت العلاقات الإيروسية بين الرجال والمراهقين، عند درجة تتجاوز فهمنا، هي الشرط الوحيد والضروري في كل هذه التربية الرجولية (تقريبا مثلما الحب والزواج عندها هما اللذان كانت النساء مدينات لهما، لوقت طويل، بتربيتهن السامية قليلا)؛ كل ما كان هناك من مثالية القوة في الطبع الإغريقي تم نقله إلى هذه العلاقات، وقد كان ما حظي به شباب القرنين السادس والخامس من العناية والحنان والاحترام المطلق من طرف أفاضلهم شيئا لانظير له، - مصداقا لحكمة هولدرلين الرائعة : «حين يُحب المرء فإنه يعطي أفضل ما لديه.» فكلما أقيم وزن كبير لهذه العلاقات كلما انخفضت مخالطة الرجال للنساء : فما كان يؤخذ بعين الاعتبار بينهما هو التناسل والشهوة، لم تكن مخالطتهما ثقافية ولم يكن فيها حب حقيقي. إذا تفكرنا كذلك أن النساء كن مقصيات من الألعاب والعُروض، فسندرك أن الغذاء الروحي الوحيد النبيل شيئا ما الذي تبقى لهن هي العبادات الدينية. - إن صح مع ذلك كونهن كنَّ يلعبن أدوار أنتيجونة (Antigone)

وإلكترا فَلأَنَّ الإغريق كانوا يطيقون ذلك في الفن وإن لم يكونوا يريدونه في الحياة : كذلك نحن اليوم، لانطيق أدنى شيء محزن في الحياة، لكننا نحب عرضه في الفن. – لم يكن للنساء من واجب آخر غير إنجاب أجساد جميلة وقوية يستمر من خلالها الطبع الأبوي سالما قدر الإمكان، وبذلك يُقَاوَمُ التهيج العصبي الذي كان ينتصر داخل حضارة تمثل ذلك الرقي. ذلك ما أمن للحضارة الإغريقية شبابا أطول نسبيا، لأن عبقرية اليونان كانت دائما تجد في الأمهات الإغريقيات طريق الطبيعة.

260. الحكم المسبق في صالح الرفعة.

يبالغ الناس، بشكل جلي، في تقدير كل ماهو رفيع وسام. ومصدر ذلك هو تأكدهم الواعي أو اللاشعوري من العثور على بعض المنفعة في استعمال فرد ما قوته كلها في ميدان واحد وتحوله إلى مايشبه عضوا واحدا وهائلا. أكيد أن التطور المتوازن لقواه سيحقق للإنسان سعادة ومنفعة أكثر؛ لأن كل موهبة كبيرة تمتص دم ونسغ القوى الأخرى، والإنتاج المبالغ فيه قد يقود صاحب الموهبة الكبيرة إلى الجنون تقريبا. في الفنون كذلك تسترعي الطباع العنيفة الإنتباه كثيرا، ومع ذلك فإن من يفتتن بها لابد أن يكون ذا ثقافة محدودة جدا. فالناس يخضعون، بحكم العادة، لكل ما يطمح إلى القوة.

261. طغاة العقل.

المواضع الوحيدة التي تتألق فيها حياة الإغريق هي التي ينيرها شعاع الأسطورة، أما المواضع الأخرى فهي معتمة. والحالة هذه فأن الفلاسفة الإغريق يحرمون أنفسهم من هذه الأسطورة : أليس ذلك كما لو أنهم أرادوا المُرُورَ من الشمس إلى الظل، ليدخلوا في العتمة ؟ لكن النباتات لا تفر من الشمس. لقد كان هؤلاء الفلاسفة، في الحقيقة، يبحثون عن شمس ساطعة أكثر، فالأسطورة لم تكن في نظرهم صافية جدا، لامعة جدا. كانوا يجدون ذلك النور في معرفتهم، في ما كان كل واحد منهم يسميه «حقيقته». وقد كانت المعرفة، في ذلك العصر، تشع ببريق أقوى من بريقها اليوم، كانت لاتزال تأمل، في تلك اللحظة، أن تبلغ، بقفزة واحدة، عمق الكينونة نفسها ومن ثمة تحل لغز العالم. لقد كان لهؤلاء الفلاسفة إيمان راسخ بأنفسهم كما ب «حقيقيتهم»، وكانوا يهزمون به جيرانهم والسابقين عليهم، كان كل واحد منهم محْرَباً وعنيفا، كان طاغية. من المحتمل ألا تكون السعادة التي يمنحها الإيمان بامتلاك الحقيقة قد بلغت هذا القدر الهائل أبدا من قبل في العالم، وكذلك القسوة والغطرسة والجانب الجبروتي والقبيح في ذلك الإيمان. لقد كانوا طغاة، وهو نفس ما كان كل

إغريقي يود أن يكونه، والذي يكونه كل واحد بمجرد ما يقدر أن يكونه. ربما كان الإستثناء الوحيد هو Solon* ، إنه يروي في قصائده كيف احتقر الطغيان الشخصي. لكنه قد صار طاغية بسبب حبه لأثره ولتشريعه، وأن تكون مشرعا فذاك نوع مُصَعَّد (sunlimée) من الطغيان. بارمنيدس وضع قوانين هو الأخر، و كذلك فيتاغورس وأمبيدوكل، أنا كسيماندر شيَّدَ مدينة. أفلاطون كان هو الرغبة المجسَّدة في أن يكون أكبر مُشرع و مؤسس للدولة الفلسفية، ويبدو أن معاناته من فشله في تحقيق كيانه هذا كانت فظيعة، ففي أواخر حياته امتلأت روحه بالحقد الأشد سوادا. كلما فقدت الفلسفة اليونانية من قوتها كلما عانت بشدة من هذا الحقد ومن هذه الفظاظة. حين نزلت الطوائف المختلفة إلى الشوارع تدافع عن حقائقها امتلأت أرواح مدعي الحقيقة كلهم حسدا وسما، كان سم الطغيان يعيث في أجسامهم. كان كل هؤلاء الطغاة الصغار سيلتهمون بعضهم نيئين، لم تكن قدتبقَّت فيهم أدنى شرارة حب، ولا الشيء الكبير من متعة علمهم. - إجمالا، فإن الحكمة القائلة بأن الطغاة يموتون في الغالب بالإغتيال، وبأن لخَلَفهم حياة قصيرة جدا، تنطبق كذلك على طغاة العقل. تاريخهم قصير، مليء بأعمال العنف، ويتوقف تأثيرهم بشكل مفاجيء. يمكننا القول أنه يبدو أن كبار الهلينيين قد أتوا متأخرين جدا، وكذلك أسخيلوس وبيندار وديموستين وثوسيديد، بمجيء الجيل التالي لهم يكون أمرهم قد قضيَ إلى الأبد. هذا هو الشيء العنيف والمحزن في تاريخ الإغريق. صحيح أننا اليوم نهيم بإنجيل السلحفاة. فأن تفكر كمؤرخ، في وقتنا الراهن، يكاد يعني أن تعتقد أن التاريخ قد تشكل عبر كل العصور حسب هذا المبدأ : «القيام بأقل عمل ممكن في أطول مدة ممكنة». آه، كم يسرع التاريخ الإغريقي ! لم يعش أحد قط بمثل هذا الإسراف وهذا الإفراط. إني لا أتمكن من إقناع نفسي بأن تاريخ الإغريق قد اتخذ هذا المجرى الطبيعي الذي نمجده به. نظرا للكثرة المفرطة لمواهبهم المختلفة فإنهم لم يتبعوا خطوة خطوة ذلك التقدم المستمر الذي هو تقدم السلحفاة في سباقها مع أخيل (Achille) : هذا نفسه الذي يسميه الناس تطورا طبيعيا. لدى الأغريق يكون التقدم بسرعة، ولكن الأفول يتم هو كذلك بسرعة. إن حركة الآلهة كلها مُسَرَّعَةٌ إلى درجة تكفي معها حصاة واحدةُ ترمى في دواليبها كي تنفجر الآلهة. وقد كان سقراط واحدة من هذه الحصيات، ففي ليلة واحدة تم تدمير تطور العلوم الفلسفية المنتظم بشكل رائع حتى ذلك الوقت، لكن السريع دون شك. ليس سؤالا عديم الفائدة أن نتساءل إن لم يكن أفلاطون قد عثر، بعد أن أفلت من

* مشرع أثينا الشهير ، وهو واحد من حكماء اليونان السبعة (م).

الافتتان بسقراط، على نموذج أسمى من الإنسانية الفلسفية، نموذج فقدناه الآن إلى الأبد. إن العين تبصر، وهي تسبر العصور التي سبقته، ما يشبه معملا ينحت فيه تمثال هذا النموذج. رغم ذلك فإن القرنين السادس والخامس يبدوان واعدين بأكثر وبأفضل مما قد أعطياه، لكنهما لم يتجاوزا الوعد والتباشير. قلما تكون هناك خسارة أفدح من فقدان النموذج، فقدان إمكانية حياة فلسفية جديدة وسامية، حياة ظلت مجهولة حتى ذلك الحين. إن أغلبية النماذج القديمة لايعرفها التقليد (tradition) جيدا، يبدو لي وصف كل الفلاسفة، من طاليس إلى ديمقريط، صعبا للغاية، لكن النجاح في إعادة خلق هذه الوجوه يعني استعراض أشكال النموذج الأكثر صفاء وقوة. هذه الكفاءة نادرة، والحق يقال، بل إنها كانت تنقص إغريق المرحلة المتأخرة الذين اشتغلوا بمعرفة الفلسفة القديمة. يبدو أرسطو، بالخصوص، وكأنه لايملك عيونا يرى بها حين يجد نفسه أمام هذه الشخصيات. وبذلك يبدو هؤلاء الفلاسفة الرائعون وكأنهم عاشوا دون جدوى، أو أن قدرهم كله لم يكن سوى تهييء الفيالق المتجادلة والثرثارة، فيالق المدارس السقراطية. قلت إن هنا ثغرة وتوقفا في التطور، لاشك أن مصابا عظيما قد حدث، والتمثال الوحيد الذي كان سيجعلنا نعرف معنى وهدف تمارين النحت العظيمة هذه ربما يكون قد تحطم أو لم يتم إنجازه : إن ماوقع فعلا قد بقي إلى الأبد سر المعامل – إن ما حدث لدى الإغريق – هو أن كل مفكر عظيم تحول إلى طاغية بفعل اعتقاده أنه قد ملك الحقيقة المطلقة، حتى أن تاريخ العقل قد اكتسى لديهم طابع العنف والتهور المحفوف بالمخاطر اللذان يشهد عليهما تاريخهم السياسي – إن هذا لم يكن كافيا لاستنزاف هذا النوع من الأحداث : لقد حدث الكثير مما يشبهها حتى العصور القريبة جدا إلى عصرنا، وإن كان ذلك يزداد ندرة كلما تقدمنا زمنيا، ويكاد الوقت الحاضر يخلو من وعي الفلاسفة الإغريق النقي والساذج. ذلك لأن الأطروحة النقيضة والشكوكية تتكلمان اليوم بصوت عال جدا، وبوضوح كبير. إن مرحلة طغاة العقل قد ولت. لاشك أنه سيكون هناك بالضرورة سيادة في مناطق الثقافة العالية، – لكن السيادة توجد منذ الآن بأيدي أوليغارشي العقل*. إنهم يشكلون، رغم انقساماتهم الجغرافية والسياسية، مجتمعا متضامنا يتعارف أعضاؤه ويتعرفون على بعضهم، مهما تكن الآراء المؤيدة أو المضادة التي يتداولها الرأي العام، ومهما تكن أحكام الصحفيين وكتاب الروايات المسلسلة الذين يؤثرون في الطبقات الشعبية. إن التفوق الثقافي، الذي كان فيما مضى مصدر العزلة والعداوة قد صار الآن يخلق بالأحرى رابطا : كيف

* أوليغارشي (oligarque) = عضو في أومؤيد لحكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق منافع الذاتية . (المورد) .

سيمكن للأفـراد أن يثبتوا أنفسهم ويتـبعوا طريقهم الخاص خلال أمواج الحياة، سابحين ضد التيـارات، إن لم يروا أمثالهم يـعيشون هنا وهـناك في ظروف مشابهـة ولم يأخذوا بأيديـهم في صراعـهم ضد الطـبع الدهمانـي لنصف الـذكاء ونصف الـثقافة كـما ضد المحاولات المحتـملة لتوطيـد الطغيان بمساعدة عمل الـطبقات الشعـبية ؟ الأوليغـارشيون ضروريون لبـعضهم البعض، فيـما بينهم يجدون فـرحتهم الكبرى ويدركـون العلامات التـي تميزهـم - لكن يـبقى كـل واحد منهـم حُراً مع ذلك، يـحارب وينـتصر لـطبقـته، مفضلا الهلاك على الخضوع.

262. هوميروس.

ويظل أهـم حدث في الثقـافة الإغريقية هـو إشعاع هوميـروس البكِّير على مـجموع العالم الهليني. كل الحرية الفكرية والإنسانية التي بلغها الإغريق ترجع إلى هذا الحدث. لكنه كان، في الوقت نـفسه، نكبة الثقافة الإغريقية، لأنه، ونظـرا لاستئثاره بكل شيء، قد نزع عنـها عمقها وقـضى على الجدية الكـبيرة للغرائز الميالة نحو الاستـقلال. كانت أعماق الروح الهلينية، من حين لآخر، تجهر باحتجاجها ضد هوميروس، لكنه كان دائما ينتصـر. كل القوى الروحيـة الكبيرة تمارس، إلـى جانب تأثيرهـا التحريري، تأثـيرا آخر، تأثيرا مضطهدا؛ لكن هناك فرق، بكل تأكيد، بحسب الذي يضطهد الناس، هوميروس أو الإنجيل، أو العلم

263. مواهب طبيعة.

في خضـم إنسانيتنـا المتطورة بشـكل سام جدا تمنـح الطبيعة كـل واحد منا إمكـانية الحصول على مواهب متعددة. لكل واحد موهبة فطرية، لكنه نادرٌ من تُنعم عليه الطبيعة والتربية بهذه الدرجة من الصلابة، من التحمـل، ومن الطاقة التي ستمكنه من أن يصبح موهوبا فعلا، إذن أن يصير ماهو،أي أن يحيل موهبته آثارا وأعمالا.

264. النبهاء بين المغالاة في التقدير والانتقاص منه.

بعـض الأشخاص الأجـانب عن الـعلم، لـكن الموهـوبين، يُقدرون كـل مايدل عـلى العقل، ولايهم أن يكون صحيحا أو مجانبا للصواب، إنهم يريدون، قبل كل شيء، من الذي يـعاشرهم، أيـا كان، أن يتعـهدهم بلـطف من خلال عـقلهم، أن يُرشـدهم، أن يُحمسهم، أن يَجذبهم إلى الوقار كـما إلى المزاح، وأن يكون لهم، على كل حال، رُقْيَةً شديدة المفعول ضد الملل. ذوو الطباع العلمية يعرفون، على العكس من ذلك، أن موهبة التوقُّد أفكارا يـجب أن تمسك بمزمامها روحُ العـلم أكثر ما يمكن، إن الثمـرة التي ترغب

هذه الروح أن تُسقطها من شجرة المعرفة ليست هي مايلمع ويجذب بظاهره بل الحقيقة المجردة من الظاهر في الغالب. يمكن ألا تُفرقَ روح العلم، مثلها مثل أرسطو، بين «الملل» وبين «الروحي»، شيطانها يقودها عبر الصحراء كما عبر النباتات المدارية لكي تجد، في كل مكان، متعتها في الواقعي وحده، في الصَّلب، في الحقيقي. – ينتج عن ذلك، لدى العلماء المحدودي الأفق، نوعٌ من الازدراء، ريبةٌ بخصوص النابه بشكل عام، وغالبا ما تكون هناك، بالمقابل، عقول نابهة تبدي نفورا من العلم : مثلما هو شأن سائر الفنانين، على سبيل المثال.

265. العقل في التعليم.

ليس للمدرسة مهمة أكبر من تعليم الدقة في الفكر، الحذر في الحكم، المنطقية في التفكير : كما عليها أن تغض النظر عن كل ما لا يصلح لهذه العمليات، كالدين مثلا. بل يمكنها أن تعتبر أن اللبُّس والاعتياد والحاجة الإنسانيين سيعودون فيما بعد، رغم كل شيء، لإرخاء قوس الفكر الشديد التوتر. ومادامت تمارس تأثيرا فإن واجبها هو إبراز الشيء الأساسي والمميِّز في الإنسان : «العقل والعلم، ميزتا الإنسان الساميتان» – حسب حكم غوته على كل حال. – يجد عالم الطبيعة، فون باير، تفوق كل الأروبيين، بالنسبة إلى الأسيويين، في قدرتهم المكتسبة على تبرير ما يعتقدونه، الشيء الذي يعجز عنه الآخرون تماما. لقد ولجتْ أروبا مدرسةَ الفكر المنطقي والنقدي، وآسيا لازالت لاتعرف كيف تميز بين الحقيقة والشعر، ولا أن تتنبه بوضوح إلى ما إذا كانت يقينياتها تنبع من الملاحظات الشخصية ومن الفكر المنطقي أم من التخيلات المحضة. – إن العقل في التعليم هو الذي جعل من أروبا ماهي عليه الآن : كانت إبان العصر الوسيط تسلك طريقا يقودها لأن تعود منطقة من آسيا، ملحقة لها، – أي لأن تفقد الروح العلمية التي هي مدينة بها للإغريق.

266. الغض من شأن نتائج التعليم الثانوي.

إننا نادرا ما نبحث عن قيمة الثانوية في الأشياء التي نتعلمها فيها والتي تغنينا بها إلى الأبد، بل نبحث عنها، على العكس من ذلك، في الأشياء التي يتم تدريسها فيها والتي لايتمثلها التلميذ إلا على مضض ليتخلص منها بأسرع مايمكنه. – كل المثقفين سيوافقون على أن قراءة الكلاسكيين هي، مثلما تمارس في كل مكان، روتين فظيع : أمام شبان ليسوا ناضجين بأي اعتبار من الاعتبارات كي يسمعوها يقوم بهذه القراءة أساتذة تكفي كل كلمة من كلماتهم، بل يكفي وجههم نفسه، ليُغْرِقَ مُؤَلِّفاً جيدا

وسط الغبار. وهنا بالضبط تكمن القيمة التي نجهلها عادة، ألا وهي كون هؤلاء الأساتذة يتحدثون لسان الثقافة العالية المجرد، وهو لسان ثقيل وعسير الهضم، ولكنه رياضة عالية للمخ، ذلك أنه تظهر باستمرار في هذا اللسان مفاهيم ومصطلحات تقنية ومناهج وتلميحات لايكاد هؤلاء الشبان يسمعونها أبدا في أحاديث عائلاتهم أو في الشارع. حين لا يفعل التلاميذ شيئا سوى الاستماع فإن ذكاءهم يتكيف مسبقا وبشكل تلقائي، من جراء ذلك، مع شكل علمي من التفكير. لايمكن أن يخرج التلميذ من هذه المادة ابنا خالصا للطبيعة، بعيدا كل البعد عن التجريد.

267. تعلم عدة لغات.

تعلم عدة لغات يشحن الذاكرة بالكلمات عوض الوقائع والأفكار، والحالة أن الذاكرة وعاء لا يمكنه أن يتلقى، بالنسبة لفرد معين، سوى كمية محدودة من المواد. هناك في هذا التعلم جانبا مضرا هو كونه يحمل المرء على الاعتقاد بأنه ذو مهارات وبأن هذا التعلم يجعله فاتنا في تعامله مع الناس؛ ثم كذلك، وبشكل غير مباشر، كونه يتعارض مع اكتساب معارف متينة ومع التصميم الراسخ على نيل احترام الناس بنزاهة، وأخيرا، إنه يقطع جذر ذلك الإحساس اللغوي الرقيق الذي نحس به تجاه لغتنا الأم : إنه يصاب من ذلك بضرر ودمار لاعلاج لهما. الشعبان اللذان أنجبا أكبر الكتاب الأنيقي الأسلوب، أي الأغريق والفرنسيون، لم يكونا يتعلمان اللغات الأجنبية. - لكن بما أن التعامل مع الناس يأخذ حتما صبغة عالمية أكثر فأكثر، وأن تاجراً لندنيا جيدا، مثلا، قد أصبح ملزما بالتعبير عن مراده بثمان لغات، شفهيا كما كتابة، فيجب أن نُقر بأن دراسة عدة لغات هو شرٌ لابد منه، لكنه شر سينتهي، عند بلوغه ذروته، بإرغام الإنسانية على إيجاد علاج له. وفي مستقبل بعيد، وغير محدد، ستكون هناك لغة جديدة بالنسبة لكل الناس، لغة تجارية أولا، ثم لغة معممة للتعامل الفكري، بالتأكيد مثلما ستوجد يوما ما ملاحة جوية. وإلا فلماذا تكون اللسانيات قد درست قواعد اللغة، لمدة قرن من الزمان، وَقَيَّمَتْ ما تحويه كل لغة من حتمية، من قيم، ومن تفوقات !

268. عن التاريخ الحربي لكل فرد.

في حياة الإنسان الواحدة التي تمر عبر عدة مراحل من الثقافة نجدُ مجموعاً ذاك الصراع الذي يدور بين جيلين، جيل الأب وجيل الإبن. وثاقة القرابة تزيد من حدة هذا الصراع، لأن كل طرف يقذف فيه، دون تحفظ، بالحياة الداخلية للآخر التي يعرفها جيدا، وهكذا يكون هذا الصراع أشد ضراوة داخل الفرد المنفصل، في هذه الحالة تتغاضى كل مرحلة جديدة عن المراحل السابقة بظلم قاس ينكر منها الغايات والوسائل.

269. السبق بفسحة زمنية.

يحدث أن نجد شـخصا ترفعه أفـكاره فوق زمانه، لكـنها ترفعه فـقط بما فيه الكـفاية ليحدس الأفكـار العامية للسنوات العـشر الآتية .إنه يملك الرأي العام قـبل أن يكون رأيا عاما، أي : إنه يـعانق، فسحة زمنـية قبل الآخرين، رأيـا جديرا بأن يصير مـبتذلا. ورغم ذلك فأن مَجْدَهُ عادة ما يكون أكثر بهاء من مجد العظماء والمتفوقين فعلا.

270. فن القراءة.

كل ميـل محدَّد جدا فـهو ميل قـصير النـظر. يقتـرب في اتجاهه مـن الخط المستـقيم ويكون، مـثله ، مانـعا (exclusif) ، أي أنه لايـسيـر في اتجـاهات أخـرى مثـلمـا تفـعل الأطراف والطباء الضعيـفة في اهتزازاتها التموجية. إن كان الفلاسـفة مانعين فيجب أن نتحمـل منهم ذلك. إن تصحيـح النصوص والتحدث إليـها، وكذلك تفسيرهـا،اللذين دأبت عليهما هيأة ما، طيلة قرون، قد أديا في الـنهاية إلى العثور اليوم على الطرق الجيدة في تصـحيح ومحادثـة وتفسيـر النصوص. لقـد عجز العصـر الوسيط كـلية عن تفـسير النصـوص تفسيرا فيلولوجيا بحصر المعـنى، أي عجز عن الرغبة المجردة والبسيطة في فهم ما يقوله الكاتب. لقد كان اكتشاف هذه الطرق شيئا جديرا بالإهتمام، لذا وجب أن لا نغض من شأنه ! لم تكتسب كل العلوم استـمرارية وثباتا إلا حين بلغ فن القراءة الجيدة، أي فقه اللغة، ذروته.

271. فن التفكير.

إن أكبر تقدم حققه النـاس هو كونهم تعلموا أن يفكروا بدقة. ليس هـذا شيئا طبيعيا جدا مثـلما يفـترضه شوبنـهاور حين يقـول «كل الناس قـادرون على التفـكير، قلـيل من الناس مـن يستطيـع أن يُصدر حكما»، ولـكن التفكـير شيء تم اكتسـابه بشكـل مـتأخر ولازال لم يـثبت سلـطته. في الـعصور الـقديمة، كان الـتفكـير الخطأ يـشكل القـاعدة : وميثولوجيات كل الشعوب، سحرها وخرافتهـا، عبادتها الدينية، قانونها، كل هذا مَعين لاينضب من الحجج المؤيدة لهذا الإفتراض.

272. مراحل الثقافة الفردية.

إن قوة وضعـف الإنتاجية الـفكرية لايجـب أن يتوقفا كـثيرا على المـواهب الطبيـعية الموروثة ولا على كمية الطاقة التي يتم تلقيها عند الولادة. فأغلب الشباب المثقفين، حين يبلغون الثلاثين من العمر، يعودون أدراجهم انطلاقا من هذا المُنقَلَب* المبكر في حياتهم

*solstice انقلاب الشمس الشتائي أو الصيفي . (المنهل) .

ويفقدون منذ ذلك الحين ذوق اتجاهات ثقافية جديدة. تحتاج الثقافة التي لا تتوقف عن النمو، من أجل خلاصها، إلى جيل لن يتقدم رغم ذلك إلا قليلا : إذ لكي يسترد ابن ثقافة أبيه سيكون عليه أن ينفق تقريبا كل الطاقة الموروثة التي كان أبوه يمتلكها في تلك اللحظة التي انجبه فيها؛ إن الفائض القليل من الطاقة هو الذي يُمَكنه من الذهاب أبعد من أبيه(لأننا حين نمر من نفس الطريق للمرة الثانية فإننا نتقدم بسرعة أكبر. والإبن، لكي يتعلم ما كان أبوه يعرفه تماما، لا يستهلك نفس القدر من الطاقة الذي استهلكه أبوه). إن رجالا أغنياء بالطاقة، كغوته مثلا، يقطعون هم لوحدهم من الطريق مقدار ما قد تقطعه أربعة أجيال متعاقبة؛ ومع ذلك يتقدمون بسرعة بحيث لن يلتحق بهم الآخرون إلا في القرن الموالي، وربما لن يلحقوا بهم أبدا، نظرا لكون هذه التوقفات المتكررة قد أضعفت وحدة الثقافة واستمرارية تطورها. - أما فيما يتعلق بالمراحل العادية للثقافة الفكرية المكتسبة عبر تاريخ الإنسانية فإن الناس يجتازون الواحدة منها تلو الأخرى بشكل أسرع. إنهم، حاليا، يبدأون أول اتصالهم بالثقافة من خلال العواطف الدينية التي تعرفها مرحلة الطفولة، وفي غضون عشر سنوات يكونون قد أوصلوا هذه الأحاسيس إلى أقصى درجات حرارتها، ليمروا بعد ذلك إلى أشكال ملطفة (وحدة الوجود) وهم يقتربون من العلم، يتركون الإله والخلود وأشياء أخرى من نفس الصنف بعيدا جدا وراءهم، لكن ليستسلموا لسحر فلسفة ميتافيزيقية. وتنتهي هذه هي الأخرى بأن تبدو لهم غير جديرة بالتصديق، ويبدو الفن، بالمقابل، أنه يمنحهم أكثر بحيث أنه، لبعض الوقت، قلما يبقي أو يحيي من الميتافزيقا إلا ما يمكن أن يتحول إلى فن، وإلا فحالة روحيةً تم تجميلها. لكن العقل العلمي يزداد إلحاحا ويقود الإنسان المُكَوَّنَ إلى العلوم الطبيعية، إلى التاريخ؛ وخصوصا إلى طرق للمعرفة صارمة جدا، بينما يجد الفن نفسه وقد حظي باهتمام يصير ضعيفا وباهتا أكثر فأكثر. في الوقت الحاضر، عادة ماتعرف السنوات الثلاثين الأولى من حياة الفرد كل هذا. إنها خلاصة المهمة التي ربما خصصت لها الإنسانية ثلاثين ألف سنة من العمل المضني.

273. العودة إلى الخلف لأجل انطلاق أفضل.

لاشك أن الذي لاتزال الأحاسيس الدينية، في أياميا هذه، تشكل منطلقا لتصوره، ويتابع حياته في ظل الميتافزيقا والفن لبعض الوقت، لا شك أنه قد تأخر مسافة طويلة وأنه سيبدأ سباقه مع الناس العصريين الآخرين في ظروف غير مؤاتية : يظهر أنه يتقهقر ويضيع الوقت. لكن بما أنه تأخر في هذه الممالك حيث تتحرر الحماسة والطاقة، حيث لايفتأ سيل بركاني يتفجر بغزارة من معين لا ينضب، فإنه سيتقدم بسرعة بمجرد ما

ينفصل عنها في الوقت المناسب. قدمه مجنحة، صدره قد تعلم كيف يتنفس بهدوء، تنفسا أطول وأكثر تحملا. – لقد عاد إلى الخلف حتى يكون أمامه فضاء كاف قبل أن يقفز : بل يمكن أن يكون له بذلك، في العودة إلى الخلف، شيء مرعب، شيء مهدد.

274. جزء من أنانا كأثر فني.

إنه لدليل ثقافة منفوقة أن نتمكن من الوعي ببعض مراحل التطور التي يمر بها الأشخاص القليلو الذكاء دون أن يفكروا فيها تقريبا ثم يمحونها من سبورة روحهم، وأن نثبتها ونرسم لها صورة صادقة : لأن هذا هو أسمى أنواع الرسم الذي لا يفهمه إلا القليلون جدا. ولكي نقوم بذلك لابد أن نتكلف عزل هذه المراحل. الدراسات التاريخية تؤهلنا لهذا النوع من الرسم، فهي تدعونا باستمرار، بخصوص جزء من التاريخ، من حياة شعب أو فرد، إلى تصور أفق أفكار محدد بشكل جيد، إلى تصور قوة معينة من الأحاسيس، إلى تصور هيمنة هذه الأحاسيس وتراجع تلك الأفكار. أن نستطيع إعادة تشكيل مثل أنظمة الأفكار والأحاسيس هذه انطلاقا من معطيات معينة، مثلما نعيد بناء مشهد معبد ما من خلال بعض الأعمدة وبعض شقوق الجدران التي بقيت واقفة بالصدفة، هذا هو قوام الحس التاريخي. إن نتيجته الأولى هي أن يجعلنا نفهم أمثالنا مثل الكثير من الأنظمة المحددة، كممثلين لثقافات متعددة، أي مثل الكثير من الضروريات، ولكنها ضروريات متغيرة؛ وأن يسهل علينا، بالمقابل، وسائل عزل بعض أجزاء تطورنا الخاص كي نوفر لها مكانا منفصلا.

275. الكلبيون والأبيقوريون.

يتنبه الكلبي* لدى المتحضر المتفوق، إلى العلاقة الموجودة بين معاناته المتعددة والمكثفة وبين مجموع حاجياته. إنه يفهم إذن أن مثل هذه الكمية من الآراء حول الجميل والمناسب والائق والممتع ستفجر ينابيع غزيرة من المتعة ومن الإشمئزاز. إنه يختار، طبقا لهذه الأراء، أن يتراجع، متخليا عن الكثير من هذه الآراء، ومتملصا من بعض متطلبات الحضارة : إنه يربح في ذلك التراجع إحساسا بالحرية وبقوة مزيدة، وشيئا فشيئا، كلما جعلت العادة نوع الحياة التي يحياها مطاقةً لديه، كلما تكونت لديه أحاسيس بالاشمئزاز أندروأضعف من أحاسيس المتحضرين، وكلما اقترب من الحيوان الأليف. فضلا عن ذلك، إنه يشعر في كل الأشياء بلذاعة التناقض، ثم... يمكنه كذلك

* واحد من مجموعة فلاسفة يونانيين آمنوا بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وبأن جوهرها هو ضبط النفس (مترجم)

أن يرغي ويزبـد فرحا، وبفضل ذلـك يسمو من جديد فـوق عالم الأحاسيس الحـيوانية. للأبيقوري* نفس وجهة نظـر الكلبي، ليس بينهما عـادة إلا فرق واحد في المزاج. ثم إن الأبيقوري يـستخدم ثقافـته الواسعة كي يـصير مستقـلا عن الآراء السائدة، إنه يـتسامى عليها، بينما الـكلبي يقتصر على نفيها. الأبيقوري يتـجول كما لو في ممرات من الظُّلَيِّل اللطيف، محمية من هبوب الريح، بيـنما فوق رأسه تَجْأرُ قمم الأشجار التي تكشف له قوةَ الريـح التي تهز العـالم في الخارج، الكـلبي، على الـعكس من ذلك، يمشـي خارجاً، شبه عار، هنا وهناك وسط الزوابع، ويتصلب فيها إلى حد فقدان الإحساس.

276. عالم الحضارة الأصغر والأكبر.

يقوم الإنـسان بأفضـل اكتشافـاته للحـضارة في ذاته هـو حين يجد فـيها قوتـين غير متجانسـتين. لنفترض أن شخصا يـحيا بشكل مكثـف من أجل حب الفنون التشـكيلية والموسيقى لدرجـة أن روح العلـم استخفـه، وأنه تنـبه إلى استـحالة إزالـة هذا التنـاقض بالقضاء على إحدى هـاتين القوتين وتطوير الأخرى تطويرا كاملا، حـرا، فإنه لن يتبقى له إلا أن يجعل من نفسه أثرا (monument) ثقافيا شاسعا حتى تسكنه هاتان القوتان ولو في طرفـين متقابلـين، في الوقت الذي تسـكن فيه بيـنهما قوى أخـرى مُوَفِّقَة ومُصالحة، متوفرة على قوة مُرَجِّحَة تستخدمها، عنـد الضرورة، لتهد ىء الصراع حين ينفجر. والحال أن أمـر الثقافـة الفرديـة والشخـصية هذا سيشبـه إلى حد كـبير صرح حـضارة عصور بأكمـلها وسيعطي، عن طريـق القياس، سلسلة مـتوالية من التعاليـم بهذا الشأن. لأن مهـمة معمـار الحضارة الكـبير كـانت، حيثـما نشـأ هذا المعمـار، هي إجبار الـقوى المتصـارعة على التصـالح، وذلك بجمـع القوى الأخرى القلـيلة القابـلية لعدم التـصالح بحيث تتمكن من التفوق، لكن دون أن تُضْطَهَدَ القوى الأولى أو تُقَيَّدَ.

277. السعادة والثقافة.

إن منظر مـشاهد طفولتنـا يؤثر فينا : البـيت الصغير في الحـديقة، الكنيسـة وقبورها، البـركة والغـابة، - لانرى هذه الأشـياء مرة أخـرى إلا والروح حزيـنة. أننا نـشفق عـلى أنفسنا، لأننا عانيـنا كثيرا منذ طفولتنا. وهي ذي الأشياء قد ظـلت كلها هادئة وخالدة، نحن فقط مـن تغير كثيرا، نحـن جد متأثرين، بل إننـا نلتقي بعض الأشخـاص الذين لم يَضْرَسْهُمُ الزمن مثلما لـم يضرس البلوط : فلاحين، صيادين، سكـان الغابات... كلهم

* * منغمس في الملذات الحسية ، ومنسوب إلى الفيلسوف اليوناني ، أبيقور ، الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى ، والفضيلة هي مصدرها (المترجم)

لم يتغيروا. – التأثر والرأفة بالنفس اللذان يتم الإحساس بهما في حضرة ثقافة دنيا هما علامة ثقافة رفيعة. من ثمة يبرز أن هذه الثقافة لم تزد في السعادة. إن الذي ينتظر من الحياة محصولا من السعادة ومن الرفاهية سيكون عليه، هو بالضبط، أن يسلك سبيلا غير سبيل الثقافة الرفيعة.

278. مماثلة الرقص.

حاليا، يجب أن يعتبر امتلاك القوة والمرونة اللتين تمكنان المرء من أن يكون صادقا وصارما في المعرفة، ومن أن يكون قادرا، في أوقات أخرى، على التقدم تقدما شبه كبير بالشعر والدين والميتافزيقا، وأن يشعر بقوة ذلك وبجماله، يجب أن نعتبر ذلك علامة رئيسية على ثقافة كبيرة. إن مثل هذا الوضع الواقع بين مُتَطَلَّبَيْنِ مختلفين لهو وضع صعب، لأن العلم يميل لأن يهيمن كلية على طريقة، وإن لم تتم الاستجابة لهذا الميل فإن خطرا آخر سينجم عنه ألا وهو التردد والمراوحة بين دوافع مختلفة. غير أننا، كي نفتح بعض الآفاق على حل هذه الصعوبة، ولو من خلال مقارنة، سَنُذَكِّرُ بأن الرقص لا يُختزل في جيئة وذهاب غامضين ومترنحين بين دوافع مختلفة. والثقافة الرفيعة تشبه الرقص الجسور : لابد فيها، مثلما قلت، من كثير من القوة والخفة.

279. تلطيف الحياة.

إحدى وسائل جعل الحياة أكثر بساطة هي أَمْثَلَةُ كل أحداثها. ومن المناسب أن نطلب من الرسم إعطاءنا فكرة واضحة عن الأمثَلة. يتطلب الرسام من المشاهد ألا ينظر إلى لوحته من مسافة قريبة جدا، ألا تكون نظرته شديدة النفاذ، يجبره على التراجع قليلا إلى الوراء كي يتأمل اللوحة عن بعد. والرسام مجبر على أن يفترض مسافة محددة بين المشاهد واللوحة، بل عليه أن يقر بتوفر المُشاهد على درجة إبصار مـحُدَّدَة هي الأخرى، ولا يسمح له بأي تردد بشأن هذه المواد. فكل من أراد أن يُؤَمْثِلَ حياته سيكون عليه ألا يحاول النظر إلى تفاصيلها، سيكون عليه دائما أن يُرْغِمَ نَظره على الرجوع إلى الوراء مسافة معينة. وهذا ما كان غوته، مثلا، يتقنه جيدا.

280. حيث ما يرهق يخفف، والعكس.

كثير من الأشياء التي تزيد من ثقل عبء الحياة، في بعض مستويات الإنسانية، تخفف منه في مستوى أعلى، لأن أفراد هذا المستوى قد تعلموا أن يتحملوا أشد الأعباء إرهاقا. يحدث العكس كذلك : وهكذا فإن الدين، مثلا، له وجهان، بحسبما نرفع نظرنا إليه كي نتخفف من ثقلنا وضيقنا، أو ننظر إليه من أعلى كما إلى الأغلال التي تم تقييدنا بها لنمنع من الإرتقاء عاليا في السماء.

281. الثقافة الرفيعة غير مفهومة حتما.

إن الذي جعـل لآلته وترين فـقط، مثل العلـماء الذين ليـس لهم، علاوة علـى غريزة المعـرفة، سوى غريـزة دينية مُكـتسبَة، لا يفـهم الناس الـذين يعرفـون العزف علـى أوتار أخرى. من سمات جـوهر هذه الثقافة الرفيـعة المتعددة الأوتار أن يُساء فهـمُها دائما من طرف الثقافة الـدنيا، مثلما يحدث، مثلا، فـي كل مرة يعتبر فيها الـفن شكلا مُقَنَّعا من أشكال الـتدين. بعض النـاس، الذين ليس لهـم إلا الدين، يذهبـون إلى حد اعتبار الـعلم نفسه بحثا عن عاطفـة دينية، تماما مثلما الصم البكم يجهلون ماهـية الموسيقى بعيدا عن كونها حركة ظاهرة.

282. عويل.

ربما تكون مزايا عصرنا هي التي تسبب العودة إلى الوراء و، عند الإقتصاء، الحط من قيمة الحياة التأملية. لكن يجب أن نعترف لأنفسنا بأن عصرنا فقير من حيث الأخلاقيين الكبار، حتى أن باسكال،Epictéte ، سينيك، بلوتارخ، قلـما يُقرأون، والعمل والحماس (اللذان كانا فيما مـضى جزء من حاشية الإلهة الكبيرة التي هي الـصحة) يبدوان أحيانا وكأنهـما يعيـثان كمرض. بما أن وقت التفـكير وهدوء الـفكر غائـبان هما كـذلك فإن الآراء التي تحيد عن القاعـدة لم تعد تُقَيَّم : يكتـفي الناس بمقـتها. تَسَارُعُ الحياة الـهائل يُعَوِّدُ العـقل والعين عـلى رؤية وعلـى حكـم جزئـيين أو خاطـئين، فيبـدو كل الناس مـثل أولئك المسافرين الذين يتعرفونَ علـى البلدان وعلى الناس دون أن يغادروا سكة الحديد. إن موقفا مـستقلا ودقيقا فـي البحث عن الحق يُعتبـر نوعا من الجنون، والمفـكر الحر يرى نفسه مُحقَّرا، خاصة من طرف علماء أَحْزَنَهُمْ ألا يجـدوا في فنه في تأمل الأشياء دقتهم الأساسية وتَشَاغُلَهُمْ كالنحل، ويودون لو ينفونه إلى زاويـة منعزلة من زوايا العلم : بينما مهمته هـو مختلفة تماما وسـامية جدا ،وهي أن يقود، من مـكانه على الهامش، الـعلماء والبحاثة بقـضهم وقضيضهم ليريهم سـبل الثقافة وأهدافها. - إن العويل الـذي استمعنا إليه سينتهي أوانه ذات يوم، وسيصمت من تلقاء نفسه آنذاك، حين تكون عبقرية التأمل قد عادت وهي في كامل قوتها.

283. عيب الرجال النشيطين الكبير.

إن ما ينقص الرجال الـنشيطين عادة هو النشاط الراقي، أعني الـنشاط الفردي. إنهم يتصرفون بوصفهم موظفين، تجارا، علماء، أي بصـفتهم ممثلين لصنف وليس كأفراد لهم فردانـية محـددة المعالـم جيدا، إنهـم، بهذا الاعـتبار، كـسالى. - إنـها لتعاسة الـرجال النشيطين أن نشاطهم يكاد دائما يكون غير معقول شيئا ما. لن نستطيع، مثلا، أن نسأل

الموظف البنكي الذي يدخر المال عن الهدف من نشاطه المحموم : فنشاطه ليس وراءه أي سبب. الرجال النشيطون يتدحرجون مثلما تتدحرج الصخرة، طبقا لعبثية الإوالة. - كل الناس ينقسمون إلى عبيد وأحرار، يصح هذا في أيامنا هذه مثلما صح في كل العصور، لأن الذي لايملك الثلثين من يومه فهو عبد،وليكن ما يشاء : رجل دولة، بائعا، موظفا، أو عالما.

284. لصالح العاطلين.

من علامات آنخفاض قيمة الحياة التأملية كون العلماء ينافسون الرجال النشيطين في نوع من المتعة النشيطة حتى إنهم ليبدون وكأنهم يعتبرون هذه الطريقة في التمتع أرفع من تلك التي تناسبهم على نحو ملائم والتي تَمُتُّ بصلة أكثر، في الحقيقة، إلى المتعة. يخجل العلماء من البطالة (Otium). ومع ذلك فإن الفراغ والاستهتار شيء نبيل. - إن صح أن البطالة أم الرذائل فإنها على الأقل تجد نفسها، بكونها كذلك، أقرب ماتكون إلى الفضائل. العاطل دائما ينتصر، باعتباره إنسانا، على المتشاغل. - لكن بذكر الفراغ والبطالة لاتحسبوا أنكم أنتم المقصودون، بعد كل حساب، أيها الكسالى ؟...

285. القلق العصري.

كلما اتجهنا نحو الغرب نجد أن القلق العصري لايفتأ يزداد إلى درجة أن سكان أوربا يظهرون في عيون الأمريكيين مُحبين للراحةوالمتعة، والحال أنهم يكدون جديا كنحل وزنابير متشابكين أثناء الطيران. يتزايد هذا القلق بشكل كبير حتى أن الثقافة الرفيعة لم يعد لها وقت تنضج فيه ثمارها، وكأن الفصول صارت تتعاقب بسرعة مفرطة. في حالة فقدان السكينة فإن حضارتنا ستفضي بنا إلى همجية جديدة. ماحظي الرجال النشيطون، أي القلقون، في أي عصر من العصور باحترام أكبر من الذي يحظون به في هذا العصر. إن إحدى التضحيات الضرورية التي علينا أن نباشر إدخالها على طبع الإنسانية ستكون هي تقوية العنصر التأملي فيها إلى حد كبير. إن كل فرد يملك هدوء وَحَزْمَ القلب والعقل له الحق في أن يعتقد بأنه يملك، ليس فقط مزاجاطيبا، بل مزيةً ذات نفع عام، وبأنه يؤدي مهمة نبيلة بمحافظته على هذه المزية.

286. موضع بلادة الرجل النشيط.

أعتقد أنه يجب أن يكون لكل إنسان رأيه الشخصي في كل شيء قابل لأن نبدي الرأي فيه، لأن الإنسان هو نفسه شيء متميزو فريد يَشْغَلُ، بالنسبة لكل الأشياء الأخرى، وضعا جديدا وأصيلا. لكن البلادة المتجردة في روح الرجل النشيط تمنعه من

أن ينهل الماء من منبعه. – ينطبق على حرية الرأي ماينطبق على الصحة : فرديتان كلاهما، ولن نستطيع أن نضع لأي منهما قواعد عامة. فما يُعتبر ضروريا لصحة فرد مايكون بالنسبة لآخر سببا للمرض، والكثير من السبل ومن الوسائل المؤدية إلى حرية العقل قد لاتشكل، بالنسبة لطباع ذات مستوى عال من التطور، إلا سبلا ووسائل تؤدي لفقدان الحرية.

287. ناقد الحياة.

لمدة طويلة يميز تناوب الحب والكراهية الحالات الباطنية لدى الإنسان الذي يريد أن يبلغ الحرية في حكمه على الحياة. إنه لاينسى شيئا، وينسب كل شيء، بما في ذلك الخير والشر، إلى الأشياء. وفي النهاية، بعد أن تكون تجاربه قد كتبت سبورة روحه كاملة، يتوقف عن كراهية الوجود، دون أن يحبه كذلك، ليظل في الأعلى، ملقيا تارة نظرة فرح وتارة نظرة حزن، وشاعراً، مثل الطبيعة، تارة بالصيف وتارة بالخريف.

288. نتيجة مزدوجة.

إن الذي يريد جديا أن يتحرر سيفقد في تحرره،في نفس الوقت ودون أي إكراه، ميوله المعُيبة والمعَيبة، وستصير سَوْرات غضبه وغيظه نادرة أكثر فأكثر. ذلك أن إرادته لن ترغب بإلحاح سوى في المعرفة وفي وسيلة بلوغها، أي في تلك الحالة الدائمة التي سيكون فيها أهلا للمعرفة.

289. ميزة المرض.

قد يحدث للمريض المستلقي في فراشه أن يكتشف أنه يكون، بقية الوقت، مريضا بعمله، بأشغاله أو برفاقه، وأن مرضه ذاك قد أفقده كل شعور واضح بالذات : إنه يستنتج هذه الحكمة من ذات الفراغ الذي أرغمه عليه مَرَضُهُ.

290. انطباع ريفي.

حين لا تكون هناك معالم جلية وهادئة في أفق حياة الإنسان، مثلما للجبال والغابات، فإن إرادته تصير في أعماق ذاتها قلقة، شاردة الذهن ومتلهفة مثل روح الإنسان الحضري : لاهو بالسعيد ولاهو يمنح السعادة.

291. حذر العقول الحرة.

لن يلبث أصحاب العقل الحر، الذين لا يحيون إلا للمعرفة، أن يبلغوا الهدف الظاهر من وجودهم، أن يبلغوا وضعهم النهائي إزاء المجتمع وإزاء الدولة، سيعلنون أنهم

راضون، مثلا، بعمل بسيط أو بملْك كاف لضمان حياتهم، لأنهم سيتدبرون أمرهم ليعيشوا بطريقة تجعل تغيرا كبيراً في المالية العامة، بل حتى اضطرابا في النظام السياسي لايسبب، في نفس الوقت، خرابهم. إنهم يخصصون لهذه الأمور أقل قدر ممكن من طاقتهم، وذلك حتى يغوصوا في مادة المعرفة بكامل قواهم وبنفسهم الطويل. هكذا سيمكنهم أن يأملوا الهبوط كثيرا إلى الأسفل وربما أيضا أن يبصرو حتى العمق. - إن مثل هذا العقل سيروق له ألاَّيأخذ من حادثة ما إلا هُدبا واحدا، إنه لا يحب الأشياء التي ثنياها ضخمة وطويلة : لأنه لا يريد أن تعرقله طياتها. - إنه يعرف أيام الأسبوع، يعرف غياب الحرية، يعرف التبعية والعبودية. لكنه يحتاج، من حين لآخر، إلى يوم أحد يستريح فيه، وإلا فلن يطيق الحياة. - من المرجح أن حتى حبه للناس سيكون حَذِراً وذا نَفس قصير شيئا ما، لأنه ينوي ألا يدخل في علاقة مع عالم الأهواء والعمى إلا بقدر ما يتطلبه سبيل المعرفة. إنه لايسعه إلا أن يلجأ إلى عبقرية العدالة ليرافع قليلا لصالح مريده ومحميه إن اتهمه البعض بالفقر من حيث الحب. - هناك في طريقته في الحياة بطولة مرهفة تأبى، مثل أختها الفظة، أن تبجل الجموع، وبصمت تَعْبُر العالم كما بصمت تغادره. مهما تكن المتاهات التي يمر منها، مهما تكن الصخور التي بينها عانى مجراه من الإنحصار أحيانا، فإنه بمجرد ما يعود إلى السطح يتابع جريانه الصافي، اللطيف، والذي لايكاد يشوبه ضجيج، ويدع أشعة الشمس تناسب حتى أعماقه.

292. إلى الأمام.

لنسر إذن إلى الإمام في طريق الحكمة، بخطوة حازمة، وبكامل الثقة في النفس ! أياً تكن، استغلَّ منبع التجربة الذي تشكله أنت ذاتك ! ألْقِ عنك عدم الرضى الذي يأتيك من كينونتك، اغفر لنفسك أناك، لأن فيك، في كل الحالات، سلما من مائة درجة يمكنك أن ترتقيه إلى المعرفة. القرن الذي تغتم فيه بشعورك أنك مرفوض يعلنك سعيداً بأن يكون لك هذا الحظ، إنه يؤنبك بقوله إنه منحك نصيبا من التجارب التي قد يستغني عنها دون شك رجال عصور أخرى .لاتحتقر تدينك فيما مضى، اكتشف معنى أن تكون قد وجدت رسميا، في ما مضيا، منفذا إلى الفن. ألست تملك، من هذه التجارب بالضبط، القدرة على إعادة تشكيل مراحل هائلة من عمر الإنسانية التي سبقتك، بفهمك لها فهما أفضل ؟ أليس بالضبط على هذه التربة التي تغيظك كثيرا بعض الأحيان، على أرض الفكر المدنَّس هذه، قد نمت أجمل ثمار حضارتنا القديمة ؟ يجب أن تكون قد أحببت الدين والفن مثلما أحبتْ أمٌّ وأرضعتْ، - ليست هناك حكمة غير هذه. لكن عليك أن ترى أبعد منهما، عليك أن تُفلت منهما عبر الأعلى،

فأن تظل خاضعا لسحرهما الفتان يعني عدم فهمك لهما. لاشك أن التاريخ هوالآخر مألوف لديك، وكذلك اللعب الحذر بكفتي المنزان : «من ناحية... من ناحية أخرى». عُدْ أدراجك، تَقَف الآثار التي وصمت بها الإنسانية رحلتها الكبيرة والشاقة عبر بيداء الماضي : هكذا، وبشكل أكيد، ستعلم الإتجاه الذي لن تستطيع الإنسانية، في المستقبل، أن ترجع من خلاله أو سترُغم على عدم العودة م خلاله. وفي الوقت الذي ستنزع فيه بكل قواك إلى أن تتبين عن طريق الإستباق كيف تنعقد عقدة المستقبل فإن حياتك ستكتسب من ذلك قيمةَ أداة المعرفة ووسيلتها. إنك تملك سلطة أن تجعل كل لحظات حياتك : من محاولات، أَخطاء، زَلات، أوهام، أهواء، حبك وأملك، أن تجعلها تنسجم تماما مع الهدف الذي رسمْته لحياتك. هذا الهدف هو أن تصير أنت نفسك سلسلة ضرورية تضم حلقات الحضارة، وأن تخلُص من هذه الحتمية إلى حتمية تقدم الحضارة العالمية. حين يكون بصرك حادا جدا كي يغوص في أعماق بئر كينونتك ومعرفتك الغامض، فمن المحتمل أن تبدو لك على صفحة مائه اللامع المعجزات البعيدة للحضارات الآتية. أتظن أن حياة ترمي إلى هدف كهذا ستكون شاقة جدا وعارية تماما من كل لذة ؟ إنك إذن لازلت لم تعلم أنه ليس هناك عسل أشهى من عسل المعرفة، وأنه سيشرق اليوم الذي تكون فيه السحب التي تجر الكدر ثديا ترضع منه حليب تسليتك. ستتقدم في السن، وستدرك آنذاك حقا أنك أصغيت إلى صوت الطبيعة، تلك الطبيعة التي تحكم العالم كله باللذة : نفس الحياة التي تنتهي بالشيخوخة تنتهي كذلك بالحكمة، بالصفاء اللطيف لهذه الشمس التي هي فرحة العقل الدائمة. السن والحكمة، ستلقاهما معا على ذروة واحدة من ذرى الحياة، كذلك شاءت الطبيعة. آنذاك سيكون الأوان قد حان كي يقترب ضباب الموت، لكن ليس ليغيظك. قفزة واحدة إلى النور ستكون آخر حركاتك، هتاف حماسي بالمعرفة سيكون آخر أنفاسك.

الكتاب السادس

الإنســان في المجتمع

293. كتمان عطوف

غالبا ما نحتاج، في معاشرتنا للناس، إلى كتمان إرعائي نتظاهر من خلاله بأننا لم نكتشف دواعي تصرفهم.

294. صور.

إننا عادة ما نصادف صورا من الناس المتفوقين، وكما اللوحات فإن هذه الصور تعجب أغلب الناس أكثر من الأصل.

295. الخطيب.

قد نلقي خطبا وثيقة الصلة بالموضوع وجيدة جدا إلى حد يصبح معه كل الناس محتجين وكأنها عكس ذلك : كذلك يكون حال كل الناس حين لايكون الخطاب موجها إليهم.

296. نقص الحميمية.

نقص الحميمية بين الأصدقاء عيب لايمكن ذمه دون جعله مستعصيا على العلاج.

297. عن فن العطاء.

إن شعور المرء بأنه مرغم على رفض عطاء ما، لمجرد أنه لم يُمْنَحْهُ بالطريقة الملائمة، يجعله يغتاظ من الذي أعطى.

298. أخطر المتحزبين.

هناك في كل حزب إنسان يدفع الآخرين إلى الإرتداد بسبب نشره مبادئ الحزب بيقين مفرط.

299، المريض وناصحوه.

إن الذي يسدي النصائح للمريض يشعر بالتفوق عليه، سواء قُبلت نصائحه أو رفضت. لهذا يكره المرضى الأباة والحساسون ناصحيهم أكثر مما يكرهون مرضهم.

300. نوعا المساواة.

يمكن أن تتمظهر الحاجة إلى المساواة في محاولة المرء خفض كل الأخرين إلى مستواه (بالحط من قيمتهم، بتجاهلهم، بنصب الشراك لهم)، أو في محاولة الإرتفاع إليهم (بإنصافهم، بمساعدتهم، بالإستمتاع بنجاحاتهم).

301. ضد الحرج.

إن أفضل وسيلة لمساعدة الواقعين في حرج شديد وطمأنتهم هي الثناء عليهم بعزم.

302. إيثار بعض الفضائل.

قبل أن نضفي قيمة على إحدى فضائلنا علينا أن نلاحظ أن خصمنا لاتتوفر فيه تلك الفضيلة إطلاقا.

303 . لماذا المعارضة.

غالبا ما نعارض رأيا ما بينما نحن لانشعر بالنفور إلا من الطريقة التي بها تم التعبير عنه.

304. الثقة والألفة.

الذي يبذل جهده ليقتحم ألفة شخص آخر لا يكون عادة واثقا من كسب ثقته. فالواثق من كسب الثقة لايولي الألفة قيمة كبيرة.

305. توازن الصداقة.

يحدث، في علاقتنا مع شخص آخر، أن يعود للصداقة توازنها الصحيح بمجرد ما نضع حبات من الخطأ في كفتنا.

306. أخطر الأطباء.

أخطر الأطباء هم أولئك الكوميديون بالفطرة الذين يقلدون الأطباء بالفطرة ببراعة جعلها الخداع فائقة.

307. حين تكون المتناقضات في محلها.

لانحتاج أحيانا، كي نجعل الأذكياء يدعمون أطروحة ما، إلا إلى تقديمها في شد
تناقض هائل.

308. وسيلة إقناع الشجعان.

وسيلة جعل الشجعان يدعمون عملا ماهي أن نصوره لهم أخطر مما هو فعلا.

309. اللطافة.

اللطافة التي يبديها لنا الذين لانحبهم نعتبرها جريمة.

310. الانتظار.

الوسيلة الناجعة لإغضاب الناس وبث أفكار خبيثة في رؤوسهم هي جعل
ينتظرون طويلا. وهو شيء يؤدي إلى اللاأخلاقية.

311. ضد المألوفين جدا.

يعتقد الذين يمنحوننا ثقتهم تامة وكاملة أنه يحق لهم بذلك نيل ثقتنا. ب
التفكير، فالهدايا التي نمنحها لاتخولنا أي حق.

312. تعويض.

إذا أسأنا إلى شخص آخر فإنه يكفينا، في الغالب، أن نتيح له الفرصة ليمزح
حسابنا حتى نرضيه شخصيا، بل لنجعله في أحسن حال تجاهنا.

313. غرور اللسان.

سواء أخفى الإنسان عيوبه ورذائله أو اعتراف بها صراحة فإن غروره هو ال
يرغب أن يجد امتيازه في ذلك في كل الحالات : يكفي أن نلاحظ الدقة التي يميز
أمام من يُخفي هذه الخاصيات وأمام من يتظاهر بالصراحة والصدق.

314. الاعتبارات .

قد يكون عدم الرغبة في جرح أي شخص أو الإساءة إليه علامة إنصاف وقد يـ
علامة خجل.

315. لاغنى عنه في الجدل.

لاينبغي لمن لايعرف ضبط أعصابه أن يقتحم نار المناقشة.

316. المعاشرة والعجرفة

ينسى المرء العجرفة حين يعلم أنه وسط أهل الاستحقاق، الوحدة هي التي تؤصل فيه الصلف. الشبان متعجرفون لأنهم يعاشرون أقرانهم الذين يحبون إعطاء أهمية كبيرة لأنفسهم، وكأنهم ليسوا بشيء.

317. علة الهجوم.

لانهاجم شخصا ما لمجرد إيذائه أو الإنتصار عليه، بل ربما لكي نختبر قوته فقط.

318. المجاملة.

يلجأ الأشخاص الذين يريدون، بالمجاملة، أن ينوموا الحذر الذي نلتزمه في علاقتنا معهم، إلى وسيلة خطرة، إلى نوع من المنوم الذي إن لم يجلب النوم فإنه يتركنا أكثر تيقظا.

319. المترسل الجيد.

الذي لايؤلف كتبا ولايفكر جيدا أو يحيا في مجتمع لايكفيه عادة ما يكون كاتب رسائل جيد.

320. أقبح ما يكون.

يمكننا أن نشك في أن يكون من سافر كثيرا قد وجد في العالم أماكن أقبح مما وجد على وجه الإنسان.

321. الشفوقون.

نادرا ما يعرف الشفوقون، المستعدون دائما لتقديم المساعدة في الضراء، كيف يشاركون الآخرين فرحتهم : لاتترك لهم سعادة الآخرين شيئا يفعلونه، يكونون زائدين عن الحاجة فيها، يشعرون أنهم محرومون من تفوقهم، وبسهولة يبدون غيظهم منها.

322. عائلة المنتحر.

يحفظ والدا المنتحر له الضغينة لكونه لم يبق على حياته مراعاة لسمعتهما.

323. توقع نكران الجميل.

الذي يمنح عطاء كبيرا لن يُقَابَلَ بالشكران، لأن قبول عطائه يشكل بالنسبة للمستفيد عبءً ثقيلا.

324. وسط جمع بليد.

لا أحد يمتن للرجل الذكي على رقته بمجرد ما يضع نفسه في مستوى جماعة ليس من اللباقة أن يبدو المرء فيها ذكيا.

325، في حضرة الشهود.

بسرور مضاعف نرتمي في الماء لننقذ شخصا وقع فيه إن كان ذلك في حضرة أناس لايجرؤون على نجدته.

326. صمت.

إن أشد الطرق إزعاجا في رد إحدى الجماعات على جدال ما هي التزام صمت مغيظ : المهاجم سيعتبر ذلك الصمت علامة ازدراء.

327. سر الصديق.

نادرون جدا هم أولئك الذين، وقد حاروا في العثور على موضوع للمحادثة، سوف لن يتاجروا بأخطر أسرار أصدقائهم.

328. الإنسانية.

تقتضي الإنسانية من المشاهير، في علاقتهم بالمغمورين، أن يخطئوا بشكل لطيف.

329. بفعل الحيرة

بعض الناس الذين لايشعرون بالثقة في أنفسهم داخل المجتمع يستغلون أدنى فرصة ليُظهروا أمام الملأ تفوقهم على شخص من محيطهم، مثلا من خلال مضايقته أمام أنظار رفاقه.

330. الاعتراف بالجميل.

تتضايق الروح الرقيقة حين تعرف أن شخصا ما مدين لها، أما الروح الفظة فتتضايق حين تعرف أنها مدينة لشخص ما.

331. علامة الاختلاف.

إن أقوى علامة على اختلاف وجهات النظر لدى شخصين تبدو في كونهما يُدْخِلَان بعض السخرية في الحديث الذي يتبادلانه دون أن يشعر أي منهما بأدنى سخرية في الحديث.

332. التباهي مقرونا بالاستحقاق.

التباهي المقرون بالاستحقاق يهين أكثر من التباهي دون استحقاق : لأن الإستحقاق في حد ذاته إهانة.

333. خطر الصوت.

يحدث خلال المحادثة أن تربكنا نبرة صوتنا وتؤدي بنا إلى التعبير بكلام لايطابق رأينا على الإطلاق.

334. أثناء الحديث.

سواء خطأنا محدثنا أو صَوَّبْنَاهُ فذلك محض عادة : لهذا تبريره مثلما لذاك.

335. خشية القريب.

نخاف أن تنشأ لدى القريب حالة عداء لنا لأننا نخشى أن يفتح له ذلك منفذا إلى أسرارنا الخفية.

336. اللوم المميّز.

بعض الذين يحظون بتقدير كبير لهم طريقة في اللوم يريدونها متميزة. نيتهم هي أن يُظهروا لنا العناية الكبيرة التي يُولُونَهَا لنا. وسنسيء فهمهم بالغ الإساءة إن أخذنا لومهم حرفيا واتقيناه، إننا بذلك نغضبهم وننفرهم.

337. غيظ عطف الأخرين.

إننا نغالي بخصوص درجة الحقد والخوف اللذان نعتقد أننا نوحي بهما : ذلك أننا نعرف جيدا، ولاريب، درجة مقتنا لشخص ما، لحركة ما، لجماعة ما، بينما هم لا نعرفوننا، وبالتالي لا يبغضوننا إلا بشكل سطحي. غالبا مانلقى عطفا لاتفسير له، لكن إذا فهمناه يجرحنا لأنه يظهر أنهم لا يأخذوننا مأخذ الجد كفاية، لايقدروننا كفاية.

338. تقاطع الغرور.

بعد التقائهما يحتفظ الشخصان اللذان يتساوى غرورهما بانطباع سيء عن بعضهما البعض، لأن كل واحد منهما يكون جد منشغل بالانطباع الذي يريد تركه لدى الآخر إلى درجة أن الآخر لايترك لديه أي انطباع، وهكذا ينتهيان كلاهما إلى التنبه إلى أن جهدهما قد ذهب سدى ويتهم واحدهما الآخر بذلك.

339. سلوك رديء،علامة جيدة.

يجد العقل المتفوق لذته كلما أبدى تجاهه شبان طموحون قلة ذوق وعجرفة، بل وعداوة. إنها تصرفات رديئة لخيول جامحة لم تحمل فرساناً بعد، ولن تتوانى، مع ذلك، في الافتخار بحمله هو.

340. حين يأتي الخطأ في أوانه.

حسنا نفعل بقبولنا الإتهامات الموجهة إلينا دون أن ندحضها حتى وإن كانت تُضرُّ بنا، وذلك في حالة كون من اتهمنا سيرى خطأ أكبر في معارضتنا له وخاصة في دحضنا لاتهامه من المؤكد أن المرء، بهذه الطريقة، سيكون دائما على حق وهو على خطأ وسيتحول في النهاية، وضميره في راحة تامة، إلى مستبد لايطاق وعقل من أشد المُعَذِّبين. وما يصح بخصوص الفن قد يصح بخصوص طبقات المجتمع بأكملها.

341. المبجلون قليلا.

يحاول المعجبون بأنفسهم كثيرا، والذين نالوا من الناس تقديرا أقل مما كانوا يتوقعون، يحاولون لمدة طويلة أن يخدعوا الناس ويخدعوا أنفسهم بهذا الشأن، ويتحولون إلى علماء نفس دقيقين ليتوصلوا إلى إثبات أن الآخر قد بجلهم بما فيه الكفاية : وإن فشلوا في ذلك، إن تمزق خمار الوهم، فإنهم يحقدون حقدا شديدا.

342. صدى الدول البائدة في اللغة.

من الشائع أن نتعرف اليوم، في طريقة إلقاء الرجال كلماتهم داخل المجتمع، على صدى تلك الأزمنة التي كانوا يحسنون فيها حمل السلاح أكثر من أي شيء آخر : تارة يستعملون الجزم مثل رماة يصوبون بنادقهم، وتارة نخال أننا نسمع احتكاك السيوف وقعقعتها، ولدى البعض ينزل الإثبات بقرقعة الدبوس الصلد. - النساء، على العكس، يتكلمن على طريقة الكائنات التي بقيت آلاف السنين جالسة أمام النول، أو تخيط، أو تلعب كالطفل مع الأطفال.

343. السارد.

الذي يسرد قصة ما يظهر بسهولة إن كان يحكي لأن الحادث يهمه أم لأنه يريد أن يثير الإهتمام بسرده. في هذه الحالة الأخيرة سيبالغ، سيستعمل صيغ التفضيل وما شابهها. إنه سيحكي، في الغالب، بشكل رديء، لأنه لن يفكر كثيرا في الموضوع بل في نفسه.

344. القراءة بصوت مرتفع.

الذي يقرأ قصائد درامية بصوت مرتفع يكتشف طبعه، يجد صوته في بعض النبرات وبعض المشاهد طبيعيا أكثر منه في غيرها، في المُحْزِن أو في الهزلي مثلا، والحالة أنه في الحياة اليومية لم يكن ينقصه سوى فرصة إظهار الإنفعال أو الهزل.

345. مشهد هزلي في الحياة اليومية.

هذا شخص يطور فكرة رائعة حول موضوع ما كي يعرضه أمام جماعة. تسمعه وتراه يحاول بشكل يبدو هزليا، وقد نشر كل أشرعته، أن يبلغ تلك النقطة التي سيحمل إليها أصدقاءه كلهم ليُبدي ملاحظته عندها. لايفتأ يدفع بالحديث إلى هذه الغاية، فاقداً الاتجاه تارة ليعثر عليه تارة أخرى، وأخيرا تواتيه اللحظة : يكاد ينقطع نفسه... إذاك يختطف أحد الآخرين ملاحظته من فمه. فما العمل ؟ أيعارض فكرته ؟

346. وقح من غير قصد.

إن بدا شخص غَيْرَ مهذب تجاه شخص آخر، دون أن يقصد ذلك، كأن لا يلقي عليه التحية مثلا، لأنه لم يتعرف عليه، فإنه يحزن لذلك كثيرا وإن كان لا يستطيع أن يلوم مشاعره. يعاني من الإنطباع السيء الذي خلقه لدى الآخر، أو يخشى تبعات الشقاق، أو يغتم لكونه جرحه. هكذا إذن يمكن أن يُثَار الغرور أو الخشية أو الشفقة، أو هذه كلها.

347. رائعة الخيانة.

أن تُعَبِّر لمتآمر عن شكك في كونه سيفضحك، وذلك في الوقت الذي ترتكب فيه أنت نفسك خيانة ما، فتلك هي رائعة المكر التي هي شغل الآخر بنفسه ودفعه إلى التصرف بصراحة لامجال للشك فيها طيلة مدة معينة، وذلك حتى يتمكن الخائن الحقيقي من التصرف بحرية.

348. تهين وتهان.

إن إهانتك شخصا ما وطلب الصفح منه بعد ذلك تكون سائغة أكثر من إهانة الغير لك وصفحك عنه. الذي في الحالة الأولى يُظهر علامة قوة ثم علامة طيبة. والآخر يُرْغَمُ، في الحقيقة، على الصفح إن أراد ألايعتبر لا إنسانا، وبذلك تكون المتعة التي قد يجنيها من إذلال الغير تافهة بسبب هذا الإرغام.

349. أثناء المناقشة.

حين نناقض رأي الغير في الوقت الذي نعرض فيه رأينا الخاص فإن النظر المركز باستمرار على الرأي الآخر يربك في غالب الوقت المظهر الطبيعي لرأينا : فيبدو حازما، قاطعا، وربما مبالغا فيه.

350. حيلة.

من أراد أن يحصل على شيء صعب من شخص آخر عليه ألا يطرح الأمر كما لو كان مشكلة بل أن يعرض مخططه بكل بساطة كما لو كان هو الإمكانية الوحيدة، وحين يرى بوادر المعارضة أو المناقضة تلوح في عين الخصم عليه أن يحسن التوقف عن المناقشة بسرعة ولايدع له الوقت.

351. ندمٌ بعد مغادرة عالم الناس.

لماذا نشعر بالندم حين نغادر جماعة تافهة ؟ لأننا تناولنا فيها أشياء مهمة بلا تَرَوٍّ، لأننا لم نتكلم بحسن نية حين تعلق الأمر بالأشخاص، أو لأننا التزمنا الصمت حين لزم الأمر التحدث، لأننا لم نقفز وننصرف حين واتت الفرصة، باختصار، لإننا تصرفنا في عالم الناس كما لو كنا من عالم الناس.

352. يُحكم علينا بخلاف الصواب.

الذي يرقب دائما طريقة حكم الناس عليه لايجني من ذلك إلا الهم. لأن الذين هم أقرب إلينا («الذين يعرفوننا جيدا») يحكمون علينا بخلاف الحق. حتى بعض الأصدقاء يدعون مرارتهم تظهر من خلال كلمة حاسدة. وهل سيكونون أصدقاء لنا لو أنهم عرفونا جيدا ؟ - أحكام اللامبالين تؤذي كثيرا لأنها تبدو محايدة وشبه موضوعية. لكن لو اكتشفنا أن شخصا معاديا لنا يعرفنا جيدا بخصوص شيء احتفظنا به سرا، أن بعضنا يعرف البعض، فسيكون ذلك تناقضا كبيرا.

353. استبداد الصورة.

الفنانون ورجال الدولة الذين سرعان ما يُكَوِّنُونَ صورة كاملة عن شخص أوحدث ما انطلاقا من خطوط معزولة هم ظالمون أشد الظلم لكونهم يتطلبون أن يكون الشخص أو الحدث مثلما صوروهما تماما، وذلك بعد فوات الأوان. إنهم يتطلبون من الواحد أن يكون موهوبا وداهية وجائرا مثلما تتصوره مخيلتهم.

354. القريب مشبها بأحسن صديق.

الإغريق الذين عرفوا جيدا معنى الصديق - هم وحدهم من بين الشعوب من فتح نقاشا فلسفيا عميقا ومتشعبا حول الصداقة، بحيث أنهم كانوا هم أول من رأى، وآخر من رأى إلى حد الأن ، في الصديق مشكلة جديرة بأن تحل - ، هؤلاء الإغريق أنفسهم قد نعتوا القرابة بكلمة هي صيغة التفضيل لكلمة «صديق». هذا ما لا أفهمه.

355. أمانة غير مقدرة.

حين يقول شخص ما، أثناء الحديث، ((«قلت يوما»، «اعتدت القول»)، فإن كلماته تعطي الإنطباع بالتباهي بينما هي تنبع في الغالب من نبع عكس ذلك، من أمانة لاتريد على كل حال أن تزين وتبهرج اللحظة الحاضرة بأفكار تنتمي إلى لحظة ماضية.

356. الطفيلي.

هناك من يعتبر تفضيل المرء للعيش في تبعية، على حساب الآخرين، لئلا يُرْغَمَ على العمل، وإضماره حقدا خفيا لمن هو تابع لهم، هناك من يعتبر ذلك مؤشرا على انعدام الأحاسيس السامية لديه. نجد مثل هذه العقلية لدى النساء أكثر منه لدى الرجال، ويمكن الصفح عنها أكثر (لأسباب تاريخية).

357. على مذبح المصالحة.

هناك ظروف لايمكن فيها الحصول على شيء من شخص ما إلا إذا ألحقنا به ضررا واتخذناه عدوا : يعذبه كثيرا إحساسه بأن له عدوا بحيث ينتهز، عن طيب خاطر، أول فرصة يميل فيها العدو إلى معاملته معاملة لطيفة ليمر إلى الصلح مضحيا، على مذبح المصالحة، بالشيء الذي كان يتعلق به كثيرا من قبل حتى أنه لم يكن ليعطيه مقابل أي ثمن كان.

358. المطالبة بالشفقة علامة التباهي.

هناك أشخاص، حين يغضبون ويهينون الآخرين، يطالبون أوّلاً ألا نحفظ لهم ضغينة، وثانيا أن نشفق عليهم، لأنهم عرضة لنوبات حادة جدا. هكذا يتطور التباهي لدى الإنسان.

359. الطُّعْم.

- «لكل إنسان قيمته»- هذا ليس صحيحا. لكن قد يكون لكل واحد طعمه الذي عليه أن يبتلعه. وهكذا يكفي، كي نجعل أشخاصا كثيرين يدعمون قضية ما، أن نطليها بطلاء حب البشر، طلاء النبل والإحسان والتضحية - وأية قضية لايمكننا طلاؤها بذلك الطلاء ! - إنها سُكَّرة وحلوى روح القضية، وللقضايا الأخرى سكاكرها وحلواها.

360. الموقف من التقريظ.

حين يمدح الأصدقاء رجلا موهوبا فإنه يبدو مسرورا بذلك، مجاملة لهم وإشفاقا، لكنه في الحقيقة لايبالي بذلك. يواجه عُمْقُهُ ذلك بالخمول، وهذا لن يجعله يخطو أدنى خطوة لينتزع نفسه من الشمس أو من الظل حيث يجثم، لكنه سيسيء إلى الذين يريدون إرضاء الغير بتقاريظهم إن لم يُبْدِ أي فرح بذلك.

361. تجربة سقراط.

لقد صار أستاذ في مادة ما لدرجة أنه بقي بفعل هذا، وفي أغلب المواد الأخرى، مبتدء شديد الجهل، لكن الناس يتصورون عكس ذلك، تماما مثلما كان سقراط يعرف ذلك عن تجربة. هذه هي السلبية التي تجعل معاشرة الأساتذة مقززة.

362. وسيلة التبليد.

بسبب مقاومتهم للبلاهة ينتهي العادلون واللطفاء بأن يصيروا عنيفين. ربما يكونون على الدرب الصحيح فيما يخص دفاعهم عن أنفسهم، لأن ما يناسب الجبهة البليدة حتما هي القبضة الملوحة. لكن بما أن طبعهم عادل ولطيف، مثلما رأينا، فإن وسيلة الدفاع عن النفس هذه تؤلمهم أكثر مما تؤلم الغير.

363. فضول.

لولا الفضول لما حدثت أشياء كثيرة تكون في صالح القريب. إن الفضول هو الذي ينسل، تحت اسم الواجب أو الشفقة، داخل منزل الشقي أو المحتاج. - وربما يكون في حب الأمهات كثير من الفضول.

364. حساب خاطىء في المجتمع.

فلان يريد أن يصير مهما بأحكامه، وآخر بذوقه واشمئزازه، وثالث بعلاقته، ورابع بوحدته... وكلهم ينخدعون بمرارة. لأن الذي يجري أمامه المشهد هو الذي يتصور، والحالة هذه، أنه هو وحده من يجب الاهتمام به.

365. المبارزة.

يمكننا القول لصالح كل المبارزات وقضايا الشرف أنه يحق للمرء أن يدع موته أو موت مبارزه يحسم الأمر، وذلك إن كانت قابليته للتأثر كبيرة جدا بحيث يرفض أن يعيش بمجرد علمه أن فلانا أو فلانا يقول أو يعتقد بشأنه كذا أو كذا. إن كوننا سريعي الإنفعال يجعلنا، ولاشك، ورثة للماضي ولعظمته كما لمبالغاته التي لم توجد عظمة بدونها أبدا. أما الآن فإن وجود قانون الشرف الذي يقبل الدم عوض الموت، بحيث أن مبارزة قانونية تكفي للتخفيف عن الروح، فيه خير كثير، وإلا فإن الكثير من الأرواح ستكون في خطر. الحاصل أن مثل هذه المؤسسة تدرب الناس على مراقبة ما يتلفظون به وتجعل معاشرتهم ممكنة.

366. التميز والإمتنان.

يشعر الأشخاص الكريمو النسب، عن طيب خاطر،أنهم ملزمون بالإعتراف بالجميل، ولن يحاولوا بلهفة تفادي الفرصة التي تتاح لهم ليكونوا ممتنين، وباعتدال سيبدون الإمتنان بعد ذلك. الأشخاص الوضيعون، بالمقابل، يتصلبون ضد كل ما قد جعلهم ممتنين، أو يبدون إثر ذلك علامات امتنان مبالغ فيها وملاطفة جدا. يظهر هذا السلوك كذلك لدى الأشخاص الذين هم من أصل وضيع أو متواضع : ذلك أن أدنى خدمة تقدم لهم تبدو لهم فضلا كبيرا.

367. أوقات الفصاحة.

فلان يحتاج، لكي يتحدث جيداً، إلى شخص يفوقه بشكل أكيد وصريح، فلان آخر لايجد الحرية التامة ليتكلم ولا الفصاحة ذات الصيغ الجيدة إلا في حضور شخص أدنى منه : الباعث هو نفسه في كلتا الحالتين، لا يتحدث كل واحد منهما جيدا إلا إذا تحدث دون مضايقة، الواحد لأنه لايشعر، أمام عقل متفوق، بحافز المزاحمة والمنافسة، والآخر لأنه لايشعر بذلك أمام من هو دونه. – الآن هناك نوع آخر من الناس يحتاج، لكي يجيد الحديث، إلى المنافسة، وذلك بنية الإنتصار. فمن منهما أكثر طموحاً إذن : ذلك الذي يُجيد الحديث حين يتم تحفيز طموحه، أم ذلك الذي، لنفس السبب، يتحدث برداءة أو لايتحدث إطلاقا ؟

368. موهبة الصداقة.

من بين كل الذين لهم موهبة خاصة في ميدان الصداقة يتفلت طرازان. الواحد لايفتأ يعلو ويجد في كل مرحلة من مراحل تطوره الصديق المناسب له تماما. وسلسلة الأصدقاء التي يُكَوِّنهَا بهذه الطريقة نادرا ما تكون متماسكة، وأحيانا تختلف حلقاتها وتتناقض : الشيء الذي يتفق مع كون المراحل اللاحقة من تطوره تمحو أو تمزق المراحل السابقة. يمكن تسمية مثل هذا الإنسان، من باب المزاح، سُلَّما. - الطراز الآخر يمثله ذلك الذي يجذب طباعا ومواهب مختلفة؛ الشيء الذي يُكَوِّنُ حوله دائرة كاملة من الأصدقاء، وفي نفس الوهلة يربط هؤلاء علاقات الصداقة بينهم، رغم كل تبايناتهم. سنسمي مثل هذا الإنسان دائرة : لأن الأمر يستلزم أن يكون هذا التطابق في الحالات وفي الطباع الشديدة الاختلاف موجودا فيه من قبل بشكل من الأشكال. - ومع ذلك فإن موهبة الحصول على أصدقاء جيدين تتفوق كثيرا، لدى كثير من الناس، على موهبتهم في أن يكونوا أصدقاء جيدين.

369، طريقة الحديث.

بعد انتهاء حديث ما نجد أنفسنا نفكر في أفضل حالات محدثنا إن كانت الفرصة قد واتتنا وأبدينا أمامه كل بريق ذهننا ورقتنا. ويستفيد من هذا الأشخاص الفطنون الذين يريدون جعل شخص ما يراعيهم، إذ يقترحون عليه، خلال الحديث، أحسن الفرص كي يقول نكتة أو يتألق بطريقة ما. يمكننا أن نتخيل حديثا شيقا بين شخصين ذكيين يريد كل واحد منهما أن يظفر بعطف الآخر، ولأجل ذلك يتبادلان، أثناء الحديث، فرص التألق دون أن يستغلها أحد منهما : بحيث أن الحديث كله يأخذ بذلك مجرى لاروح فيه ولارقة، وبهذا يترك الواحد للآخر وحده فرصة الظهور بمظهر الشخص اللطيف والمسلي.

370. صمام المزاج.

يفضل الإنسان الذي يفشل في شيء ما أن يرجع سبب ذلك الفشل إلى الإرادة السيئة لشخص آخر عوض أن يرجع للحظ. إن تخيل شخص، عوض شيء، وراء فشل المرء يخفف من حقده الشديد، لأنه يمكن الانتقام من الأشخاص، بينما يلزم تحمل إهانات القدر. لهذا اعتاد الذين يحيطون بالأمير، حين يفشل، أن يعينوا له شخصا واحدا على أنه سبب إخفاقه، فتتم التضحية به لفائدة كل جلساء الأمير، وإلا فإن الإمير سيصب غضبه عليهم لعجزه عن الإنتقام من القدر نفسه.

371. أين نتخذ لون محيطنا.

لماذا تكون الرغبة والنفور معديان بحيث قلما نستطيع العيش بجوار شخص له أحاسيس قوية دون أن نجد أنفسنا، مثل برميل، ممتلئين بموافقاته ومعارضاته ؟ أولا، لأن غرورنا يصعب عليه الإمتناع التام عن الحكم، لايطيقه أحيانا، إن له نفس ألوان ضعف الذكاء والإحساس، أو الجبن، أو نقص الرجولة : وهكذا يتم جرنا إلى الإنحياز إلى طرف، حتى وإن كان يقف ضد اتجاهات محيطنا، إن كان ذلك الإنحياز ذا قيمة كبيرة بالنسبة لكبريائنا. لكننا عادة – وهذه هي النقطة الثانية – لانعي تماما التحول من اللامبالاة إلى الرغبة أو إلى النفور، بل على العكس، نتعود تدريجيا على طرق إحساس محيطنا، وبما أن الوفاق والموافقة الودية ساران جدا فإننا لانتوانى في اتخاذ كل العلامات والألوان المميزة لهذا المحيط.

372. السخرية.

لاتكون السخرية، في محلها،سوى شبه طريقة تربوية يطبقها أستاذ في علاقته مع تلاميذه كيفما كانوا : غايته هو إخجالهم وإذلالهم، لكن ذلك النوع من الخجل ومن الذل المخلص الذي يوجد الحلول الجيدة ويفرض إظهار الإحترام والإمتنان لذلك الذي عالجنا بهذا الشكل كطبيب. يعرف الساخر كيف يتظاهر بالجهل بحيث ينخدع بذلك التلاميذ الذين يحدثونه ويتجرأون، بحسن نية، على الإعتقاد في تفوق معرفتهم فيجعلونه يتمكن منهم بكل الوسائل، لايلتزمون الحذر إطلاقا ويظهرون كما هم حتى تأتي اللحظة المختارة التي تنعكس عليهم فيها أشعة المصباح الخفيف النور الذي كانو يلوحون به تحت أنف أستاذهم. حين تغيب مثل هذه العلاقة التي بين الأستاذ وتلاميذه تكون السخرية وقاحة وفظاظة روح. كل الكتاب الساخرين يعتمدون على هذا النوع البليد من الناس الذين يريدون أن يلتذوا بالإحساس بالتفوق على كل الآخرين بما فيهم المؤلف الذي يعتبرونه كالناطق باسم تباهيهم. – عادة السخرية، مثل عادة التهكم، تفسد الطبع فضلا عن ذلك، تضفي عليه بالتدريج خاصية من الفرح الماكر : ينتهي صاحبها بأن يشبه الكلب الشرس الذي تعلم أن يضحك لأنه لم يقنع بالعض.

373. التباهي.

ليس هناك شيء ينبغي لنا الإحتراس منه أكثر من نمو هذا العشب الطفيلي الذي يسمى التباهي والذي يفسد علينا أفضل محاصيلنا، لأن التباهي يوجد في المودة، في علامات الإحترام، في الألفة العطوفة، في المداعبة، في النصيحة الودية، في الاعتراف بالخطأ، في الشفقة على الغير، وكل هذه الأشياء الجميلة تثير الإشمئزاز حين يخالطها

هذا العشب. المتباهي، أي ذلك الذي يريد لنفسه أهمية أكبر مما لها أو مما يعترف به الناس لها، يجري حسابا خاطئا دائما. يصادف نجاحا سريعا دون شك لكون الناس الذين يتباهى أمامهم يمنحونه ذاك القدر من الإحترام الذي يطالب به تماما، بدافع الجبن أو بدافع اللامبالاة، لكنهم ينتقمون منه بذكاء إذ يطرحون معادل القيمة التي يطالب بها بإفراط من القيمة التي منحوها له حتى ذلك الحين. ليس هناك شيء يؤدي عنه الناس غاليا أكثر من الإذلال. قد يجعل المتباهي قيمته الحقيقية والرفيعة مشبوهة وحقيرة في أعين الآخرين بحيث لن يتورعوا عن الدوس عليه حتى وأحذيتهم وسخة. - على المرء ألا يقف موقف الفَخُور إلا حيثما يكون متأكدا بشكل قاطع من أنه لن يساء فهمه ولن يُنْظَرَ إليه على أنه متباه؛ أمام أصدقائه أو زوجته مثلا. لأنه ليست هناك حماقة، في معاشرة الناس، أكبر من اكتساب سمعة التباهي. والأدهى من ذلك هو ألا يكون المرء قد تعلم كيف يكذب بلباقة.

374. الحوار.

الحوار هو الحديث الكامل، لأن كل ما يقوله الواحد يلقى تفرده الخاص، رنته، الحركة المصاحبة له، بالإسناد الدقيق إلى المجاور الآخر، أي أننا نجد معادل ما يحدث في المراسلة حيث يعبر شخص واحد عن روحه بعشر طرق مختلفة بحسب الأشخاص الذين يكتب إليهم. في الحوار يكون انكسار الفكرة فريدا : والمُحَاوِرُ هو الذي يُحْدِثُهُ لكونه هو المرآة التي نريدها أن تعكس أفكارنا أجمل ما يمكن. لكن كيف الحال مع محاورين أو ثلاثة أو أكثر ؟ حتما سيفقد الحديث إذاك دقة الذكاء الفردي، فالإحالات المختلفة تتقاطع ويمحو بعضها البعض، وطريقة التعبير التي ترضي الواحد لاتناسب إحساس الآخر. كما أن المرء يجد نفسه، في رفقة الآخرين، مرغما على الإرتداد إلى نفسه، على تقديم الوقائع مثلما هي، ومرغما كذلك على حرمان الأشياء من ذلك الجو الإنساني الفكه الذي يجعل من المحاورة واحدة من أكبر مُتَعِ الدنيا. يكفينا أن نسمع النبرة التي يتحدث بها الناس عادة في رفقة أناس آخرين مجتمعين، يبدو أن ما يرددونه في خُطبهم لا يتغير : «هذا هوأنا، هذا ما أقوله أنا، أما أنتم فاعتقدوا ماشئتم ! » هذا هو السبب الذي يجعل النساء النبيهات يتركن آنطباعا غريبا وشاقا ومستهجنا لدى الذي تعرف إليهن في عالم الناس، ذلك أن واجب التحدث إلى أشخاص كثيرين، أمام أناس كثيرين، يجردهن من كل إغرائهن الفكري ولايدع يظهر، وسط فيض من الضوء، سوى أنانيتهن المقصودة وتخطيطهن ونيتهن الفوز أمام الملأ : وخلال الحوار تعود هذه السيدات نساء ويسترجعن رشاقة ذهنهن كلها.

375. المجد البَعْدي.

الأمل في أن يعرف الناس لنا قيمتنا في المستقبل البعيد لايكون له معنى إلا إذا اعترفنا بأن جوهر الإنسانية ثابت وأن شعور الناس بالعظمة ينبغي ألا يتغير عبر العصور. والحالة أن هذا خطأ، فالإنسانية تتطور في كل ما يجده إحساسها وحكمها جميلا وجيدا. إنه لوهم أن يعتقد المرء أنه متقدم بفرسخ بينما الإنسانية كلها تتبع طريقة هو. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لعالم لا يقدره الناس حق قدره أن يعتقد دون شك أن آخرين سيكتشفون ما اكتشفه هو مرة ثانية وأنه ربما يأتي مؤرخ يوما ما، متأخرا جدا، ليعترف له باستحقاقه لكونه عرف، هو كذلك، هذا الشيء وذاك، لكن دون أن يستطيع نشر اكتشافه. تفسر الأجيال اللاحقة دائما عدم حصول المرء على الإعتراف بعظمته بنقص في القوة. - باختصار، يجب ألا يلجأ المرء بسهولة إلى العزلة المتكبرة. هناك فضلا عن ذلك حالات استثنائية، وما يحول دون الاعتراف بخاصياتنا في أغلب الأحيان هي عيوبنا، نقائصنا، وحماقاتنا.

376. عن الأصدقاء.

تأمل جديا في ذاتك لترى كم هي الأحاسيس مختلفة، كم هي الآراء مشتركة، حتى بين أقرب الأقارب إليك؛ كم من الآراء المتشابهة تجد لها، في رؤوس أصدقائك، توجها أو قوة مخالفين لما لها في رأسك؛ كم تتاح من فرص مختلفة للإختلاف، للتفرق في هروب عدواني. بعد ذلك ستقول : كم هي ثابتة تلك الأرض التي ترتكز عليها علاقاتنا وصداقاتنا، كم هي قريبة تلك الزخات الباردة أو الشوادن، كم هو وحيد كل إنسان ! إن الذي يتنبه إلى كل هذا، ثم إلى أن كل الآراء، أن نوعها وقوتها هما، لدى أشباهه، ضروريان وغير مسؤولين مثل أفعالهم، الذي يتوصل إلى معرفة كيف يميز هذه الضرورة الداخلية للآراء في تشابك المزاج الذي لايمكن تبسيطه، في تشابك الإنشغالات، تشابك الموهبة والوسط، - هذا الشخص ربما سيتخلص من المرارة والحُموزة اللتين جعلتا الحكيم الشهير يصيح : «أصدقاء، ليس هناك أصدقاء ! » هذا بالأحرى ما سيعترف به لنفسه : أجل، هناك أصدقاء، وما جلبهم لك هو الخطأ والوهم بشأن شخصك، وكان لزاما عليهم تعلم الصمت ليظلوا أصدقاءك، لأن مايرسخ مثل هذه العلاقات الإنسانية تقريبا دائما هو أن هناك عددا معينا من الأشياء لانقولها، بل لانعالجها أبدا، لكن هذه الأحجار تتدحرج وتتبعها الصداقة فتنكسر. هل هناك أناس بمقدورهم ألا ينجرحوا جرحا قاتلا لو أنهم اكتشفوا ما يعرفه عنهم أصدقاؤهم الحميمون ؟ بتعلمنا معرفة ذاتنا واعتبار كياننا فلكا غير ثابت من الآراء والأمزجة، ومن

ثمة نزدريه شيئا ما، نعيد التوازن لعلاقتنا مع الآخرين. صحيح أنه لدينا أسباب وجيهة لنستخف بأنفسنا. - وهكذا، ليتحمل بعضنا البعض بما أننا نتحمل أنفسنا، وربما يأتي يوم الفرحة الذي يقول فيه كل واحد منا : «أصدقاء، ليس هناك أصدقاء ! » صاح الحكيم المحتضر؛ «أعداء، ليس هناك أعداء ! » يصيح هذا الأحمق الحي الذي هو أنا.

الكتاب السابع

المـرأة والطـفـل

377. المرأة الكاملة.

المرأة الكاملة نموذج إنساني متفوق على الرجل الكامل : وشديد الندرة كذلك. تاريخ الحيوانات الطبيعي يوفر وسيلة لجعل هذا الافتراض قريبا من الحق.

378. الصداقة والزواج.

لأفضل صديق ستكون أفضل زوجة، لأن الزواج الموفق يرتكز على أهلية الصداقة.

379. استمرار الأباء.

التفاوتات الموجودة بين طبع الآراء وأفكارهم، والتي لم تتم إزالتها، تتأبد في كيان الطفل وتشكل تاريخ معاناته الداخلية.

380. الإرث الأمومي.

كل إنسان يحمل في ذاته صورة المرأة التي تأتيه من أمه : وهي التي تحتم عليه احترام النساء بشكل عام، أو ازدرائهن، أو اللامبالاة بهن.

381. تصحيح الطبيعة.

أليس للناس أب صالح حتى يتخذوا أبا.

382. الأباء والأبناء.

على الآباء فعل الكثير ليكفروا عن إنجابهم الأبناء.

383. خطأ النساء المتميزات.

تعتقد النساء المتميزات أن الشيء لايوجد، بكل بساطة، حين لا يمكن الحديث عنه وسط جماعة.

384. داء ذكوري.

أنجع دواء لهذا الداء الذكوري الذي هو احتقار الذات هو أن يكون المرء محبوبا من طرف امرأة ذكية.

385. نوع من الغيرة.

تغار النساء بسهولة من أصدقاء أبنائهن حين يحققون نجاحات باهرة. إن ما تحبه المرأة عادة في ابنها هو ذاتها أكثر من ابنها.

386. مخالفة معقولة للصواب.

حين يبلغ الإنسان النضج في حياته وذكائه يغمره شعور بأن أباه قد أخطأ إذ أنجبه.

387. طيبة أمومية.

تحتاج بعض الأمهات إلى أطفال سعداء ومُبَجَّلين، وأخريات إلى أطفال تعساء : وإلا فلن تظهر طيبتهن كأمهات.

388. هناك تنهدات وتنهدات.

سبب تنهد بعض الرجال هو اختطاف زوجاتهم منهم، وسبب تنهد أغلبهم هو عدم رغبة أي كان في اختطافهن.

389. الزواج عن حب.

الزيجات التي تتم عن حب (التي نزعم أنها عن حب) يكون أبوها الخطأ وأمها الضرورة (الحاجة).

390. صداقة أنثوية.

قد تربط بعض النساء صداقة مع رجل، لكن ينبغي بكل تأكيد، لكي تستمر تلك الصداقة، أن يكون بينهما نزر يسير من التنافر الجسدي.

391. الملل.

كثير من الأشخاص، خاصة من النساء، لايعرفون الملل، لأنهم لم يتعلموا أبدا كيف يعملون بانتظام.

392. واحد من عناصر الحب.

في كل حب أنثوي يظهر كذلك شيء من الحب الأمومي.

393. المأساة ووحدة المكان.

لو أن الأزواج لايعيشون مجتمعين لكثرت الزيجات الناجحة.

394. نتائج الزواج العادية.

كل معاشرة لاترفع فهي تخفض، والعكس صحيح، لذلك ينخفض الرجال عادة حين يتزوجون، بينما ترتفع النساء قليلا. الرجال ذوو الروحية العالية يحتاجون كثيرا إلى الزواج حد النفور منه كما من دواء ممقوت.

395. تعليم القيادة.

ينبغي أن تُعَلِّمَ التربية أبناءَ العائلات المتوسطة كيف يَكُونُونَ قادة مثلما تعلم الخضوع للأطفال الأخرين

396. الرغبة في الحب.

كثيرا ما يجهد المخطوبون أنفسهم، بدافع من اللياقة المتبادلة، ليحبوا بعضهم حتى يتفادوا اللوم على البرودة وعلى الحساب المنفعي. وكذلك الشأن بالنسبة لمن يعتنق الكاثوليكية بدافع المصلحة، إنه يجتهد في أن يجعل من نفسه تقيا، وبذلك يصير الرياء الديني لديه سهلا جدا.

397. لا توقف في الحب.

الموسيقي الذي يحب الحركة البطيئة سيعزف دائما نفس القطعة ببطء. هكذا لايعرف التوقف أيٌ حب.

398. الحياء.

يزداد حياء النساء بازدياد جمالهن، بصفة عامة.

399. زواج موفق.

الزواج الذي يستمر هو ذلك الذي يروم من خلاله كل واحد من الزوجين بلوغ هدف شخصي من خلال الأخر، مثلا حين تريد الزوجة أن تكون لها سمعة بفضل زوجها، ويريد الزوج أن يكون محبوبا بفضل زوجته.

400. طبيعة الضفدع المتلون.

بسبب الحب تتخذ النساء، بصفة نهائية، الشكل الذي به تحيا في خيال الرجال الذين يحبونهن.

401. الحب والتملك.

الشكل الذي تحب به النساء رجلا ذا قيمة، في أغلب الأحيان، هو أن يكون لهن وحدهن. ولولا أن غرورهن يمنعهن لخبأنه : يريد غرورهن أن يطلع الآخرون على قيمته هم كذلك.

402. علامة الزواج الموفق.

الدليل على نجاح زواج ما هو كونه يتحمل «استثناء».

403. وسيلة استدراج أي كان إلى أي شيء كان.

بفعل الهموم، القلق، الأشغال والأفكار المضنية يمكن أن نتعب ونضعف أياً كان إلى حد أنه عوض أن يعارض شيئا يبدو معقدا فإنه يتحمله. الدبلوماسيون والنساء يعرفون هذا.

404. الكرامة والشرف.

البنات اللائي لا يردن أن يكن مدينات بمستقبل مضمون لجمال شبابهن، واللواتي تلهمهن أمهاتهن الذكيات الحيلة، يبحثن بالضبط عما تبحث عنه المومسات، إلا أنهن أكثر نباهة وأقل شرفا من هذه الأخيرات.

405. أقنعة.

هناك نساء لانكتشف لديهن حقيقة داخلية بعد البحث الشامل، وماهن إلا أقنعة. جدير بالشفقة هو الرجل الذي يرتبط بهذه الكائنات الشبه شبحية، الخداعة لامحالة، لكن القادرة، بالضبط، على إثارة رغبة الرجل بقوة : ينطلق باحثا عن روحهن... ويظل كذلك إلى الأبد.

406. الزواج، هذا الحديث الطويل.

ينبغي، حين يعقد الزواج، أن يطرح المرء هذا السؤال على نفسه : هل تعتقد أنه بإمكانك التحدث بلطف مع هذه المرأة حتى سن الشيخوخة ؟ كل الأشياء الأخرى في الزواج عابرة، أما الحديث فيكاد يشغل كل الوقت.

407. أحلام العذارى.

الشابات القليلات الخبرة ينمين الفكرة المخادعة بأنه في إمكانهن إسعاد الرجل، لكنهن يكتشفن بعد ذلك أن التسليم بأن الشابة كفيلة بإسعاد الرجل هو احتقار مبالغ فيه للرجل. - غرور النساء يتطلب أن يكون الرجل أكثر من زوج سعيد.

408. اختفاء فاوست ومارغريت.

حسب الملاحظة الدقيقة لأحد المنقبين فإن مثقفي ألمانيا الحالية يشبهون مزيجا من مفستوفلس وفاغنر، لكنهم لايشبهون فاوست إطلاقا، فاوست هذا الذي كان أجدادهم، إبان شبابهم على الأقل، يشعرون به يعتمل داخلهم. هناك إذن - كي نستمر في هذه الفكرة - سببان كي لاتلائمهم مارغريت. وبما أنها لم تعد مطلوبة فيبدو أنها تختفي.

409 الشابات في الثانوية

لاتُخْضِعُوا الشابات كذلك للتكوين الذي توفره ثانوياتنا ! هذا التكوين الذي غالبا ما يجعل من المراهقين، الذين كلهم ذكاء وحماسة، المتعطشين للمعرفة، نُسَخًا من أساتذتهم.

410. دون منافسات.

تسارع النساء، لدى رؤيتهن رجلا، إلى تبين إن كان على علاقة بأخرى، يردن أن يكن محبوبات دون منافسات، ويؤاخذنه على الأهداف التي يرنو إليها طموحه، على مهامه السياسية، على علمه وعلى فنه، إن كان له ولع بهذه الأشياء، إلا إذا جعلته هذه الأشياء يتألق، - لأنهن إذا افترضن قيام علاقة غرامية معه آنداك فإنهن ينتظرن منها زيادة في تألقهن، وفي هذه الحالة يجعلنه يعشقهن.

411. الذكاء الأنثوي.

يتمظهر ذكاء النساء في التمكن التام، في حضور البديهة، في استغلال كل الامتيازات. إنها خاصية أساسية ينقلنها إلى أبنائهن، ويضيف إليها الأب الخلفية القائمة للإرادة. يكاد تأثير الأب يحدد الإيقاع والإنسجام اللذان تسير عليهما الحياة الجديدة، لكن المرأة تكون هي من يضفي عليها النغم. - لنقل لأجل العقول الفطنة : تمتلك النساء الإدراك، ويمتلك الرجال الحساسية والشغف. وهذا لا يناقض كون الرجال يذهبون بذكائهم بعيدا جدا : دوافعهم أعمق وأقوى، وهي التي تذهب بعيدا بذكائهم الذي هو في ذاته شيء غير فعال. غالبا ما تندهش النساء خفية من الإجلال الكبير الذي

يكنه الرجال لحساسيتهن. لهذا فإن الرجال، أثناء اختيار شريكة الحياة، يبحثون قبل كل شيء عن كائن روحي وعميق، بينما تبحث النساء عن كائن متألق، حاضر البديهة وفطن. نرى جليا أن الرجل يبحث، في الحقيقة، عن الرجل المثالي، والمرأة عن المرأة المثالية، أي كل واحد يبحث ليس عمن يكمله بل عن كمال مزاياه الخاصة.

412. تأكيد حكم هزيود.

إنه لدليل على ذكاء النساء كونهن عرفن في كل مكان تقريبا كيف يحظين بالرعاية، مثل الزنابير في الخلية. لنتأمل ما يعنيه هذا في الأصل، ولماذا لايكون الرجال هم من ينالون رعاية النساء. بالتأكيد لأن غرور وطموح الذكور أكبر من ذكاء الإناث، لأن النساء عرفن، بخضوعهن، كيف يضمن الإمتياز المتفوق، بل حتى السيطرة. لقد استعملت النساء كل شيء في البدء بذكاء، حتى الإعتناء بالأطفال، ذريعة للتملص من العمل ما أمكنهن ذلك. حتى في وقتنا الحاضر، إن كان لهن نشاط فعلي، كخادمات مثلا، فإنهن يتقن التباهي به بشكل مذهل حتى أن الرجال يعتادون تقديره بعشرات أضعاف قيمته.

413. حسير النظر يقع في شراك الحب.

أحيانا تكفي نظارات أقوى لمداوة المحب. ومن كان له خيال قوي ليتصور وجها وقامة شاخا بعد مضي عشرين عاما، ربما سيعبر الحياة دون خسارة كبيرة.

414. النساء والضغينة.

حين يستولي عليهن الحقد فإن النساء يَكُنَّ أخطر من الرجال، أولاً لأنه لايمنعهن أي اعتبار للإنصاف حين تُثَارُ مشاعر عداوتهن، وأنهن، دون أن يتضايقن من أي شيء كان، يدعن حقدهن يبلغ أقصى عواقبه، ثم لأنهن مدربات على العثور على نقط ضعف (لكل رجل ولكل جماعة نقط ضعف) وغرز خنجرهن فيها : وخنجرهن الحاد الذي هو ذكاؤهن يؤدي لهن خدمات جلى في هذا الصدد (في حين أن رؤية الجراح توحي للرجال ببعض الاعتدال، بل بتصرفات نبيلة وميالة للتسامح).

415. الحب .

هيام النساء بالحب هو، في الأصل، ابتكار أوجدته حدة ذهنهن، بحيث أن كل أمْثِلاَت الحب تصلح لهن كوسيلة لزيادة قوتهن والظهور دائما مرغوبات أكثر لدى الرجال. لكن هذا الاعتياد القديم على هذا التقدير المبالغ فيه للحب جعلهن يقعنفي

شَرَكهن وينسين هذا الأصل. إنهن الآن مغفلا أكثر من الرجال، وهن بهذا يعانين أكثر من زوال الوهم الذي يحدث في حياة كل امرأة بشكل يكاد يكون حتميا - إن افترضنا أن لها ما يكفي من الخيال ومن الذكاء لتعرف الوهم وزوال الوهم.

416. حول تحرر النساء.

هل يمكن أن تكون النساء عادلات، بصفة عامة، في الوقت الذي اعتدن فيه كثيرا أن يحببن، على أن يكن مجرد إحساس مع أوضد ؟ من هنا يأتي كونهن نادرا ما يدعمن قضية بقدر ما يدعمن أشخاصا : وإن دعمن قضية ما فإنهن يجعلن من أنفسهن مناضلات من أجلها ويعرضن للشبهة إشعاعها الخالص والبرىء. إن عهدنا إليهن بالسياسة وبعض مجالات العلوم (كالتاريخ مثلا) فإنه ينتج عن ذلك خطر لاأهمية له. أي شيء سيكون ،في الحقيقة، أندرمن امرأة تعرف حقا ماهو العلم ؟ ستنمي سيدات الطبقة الراقية في قلوبهن ازدراء خفيا لها، كما لو كن متفوقات عليها بشيء ما. قد يتغير كل هذا، وفي انتظار حدوث ذلك التغير يظل الأمر على حاله.

417. الإلهام في حكم النساء.

لقد كلل بعض الرجال في حبهم تلك القرارات الفجائية التي اعتادت النساء اتخاذها مع أوضد، ذلك البريق بريق التعاطف أو النفور الذي ينير فجأة علاقاتهن الشخصية، باختصار، كللوا أدلة جور النساء بهالة المجد كما لو أن كل النساء قد أُلْهِمْنَ الحكمة دون منْصَب دلفي* ولا إكليل من الغار : وبعد ذلك بزمن طويل يتم تفسير أحكامهن والتعليق عليها كالكثير من الوحي العرّافي. إن اعتبرنا، مع ذلك، أن هناك شيئا يمكن إبرازه لفائدة كل شخص، كل قضية، وشيئا كذلك نعارضهم به، أنه ليس هناك شيء له وجهان فقط، بل ثلاثة أو أربعة أوجه، فإننا قلما سنجد هذه القرارات الفجائية معرضة للخطأ الشامل. بل يمكننا أن نقول : هكذا هي طبيعة الأشياء بحيث أن النساء دائما على صواب.

418. أن تجعل نفسك محبوبا.

بما أنه عادة ما يكون، من بين كل شخصين متحابين، واحد يحب والآخر محبوب، فقد انتهى الناس إلى الإعتقاد أنه يوجد في كل علاقة غرامية قدر ثابت من الحب : كلما أخذ منه أحد الطرفين كلما قل مايتبقى منه للآخر. يحدث، استثناء، أن يقنع

* منسوب إلى دلفي اليونانية التي كان فيها مَوْحى أبولون (المترجم)

الغرور كل واحد منهما بأنه هو الذي ينبغي أن يكون محبوبا بحيث يحاولان كلاهما أن يكونا محبوبين : وينتج عن ذلك، وخاصة لدى المتزوجين، عدد من المشاهد ينافس فيها الهزلي العبثي.

419. التناقضات في عقول النساء.

بما أن عقل النساء منفتح على الأشخاص أكثر منه على الأشياء ذاتها فإن فكرهن يوائم بين اتجاهات هي، منطقيا، متناقضة. عادتهن هي أن يتحمسن، بالتناوب، لممثلي هذه الإتجاهات ويتبين أنظمتهم بلا تمييز، ويعملن مع ذلك على ترك فراغ يتكون في كل مكان يمكن لشخص جديد أن يتفوق فيه. وقد لاتكون الفلسفة، في رأس امرأة مسنة، سوى فراغات من هذا النوع.

420. من الذي يعاني أكثر.

بعد شجار أو خلاف شخصي بين رجل وامرأة يعاني أحدهما خصوصا لكونه أساء إلى الآخر، بينما الثاني يعاني خصوصا من كونه لم يسيء إلى الآخر كفاية، ولهذا السبب يجهد نفسه، بعد فوات الأوان، في تعذيب روحه بدموع حرى، بنحيب وبمظهر شاحب.

421. فرصة لنبل النساء.

بوضع المرء نفسه نهائيا، عن طريق الفكر، فوق متطلبات الأخلاقية يمكنه أن يتساءل دون شك إن لم تكن الطبيعة والعقل يلزمان الرجل بعقد عدة زيجات متتالية، وذلك بأن يتزرج أول الأمر، في سن الثانية والعشرين، امرأة ناضجة تفوقه عقليا وأخلاقيا وقادرة على أن تقوده ليجتاز مخاطر العشرينيات (الطموح، الضغينة، احتقار الذات، وكل أشكال الأهواء). فيما بعد سيتحول حب هذه المرأة كله إلى عطف أمومي، ولن تتحمل فقط، بل ستطلب منه مراعاة لمصلحتو، أن يتزوج، عند بلوغه الثلاثين، من شابة يتولى هو تربيتها. - الزواج، بين سن العشرني والثلاثين، مؤسسة ضرورية، ويصير مؤسسة نافعة فقط بين الثلاثين والأربعين، في ما تبقى من العمر يكون ضارا، لأنه يشجع النكوص الذهني للرجل.

422. مأساة الطفولة.

ليس نادرا، بكل تأكيد، أن يكون بعض ذوي الطموحات النبيلة والعظيمة قد خاضوا أشد صراعاتهم قساوة خلال طفولتهم : فربما يكون قد لزمهم، كي يفرضوا طريقة رؤيتهم للأشياء، أن يواجهوا دناءة تفكير أب غارق في الزيف والكذب، أو أن

يعيشوا، كاللورد بايرون، في خلاف دائم مع أم صبيانية وغضوب جدا. إن مر المرء من هذه المرحلة فلن يتعزى أبدا ،طيلة حياته، بمعرفة من كان أكبر وأخطر أعدائه.

423. عمى الأباء.

إن الأخطاء الجوهرية التي تكون في الحكم الصادر في حق شخص ما يكون أبواه هم من يرتكبها : إنها حقيقة، لكن كيف نفسرها ؟ هل للأباء تجربة جد مختلفة عن تجربة ابنهم فيعجزون عن توحيد هما ؟ نلاحظ أن المسافرين الذين يزورون شعوبا أجنبية لايدركون السمات العامة المميزة لها بشكل صحيح إلا في بداية إقامتهم، وكلما شرعوا في معرفة شعب ما كلما نسوا أن يميزوا خصوصياته النموذجية. بمجرد ما تعتاد عيونهم الرؤية عن قرب يكفون عن رؤية البعيد. أيكون عدم الرجوع إلى الوراء كفاية هو سبب حمل الأباء حكما خاطئا عن أبنائهم ؟ - هناك تفسير مغاير تماما، وهو كالتالي : تجعل العادة الناس يكفون عن التفكير في ما يحيط بهم ويكتفون بقبوله. هذا النقص في التفكير الذي يعزى إلى العادة ربما يكون هو سبب كون الأباء، حين يجبرون على الحكم على أبنائهم، يحكمون عليهم بشكل خاطىء.

424. نظرة على مستقبل الزواج.

هذه النساء ذوات العقول النبيلة والمتحررة اللواتي يجعلن مهمتهن تربية وتنشئة الجنس اللطيف لهن وجهة نظر لاينبغي إهمالها : الزواج الذي يتم تصوره في أعلى مراتبه كصداقة روحية بين كائنين من جنس مختلف، أي معقودا، مثلما نتمنى أن يكون في المستقبل، لغاية إنجاب جيل جديد وتربيته. يُخشى أن يكون مثل هذا الزواج، الذي لن يلجأ إلى الشبقية إلا كوسيلة نادرة واتفاقية (Occasionnel)، لأنه إن لزم الزوجة، حفاظا على صحة الزوج، أن تلبي كذلك حاجاته الجنسية، فإن ذلك سيكون وجهة نظر مناقضة للغايات المذكورة آنفا، وحاسمة حين اختيار الزوجة : سيترك تحقيق الرغبة في النسل للصدفة، وستكون التربية السعيدة مستبعدة جدا. الزوجة الصالحة المطلوب منها أن تكون صديقة، مساعدة، مُنْجِبَةَ، أما، ربة أسرة، مديرة، بل ربما أن تتفرغ لعملها وتقوم بمهامها في استقلال عن الزوج، لن يمكنها أن تكون سُرِّية (Concubine) : سيكون ذلك، بصفة عامة، مطلبا ثقيلا عليها. قد يحدث في المستقبل عكس ما كان في أثينا زمن بيريكليس : كان الرجال، الذين قلما كانوا يعتبرون زوجاتهم أكثر من سريات، يتوجهون إلى بغايا ميلات بمجرد ما يرغبون في ذلك السحر في حرية القلب والذهن المميزة للمعاشرة الرضية التي وحدهما اللطافة والرشاقة الذهنية للنساء

تستطيعان توفيرها. كل المؤسسات الإنسانية، مثل الزواج، لاتسمح إلا بدرجة صغيرة من الأمثَلَةِ العملية، التي إن غابت شعر الناس بضرورة العلاجات الفظة.

425. مرحلة Sturm und Drang خاصة بالنساء *

سيصير ممكنا في الدول الأوربية الثلاثة أو الأربعة المتحضرة، بفضل قرون من التربية، تحويل النساء إلى كل ما نريده، حتى إلى رجال، ليس جنسيا بالطبع، لكن بأي معنى آخر. بخضوعهن لمثل هذا التدخل فإنهن سيكتسبن يوما ما كل القوى وكل الفضائل الذكورية، المرفوقة حتما بالنقائص والرذائل المقابلة لها : يمكننا، كما قلت، بلوغ هذا. لكن كيف سنتحمل المرحلة الانتقالية التي ستلي ذلك والتي ربما تدوم هي الأخرى قرونا عديدة ستظل فيها الحماقات والجور، وهي الهدايا التي قدمتها لنا النساء عبر العصور، متفوقة على كل الخبرة التي سيضفنها إليها ؟ سيكون ذلك هو العصر الذي سيشكل فيه الغضب الإنفعال الذكوري، الغضب من رؤية كل الفنون وكل العلوم تغمرها وتسيخها في الوحل انفعالية غريبة، رؤية الفلسفة يغتالها هذر الثرثارين المجنن، رؤية السياسة أكثر هذيانا وانحيازا من أي وقت مضى، رؤية المجتمع في انحلال تام، كل هذا لأن حارسات التقاليد البالية سيكن قد انتهين إلى رؤية أنفسهن مثيرات للسخرية وسيملن إلى وضع أنفسهن خارج هذه التقاليد بكل الاعتبارات. إن كانت النساء في الحقيقة، تتمتعن بسلطتهن الكبيرة ضمن نطاق التقاليد، فأي شيء سوف لن يلجأن إليه لاستعادة سلطة لها نفس الأهمية بمجرد ما يتخلين عن هذه التقاليد ؟

426. العقل الحر والزواج.

هل سيعيش ذوو العقول الحرة مع النساء ؟ على العموم، أعتقد أنهم سيفضلون ، مثل الطيور النبوئية في الزمن القديم، أن يحلقوا وحدهم، هم الذين يفكرون ويعلنون حقيقة الحاضر.

427. سعادة الزواج.

يحيطنا كل اعتياد بشبكة من خيوط عنكبوتية تشتد صلابتها أكثر فأكثر وسرعان مانتنبه إلى أن هذه الخيوط قد صارت بحيرات وأننا نحتل منها الوسط، كالعنكبوت التي وقعت فيها وليس لها سوى دمها تلتهمه. لأجل هذا يكره العقل الحر كل القواعد وكل العادات، كل الأشياء الدائمة والنهائية، لهذا يعود دائما، وبألم، إلى تمزيق النسيج

* حركة أدبية ألمانية أواخر ق 18 تميزت بالثورة على القيم الكلاسكية (المترجم)

الذي يحتويه : وإن لزمه، نبيجة لذلك، تحمل الكثير من الجراح البليغة والبسيطة، – لأنه يجب أن ينتزع هذه الخيوط من جسده ومن روحه. عليه أن يتعلم أن يحب ما كان يكرهه حتى ذلك الحين، والعكس. فضلا عن ذلك، لاينبغي أن يستحيل عليه زرع أسنان التنين في الحقل ذاته حيث كان يسكب قرن خصب طيبته فيما قبل. يمكننا، من ثمة، أن نستنتج ما إذا كان قد خُلق لسعادة الزواج.

428. قريبا جدا.

تشبه حياتنا قريبا جدا من أحد الأشخاص أخذنا لرسم بين أصابعنا مرات متتالية : يأتي يوم لانجد فيه بين أيدينا سوى قصاصة ورق ملطخة. الروح الإنسانية هي كذلك تنتهي، من شدة الملامسة الدائمة، بأن تصبح بالية، أو تبدو كذلك على الأقل، ولانعثر أبدا، بعد ذلك، على رسمها وجمالها الأصليين. – إننا نخسر دائما في علاقتنا الأليفة جدا مع النساء ومع الأصدقاء، وأحيانا نخسر فيها جُمانة حياتنا.

429. المهد الذهبي.

سيظل حياً ذاك العقل الحر الذي يقرر في النهاية أن يزعزع تلك العناية وذلك السهر الأموميان اللذان تحيطه بهما النساء بشكل استبدادي. أي سوء سيصيبه به تيار هواء قوي كن يحرسنه منه بقلق، أي أهمية ستكون لضرر حقيقي، لخسارة، لحادث، لمرض، لدين ،لضلال زائد أو ناقص في حياته، مقارنة مع عبودية المهد الذهبي، عبودية المذبة المصنوعة من ريش الطاووس، وعبودية الإحساس القوي بأنه ملزم بالاعتراف بالجميل لكونهن غنجنه ودللنه مثل رضيع ؟ لهذا قد يتحول بسهولة ذلك الحليب الذي تفرغه نساء محيطه في هذا العقل الأمومي إلى مِرَّة.

430. ضحية عن طيب خاطر.

كي تجعل النساء الفضليات حياة أزواجهن سهلة، إن كانوا عظماء مشهورين، فإن أفضل وسيلة يملكنها هي اتخاذهن شكل إناء العداوة التامة، وعند الإقتضاء، إناء المزاج الذي يبديه الآخرون. إن معاصري العظماء عادة ما يغفرون لهم أخطاء وحماقات كثيرة، بل وظلما بشعا، شريطة أن يجدوا شخصا ضحية يذلونه ويضحون به ليُخَفِّفُوا من غيظهم. لايندر أن تكتشف المرأة في نفسها الطموح إلى أن تهب نفسها لتكون تلك الضحية، والحقيقة هي أن الرجل يمكنه إذاك أن يبدي سروره بذلك، شريطة أن يكون، وهذا أمر مفهوم، أنانيا كفاية كي يقبل بوجود هذا النوع من واقية الصواعق، من الممطرة المتطوعة،بالقرب منه.

431. خصمان لطيفان.

يعمل ميل النساء الطبيعي إلى الهدوء، إلى التناسق، إلى الإنسجام السعيد في الكون كما في العلاقات الاجتماعية، هذا النوع من الزيت الذي ينشره تأثيرهن على بحر الحياة كي يهدئه، يعمل ضد الميل الحميمي للعقل المتحرر إلى بطولية أكثر. دون أن يتنبهن لذلك تفعل النساء ما يفعله الذي يزيل الأحجار من طريق العداني (minéralogiste) كيلا تصطدم بها قدمه، - والحال أنه قد سار في الطريق وغايته الوحيدة هي الإصطدام بها.

432. حيث يتنافر سجعان.

تريد النساء أن تخدمن ويجدن في ذلك سعادتهن : والعقل الحر لايريد أن يخدمه أحد ويجد في ذلك سعادته.

433. زانثيبي

وجد سقراط المرأة المناسبة له، - لكنه لم يكن ليبحث عنها لو أنه عرفها جيدا : حتى بطولية هذا العقل المتحرر لم تكن لتذهب إلى ذلك الحد. الحقيقة أن زانثيبي كانت دائما تدفعه قُدُماً في ميله الأصلي بجعل بيته غير صالح للسكنى ومنزله غير مضياف : هي التي علمته أن يعيش في الأزقة وفي كل الأماكن التي يرتادها الناس للثرثرة و الاستهتار، جاعلة منه أكبر مجادل في أزقة أثينا، ولم يملك في النهاية إلا أن يقارن نفسه بالنعرة التي قد يضعها إله على رقبة تلك الفرس الأثينية الأصيلة كي يمنعها من الراحة.

434. عمياوات عن البعيد.

مثلما الأمهات لايبصرن ولايشعرن حقا إلا بآلام أطفالهن التي تدركها الحواس والبصر، كذلك نساء الرجال ذوي الطموحات السياسية لايستطعن أن يجهدن في رؤية أزواجهن يعانون أويتألمون أو يتم احتقارهم، - وقد لايكون هذا فقط علامة اختيار ملائم في مسار حياتهم، بل الضامن الحقيقي بأنهم حتما سيبلغون أهدافهم الطموحة ذات يوم. النساء دائما يتآمرن خفية ضد سمو روح أزواجهن، يسعين لحرمانهم من مستقبلهم لفائدة حاضر رغد ورفيه.

435. القوة والحرية.

مهما تكن درجة تقدير الزوجات لأزواجهن عالية فإنهن يقدرن السلطات والأفكار المعترف بها من طرف المجتمع أكثر : لقد اعتدن منذ آلاف السنين، وهن منحنيات أمام

كل السادة والأيدي مضمومة على الصدور، أن يحذين حذو السلطة الرسمية ويشجبن أية ثورة ضدها. كما أنهن يتعلقن، حتى دون أن يقصدن ذلك، بل كما لو غريزيا، بعجلات الفكر الحر كنعل كابح لاندفاعه نحو الإستقلال، وفي بعض الأحيان يدفعن أزواجهن إلى أوج نفاذ الصبر خاصة حين يقتنع هؤلاء أن الحب، في الحقيقة، هو دافع نسائهم هنا. استهجان الوسائل التي تستعملها النساء وتقدير الأسباب التي توحي بها تقديراً شهماً، – تلك هي تصرفات الرجال، وهي في الغالب يأس الرجال.

436 . ويُشَرِّعُونَ، فضلا عن ذلك.

شيء مضحك أن نرى جماعة من المعدمين تصدر مرسوما بإلغاء رسوم التركة، ومضحك كذلك أن نرى أناسا ليس لهم أطفال يعملون على منح بلدما تشريعا معياريا : ذلك أنه ليست في سفينتهم صوابير كافية كي ينطلقوا بأمان في بحر المستقبل.نفس السخف يظهر لدى الذي حدد لنفسه مهمة المعرفة الشاملة وتقويم الوجود في كليته، لكنه آرتبك باعتبارات شخصية لأن له عائلة عليه أن يطعمها، أن يحميها، لأن له زرجة وأولادا عليه أن يراعي جانبهم، وأمام منظاره ينشر هذا النسيج الكثيف الذي تخترقه بالكاد بعض الأشعة من عالم النجوم البعيد. هكذا أصل أنا كذلك، على أساس أسمى التأملات الفلسفية، إلى الإفتراض أن كل المتزوجين مشبوهون.

437. في الختام.

هناك أنواع من سم الشوكران، ويكاد القدر يجد دائما فرصة ليسقي المفكر الحر كأساً من هذا السم، – لكي «يعاقب»ه ،كما قد يقول كل الناس بعد ذلك. ماذا تفعل النساء اللائي يكن حوله إذاك ؟ يصرخن ويَنْتَحِبْنَ، وربما يعكرن راحة المفكر وقت أفول شمسه : وهو ما فعلنه في سجن أثينا. وانتهى سقراط إلى القول : «ياكريتون، مر أحدا يخرج هذه النساء !» .

الكتاب الثامن

نظـــرة علـــى الدولـــة

438. طلب الكلمة

تشترك كل الأحزاب السياسية حاليا في الطبع الدهماوي وفي العزم على التأثير في الجماهير : إنهـا كلها مرغمة، بسبب العزم المذكورة، على تحويل مبادئـها إلى حماقات كبيرة بـحجم لوحة جدارية لـكي تتمكن بذلك مـن رسمها على الجدران. لـيس هناك شيء يمكن تغييره فـي هذا، بل ليس ضروريا رفع الخنصر لمعارضتـه، لأن ما ينطبق على هذا المجال هي كلمة فولتير : حين تتعاطى الدهـماء التفكير يضيع كل شيء. مادمنا هنا فلابد أن نخضـع لهذه الأوضاع الجديدة، مثلما نـخضع للأوضاع التي يخلـفها الزلزال حين يغير موضع الحدود ويـقلب حدود ومظـاهر التربة ويـغير قيمـة الملكية. فـضلا عن ذلك، بما أن الأمـر لم يعد يـتعلق، فـي كل سياسـة، سوى بجعـل الحياة مطـاقة بالنـسبة لأكبـر عدد ممكـن من النـاس، فإن لأغلب الـناس الخيـار، في الواقـع، في أن يقـرروا ما يقصـدونه بحيـاة مطاقة. وإن اعـتقدوا أن لديـهم من الذكـاء مايكفـي ليجدوا كـذلك أحسـن الوسائل لـبلوغ هـذا الهدف، فمـاذا سيجدي الـشك فيـه ؟ يريدون أن يكـونوا صانعـي سعادتهم وتعـاستهم، وإن صَيَّرَ هذا الميـل الذي لديهم لتـدبر أمرهم بأنفـسهم، وتلك الكـبرياء التي أصلـها خمسة أوستـة أفكار تأويها رؤوسـهم وتعبر عنـها، إن صيرا حياتهم رضيـة لدرجة تجعلهم يتحملـون منها، بمرح، عواقب ضيق أفقهـم المحتومة، فلن يكون هـناك شيء كبـير ينبغـي معارضتـه، شريطة ألا يذهـب ضيق الأفق هـذا إلى حد المطالـبة بتحويل كـل الأشياء، بهذا المـعنى، إلى السـياسة، المطالبـة بأن يحيا كـل الناس ويتصـرفوا حسب هذا المـعيار. أولا، يجب فـي الواقع أن يسمـح للبعض، أكـثر من أي وقت مضى، بالإمتناع عـن السياسة والبقاء على الهامش شيئا مـا : إلى هذا تدفعهم هم كذلـك الرغبـة في تدبـر أمرهم بـأنفسـهم، ويمـكن أن يخـالط ذلك شـيء طفيـف من كبرياء، كبرياء التزام الصمت حين يكون عـدد من يتكلم كبيرا جدا، أو بكل بساطة،

حين يطفح الكيل. ثم، يجب أن نتغاضى عن عدم أخذ هؤلاء سعادة العدد الكبير من الناس مأخذ الجد، سواء قصدنا بالعدد الكبير شعوبا بأكملها أو طبقات من السكان فقط، وأن نتغاضى عن البرطمة الساخرة الأثيمة التي يسمحون بها لأنفسهم عند الإقتضاء، لأن لجديتهم موضعاً آخر، وسعادتهم تحدد بطريقة أخرى، هدفهم لايقاس بشبر هذه الأيدي الثقيلة التي ليس لها ما تمسك به سوى أصابعها الخمسة فقط. أخيرا (من المؤكد أن هذا سيُمنح لهم بصعوبة بالغة، لكن يجب أن يمنح لهم)، تأتي، من حين لآخر، لحظة يخرجون فيها من عزلتهم الصموتة ويجربون مرة أخرى قوة صوتهم : وإذاك يتنادون، مثل أناس تاهوا وسط غابة، ليتعارفو ويشجع بعضهم البعض، الشيء الذي لايمر، طبعا، دون أن يشيع أكثر من شيء مخالف للإحتشام بالنسبة للآذان التي لم يوجه لها هذا الشيء. - ولايلبث بعد ذلك، أن يعود للغابة صمتها، صمت مطبق يسمع خلاله، أوضح من أي وقت مضى، صفير وطنين ورفرفة الحشرات اللاتحصى التي تعيش في الغابة، داخل الغابة أو فوقها أوتحتها.

439. الثقافة والطبقة المغلقة.

لايمكن أن تظهر ثقافة متفوقة إلا حيث توجد طبقتان من المجتمع محصنتان ضد بعضهما : طبقة العمال وطبقة العاطلين القادرين على أوقات الفراغ الحقة، أو بعبارة أبلغ : طبقة تمارس الأشغال الشاقة، وطبقة تمارس العمل الحر. اقتسام الحرية ليس وجهة نظر أساسية حين يتعلق الأمر بإبداع ثقافة متفوقة. والواقع أن لطبقة العاطلين قدرة كبيرة على المعاناة، إنها تعاني أكثر، كما أن فرحتها بوجودها أقل ومهمتها أشق. لو أنه حدث الآن تبادل بين الطبقتين بحيث أن العائلات والأفراد الأكثر بلادة والأكثر غموضا داخل الطبقة العليا يتم إبعادهم إلى الطبقة الدنيا، وبالمقابل يجد الأشخاص الأكثر حرية في هذه منفذا إلى تلك : فسيتم تحقيق دولة لانرى وراءها سوى مَدٍّ كمد البحر من الطموحات الغامضة - هكذا يتحدث إلينا صوت الماضي الخافت، لكن أنى يجدُ آذاناً تسمعه ؟

440. عِرْقٌ نبيل.

إن ما يجعل النساء والرجال الذين من عرق نبيل يتميزون على الآخرين، ويمنحهم حقا ثابتا في التمتع بتقدير كبير جدا، هما فن القيادة وفن الطاعة الأنوفة : فَنَّان ما انفكت الوراثة تُصفيهما. - في أيامنا هذه، حيثما تكون القيادة جزء من العمل اليومي (كما في عالم التجارة والصناعة)، فإنه يتكون شيء مماثل لمثل هذه العائلات «النبيلة

العرق» لكن ينقصه ذلك التماسك في الطاعة الذي هو لدى الآخرين إرث من الحياة الفيودالية والذي لم يعد ينبت في مناخ حضارتنا.

441. الخضــوع.

إن الخضوع، الذي أقيم له وزن كبير في دولة العسكر والموظفين، سوف يفقد مصداقيته سريعا مثلما فقدها نهج اليسوعيين من قبل. وحين لايعود هناك خضوع فسوف تتولد عن ذلك نتائج مدهشة لن يمكن الحصول عليها مستقبلا، وذلك سيفقر العالم. والحال أنه لابد لهذا الخضوع أن يختفي، لأن مرتكزه سيختفي : إنه الإيمان بالسلطة المطلقة، بالحقيقة القطعية. حتى في الدول ذات الأنظمة العسكرية لايكفي الإكراه البدني لخلق هذا الخضوع، يجب أن يكون فيها افتتان وراثي بالشرف الأميري وكأنه شيء فَوْبَشَرِي. - في دولة اجتماعية أكثر حرية لايتم الخضوع إلاوفق شروط معينة، بموجب عقد متبادل، أي مع الحفاظ كلية على المصلحة الشخصية.

442 .الجيوش الوطنية.

إن أكبر سلبيات الجيوش الوطنية، الجيوش الممجَّدة كثيرا في أيامنا هذه، هي تبديد رجال الثقافة المتفوقة، وهم الذين لا يكون وجودهم إلا محاباة لنا من طرف كل الظروف، لذلك وجب علينا أن نحيطهم بعناية مقتصدة وغيورة كبيرة جدا، بما أنه يلزم هذه المُدَدَ الكبيرة من الزمن لخلق هذه الظروفً الجسورةً التي تُكون هذه العقول ذات البنية الرقيقة ! ومثلما كان الإغريق يريقون الدم الإغريقي سيولا فإن الأوربيين كذلك يفعلون اليوم بالدم الأوربي، معلوم أن رجال الثقافة الراقية هم الذين تتم دائما التضحية بهم بنسبة كبيرة، هم الذين سيضمنون نسلا وافرا وممتازا، لأنهم هم الذين يكونون في المقدمة، حين المعركة، بصفتهم قوادا، وهم الذين يتعرضون للخطر أكثر، فضلا عن ذلك، لأن طموحهم سام جدا. - في هذا العصر الذي تفرض فيه نفسَها مهامٌّ مخالفة تماما، وسامية جدا، غير الوطن و الشرف، فإن هذه الوطنية على الطريقة الرومانية تعتبر إما سوء نية وإما نكوصا.

443. الأمل شكل من الإدعاء.

سيذوب نظامنا الإجتماعي ببطء مثلما ذابت كل النظم السابقة بمجرد ما بدأت شموس آراء جديدة ترسل أشعتها النارية الجديدة على الناس. لايمكن أن نتمنى هذا التقصُّف إلا بأن نَأْمُلَهُ : وغير مسموح منطقيا بأن نأمله إلا إذا اعتقدنا أننا، نحن ذاتنا وأندادنا، نملك في الرأس وفي القلب قوة أكبر من التي لدى ممثلي النظام القائم. وغالبا مايكون هذا الأمل ادعاء وإفراطا في تقدير الذات.

444. الحـــــرب.

يمكن أن نـقول ضد الحرب : إنهـا تبلد المنـتصرين وتُصَيِّرُ المنـهزم شريرا. ويمكـننا أن نقول لصـالحها : إنها تُشيعُ الـهمجية بأثـريها المذكورين آنـفا، وبذلك تقرب الـناس من الطبيعة، إنها سبات أو تشتية (Hivernage) الحضارة، يخرج منهـا الإنسان قويا أكثر إن في الخير أو في الشر.

445. في خدمة الأمير.

إن أفضل مـا يمكن أن يفعـله رجل دولته، كي يـتصرف دون أن يوقفـه أحد، هو أن ينجز صنيعه ليس لحسابه هو، بل لحساب أمير ما. إن بريق هذه النزاهة التامة سيبهر عين الملاحظ إلى حـد أنها ستعمى عـن تلك الخداع (perfidies) والفظاظات التي في صنيع كل رجل دولة.

446. مسألة قوة لامسألة حق.

بالنسبة للذين يفكرون في المنفعة العليا التي في كل الأشياء فإن الإشتراكية، إذا افترضنا أنها فعلا ثورة الناس المضَطَهدين، المسحوقين طيلة آلاف السنين، ضد مضطـهديهم، لاتـطرح أية مشكـلة تتعـلق بالحق (مـع هذا السؤال المثير للسـخرية والجبـان : «إلى أي حد يجـب أن يخضـع الناس لمطـالبهـا ؟ »)، بل تطـرح فقط قضـية القوة(«إلى أي حد يمـكن للناس أن يستغـلوا تلك المطالب ؟ »). إجمـالا، إن هذا يشبه قوة طبـيعية، كالبـخار الذي إما يخـدُم الإنسان، مرغمـا، بصفته رب الآلة، وإمـا يحول الإنسـان والآلة معا إلـى شظايا فـي حالة حـدوث اختلال في الآلـة، أي بسبب أخـطاء إنسانيـة في الحساب أثناء تركـيبها. وكي يتم حل مـسألة القوة هذه لابد من مـعرفة قوة الإشتراكية، فـي أي شكل معدل يمكننـا استعمالها كرافـع قوي في اللعبة الحالـية للقوى السياسية؛ ولابـد، عند اللزوم، من فعل كل شيء لـتقويته. على الإنسانيـة أن تفكر، في حضرة كل قوة كبيرة (وحين تكون تلك القوة هي الأخطر) في أن تجعل منها أداة لتنفيذ مشاريـعها. لن تحـصل الإشتراكـية على الحقـوق إلا إذا بدت الحرب معـلنة بين الـقوتين الكبـيرتين، بين ممثـلي النظام الـقديم وممثلي الـنظام الجديد، لـكن يجب آنذاك أن يـخلق الحسابُ الحكيمُ لفرض البقاء والتصالح الرغبةَ في التفاوض لدى الطرفين. لاحقوق دون معاهدة. وحتى الآن ليس هناك، في هذا الميدان الذي ذكرناه، لاحرب ولامعاهدة، إذن لاحقوق كذلك ولا إلزام.

447. استغلال أدنى عدم استقامة.

تكمن قوة الصحافة في كون كل فرد من الأفراد الذين في خدمتها لايشعر إلا بالنزر اليسير من الروابط والواجبات. إنه يقول رأيه في الغالب، لكن في النهاية يحدث له كذلك ألا يقوله، خدمة لوطنه، أو لسياسة بلده، أو لمصالحه الخاصة. لايشق على الفرد أن يتحمل جرائم سوء النية هذه، أو بكل بساطة، ربما، جرائم صمت غير لئيم، لكن عواقب ذلك لاتحصى، إذ يحدث أن يرتكب هذه الجرائم، في الوقت نفسه، أناس كثيرون. كل واحد منهم يقول لنفسه : «بثمن هذه الخدمات الصغيرة جدا أعيش حياة أفضل وأتمكن من أن أقتصد، أن أمتنع عن هذه الاعتبارات البسيطة معناه أن أصير غير مطاق.» بما أن كتابة أو عدم كتابة سطر زائد أو ناقص، وربما دون توقيع، فضلا عن ذلك، بما أنهما يبدوان سيان أخلاقيا فإن كل من له المال والنفوذ يمكنه أن يجعل من أي رأي كان رأيا عاما. ومنذ ذلك الحين يكون الذي يدرك أن الأشياء الصغيرة هي نقطة ضعف أغلب الناس ويريد أن يسخرهم لخدمة غاياته الخاصة، يكون إنسانا خطيرا دائما.

448. نبرة صك الإتهام المغالية.

إذا ما تم وصف أزمة (كعيوب الإدارة مثلا، أو الرشوة والمحاباة داخل الهيئات العلمية والسياسية) بكلمات مبالغ فيها كثيرا فإن الوصف يفقد حظه في أن يؤثر في العقول البصيرة، لكنه يؤثر كثيرا في العقول الأخرى (التي لن يحركها عرض دقيق ومتزن). لكن بما أن هذه العقول غير البصيرة هي التي تشكل الأغلبية الساحقة، وبما أن إرادتها قوية ورغبتها في الفعل مندفعة، فإن هذه المبالغة ينتج عنها في نهاية المطاف تحريات، عقوبات، وعود، وإعادة الهيكلة. - بهذا المعنى يعتبر رسم لوحة تجسد الأزمات بشكل مبالغ فيه شيئا مفيدا.

449 الذين يبدون ذوي سلطة ونفوذ في السياسة.

مثلما الشعبُ يفترض ضمنا أن الذي يمهر في التنبؤ بما سيحدث قبل وقوعه بيوم واحد يمكنه الفصل في الأمور كما يحلو له، فإن أناسا مثقفين وعلماء كذلك يسرفون في الخرافة كي ينسبوا إلى رجال الدولة العظماء كل التغيرات وكل الظروف ذات الأهمية، التي طرأت إبان حكمهم، على أساس أنها من عملهم هم، والحالة أنه جلي جدا أنهم قد علموا بها قبل الآخرين وبنوا حساباتهم على ذلك العلم : وينظر إليهم الناس بذلك على أنهم ذوو سلطة ونفوذ - وهذا الاعتقاد لايشكل أدنى أدوات قوتهم.

450. التصور القديم والجديد للحكومة.

إن التمييز بين الحكومة وبين الشعب كما لو كان الأمر يتعلق بمنطقتي قوة تتفاوضان قبل أن تتفقا، الواحدة قوية وسامية، والأخرى ضعيفة ومتدنية، هو شيء يصدر عن حس سياسي موروث عن الماضي، وهو الآن، في أغلب الدول، يوافق الواقع التاريخي لميزان القوى تماما. مثلا، حين يصف بسمارك (Bismark) الشكل الدستوري بأنه صك تراض بين الحكومة وبين الشعب فإنه يتحدث طبقا لمبدإ له حجته عبر التاريخ (ويستنتج منه، بالطبع، ذرة الغباوة التي بدونها لن يمكن لأي شيء إنساني أن يوجد). بالمقابل، يريدون الآن أن يعلمونا – طبقا لمبدإ خرج مثلما هو من المخ ويفترض أنه سيصنع التاريخ هو وحده – أن الحكومة مجرد عضو من الشعب وليست جهازا «عاليا» حكيما ووقورا مقارنة مع شعب «متدن» اعتاد التواضع. ولنتحمل، رغم كل شيء، عواقب تعريف فكرة الحكومة هذا قبل إقراره، وهو الآن ضد تاريخي (antihistorique) وتعسفي، وإن كان منطقيا : لأن العلاقة بين الشعب والحكومة هي أقوى أنواع العلاقة، هي الشكل نفسه الذي تحتذيه علاقات التلميذ والإستاذ، السيد والخدم، الأب والأسرة، القائد والجندي، المعلم الحرفي والمتمهن. حاليا، وتحت تأثير شكل الحكومة الدستوري، تتغير كل هذه العلاقات شيئا ما : تصبح صكوكَ تراض. وكم سيكون عليها أن تستحيل* وتتشوه، أن تغير اسمها وطبيعتها، حين يتمكن هذا التصور الآخر الجديد كلية من العقول في كل مكان ! صحيح أن ذلك شيء قد يتطلب قرنا من الزمن. ولاشيء يمكن أن نرجوه بصدد هذا أكثر من الحذر والتطور البطيء.

451. العدالة طُعْمٌ للأحزاب.

قد يحدث بالتأكيد أن يتعهد بعض الممثلين النبلاء لطبقة الحاكمة (والذين ليسوا متبصرين جدا) بما يلي : «سنعامل الناس على قدم المساواة، سنعترف لهم بحقوق متساوية»، وبهذا المعنى يمكن أن يكون هناك توجه اشتراكي مرتكز على العدالة، لكن فقط، كما أسلفنا، في أوساط الطبقة الحاكمة التي تمارس العدالة، في هذه الحالة، في الوقت الذي تقدم فيه تضحيات وتبين عن نكران الذات. على العكس من ذلك، فإن المطالبة بمساواة الحقوق، مثلما يفعل الاشتراكيون والطبقة الخاضعة، لم تعد على الإطلاق تشكل تعبيرا عن العدالة، بل عن الجشع. – حين نري السبع، عن قرب، أطراف لحم دام ثم نسحبها، حتى أنه في النهاية يشرع في الزئير، فهل تعتقدون أن ذلك الزئير مطالبة بالعدالة ؟

* تغيير في الكيف مع بقاء الصورة النوعية (المنهل)

452. الملكية والعدالة.

حين يبرهن الاشتراكيون على أن تقسيم الملكية، في المجتمع الإنساني الحالي، هو نتيجة أعمال جائرة وأعمال عنف لاحصر لها، ويرفضون جملة كل التزام بخصوص هذا التقسيم ذي المرتكز الجائر، فإنهم لايدركون سوى جزئية واحدة. فماضي الحضارة القديمة كله مبني على العنف والإستعباد والخديعة والخطأ، لكننا نحن ورثة كل حالات وترسبات هذا الماضي كله لايمكننا أن ننفصل عنه بمرسوم، بل لايمكننا السماح لأنفسنا بأن نقتطع منه جزء واحدا، إن مبدأ الجور متمكن من نفوس غير المالكين كذلك، إنهم ليسوا أفضل من المالكين وليس لهم أي امتياز أخلاقي، فقد كان أسلافهم مالكين بدورهم في زمن ما. إن ما ينقصنا ليس تقسيمات جديدة وعنيفة، بل تغيرات تدريجية في العقل، ينبغي أن تنمو العدالة ويضعف مبدأ العنف لدى كل الناس.

453. نُوتيُ الانفالات.

يثير رجل الدولة انفعالات شعبية كي يستفيد من الإنفعال المضاد الذي ينتج عنها. لنأخذ مثالا : يعرف رجل الدولة الألماني جيدا أن الكنيسة الكاثوليكية لن تكون لها أبدا نفس المشاريع التي تكون لروسيا، بحيث أنها ستفضل حتى التحالف مع الأتراك على التحالف مع روسيا، إنه يعرف، من جهة أخرى، أن خطر تحالف روسيا وفرنسا يشكل تهديدا لألمانيا. إن استطاع إذن أن يتوصل إلى جعل فرنسا مقرا للكنيسة الكاثوليكية ومعقلا لها فإنه سيكون قد أبعد الخطر لمدة طويلة. من مصلحته بالتالي أن يبدو شديد الحقد على الكاثوليك وأن يلجأ إلى أعمال عدوانية من كافة الأشكال كي يحول البابويين إلى قوة سياسية منفعلة تكون معادية للسياسة الألمانية وسيكون عليها بالطبع أن تمزج بين قضيتها وبين قضية فرنسا، عدوة ألمانيا : سيكون من أهداف هذا الرجل كذلك جعل فرنسا كاثوليكية ، فرنسا التي كان ميرابو يرى خلاصها في إخراج الكاثوليكية منها. -هكذا تريد دولة تعتيم ملايين العقول في دولة أخرى لتستفيد من ذلك. إنها نفس حالة العقل الذي، في الدولةالمجاورة، يدعم الشكل الجمهوري في الحكم - الفوضى المُنَظَّمَة، كما يقول ميريمي - لمجرد كونه يعتقد أن هذا الشكل يستطيع مفاقمة الضعف والإنقسام والعجز لدى الشعب.

454. الثوريون الخطرون.

سنميز لدى الذين يحلمون بالثورة داخل المجتمع، أولئك الذين يريدون الحصول على شيء لأنفسهم وأولئك الذين يريدون الحصول على شيء لأبنائهم وأحفادهم.

هؤلاء الأخيرون هم الخطيرون، لأن لهم إيمانَ النزاهة وراحةَ ضميرها. الآخرون يمكن أن يُعطاهم شيء مؤقت : وتكون الجماعة الحاكمة دائما غنية وفطنة بما فيه الكفاية كي تقوم بهذا . يبدأ الخطر بمجرد ما تصير الأهداف لاشخصية، فالثوريون الذين تحركهم أهداف لاشخصية مهيأون لاعتبار كل المدافعين عن النظام القائم متنفعين، وبالتالي يشعرون أنهم أسمى منهم.

455. القيمة السياسية للأبوة.

الذي ليس له أبناء ليس له الحق مطلقا في أن يتداول مع الآخرين بخصوص حاجيات دولة قائمة. يجب أن يكون قد جازف فيها مع الآخرين بأغلى مايملك، هذا وحده هو ما يخلق رباطا متينا مع الدولة. على المرء أن ينشغل بسعادة ذريته، إذن أن تكون له ذرية قبل كل شيء، كي يكون له اهتمام عادل وطبيعي بكل المؤسسات وبتحولها. إن تطور الأخلاق الراقية يتوقف على أن يكون للمرء أبناء، هذا هو ما يقْلب الحالات الأنانية لدى الأب، أو بالضبط : هو ما يوجه أنانيته نحو الدوام ويجعله يجري جديا وراء أهداف تتجاوز وجوده الفردي.

456. فخور بأسلافه.

يمكن للمرء، بل يحق له، أن يفخر بسلالة متصلة من الأجداد الصالحين تمتد حتى الأب، - لكن ليس له أن يفخر بالسلالة ذاتها، لأن لكل شخص سلالته. الإنحدار من أجداد صالحين هو ما يشكل نبل الولادة الأصيل، ويكفي وجود انقطاع واحد في هذه السلسلة، أي وجود جد واحد خبيث، كي يزول نبل الولادة هذا. إن كل من يتحدث عن نبالته يجب أن نسأله : أليس في أجدادك شخص عنيف، وجشع أو فاسق أو فظ ؟ إن استطاع أن يجيب بالنفي صادقا وجب علينا السعي لاكتساب صداقته.

457. العبيد والعمال.

إننا نولي إرضاء غرورنا أهمية أكبر من التي نوليها لباقي رفاهيتنا (للأمن، للأماكن وللذات بكل أشكالها)، إننا نرى ذلك جيدا، إلى حد السخافة، في كون كل الناس يتمنون (دون أي سبب سياسي) إلغاء العبودية، ويرعبهم استعباد الناس أيما رعب، ومع ذلك فإن كل الناس سيقولون لأنفسهم أن العبيد يحيون، بكل الاعتبارات، حياة أكثر أمناً وسعادة من حياة العامل العصري، أن عمل العبد يعتبر شيئا قليلا إذ ما قورن بعمل «العامل». يحتج الناس باسم «الكرامة الإنسانية» : والحالة أنه هنا يكمن، بالتلميح، ذلك

الغرور العزيز الذي يجعل الناس يكتشفون أن أقسى مصير قد يؤولون إليه هو ألا يعامَلوا على قدم المساواة وأن يُنْتَقَصَ من قيمتهم أمام الملأ. - يفكر الكلبي بشكل مخالف بشأن هذا الموضوع، لأنه يزدري الشرف : - ولذلك كان ديوجين، لبعض الوقت، عبدا ومربيا منزليا.

458. قواد الناس وأدواتهم.

إننا نرى السياسيين الكبار، وبشكل عام، كل الرجال المجبرين على استخدام عدد من الناس لتنفيذ مخططاتهم، نراهم تارة ينهجون طريقة ما و تارة أخرى طريقة مغايرة : إنهم إما يختارون بدقة كبيرة وبعناية أولئك الأشخاص الذين يناسبون تخطيطاتهم، وآنداك يتركون لهم حرية كبيرة نسبيا، وهم يعلمون أن طبيعة هؤلاء المختارين ستدفعهم بالضبط إلى المكان الذي يريدونهم أن يكونوا فيه؛ وإما يسيئون الاختيار، يأخذون الناس الذين تطالهم أيديهم، لكنهم يشكلون من ذلك الطين شيئا يتطابق مع غاياتهم. ويكون أفراد هذه الفصيلة الأخيررة أكثر عنفا، ويتطلبون كذلك أدوات أكثر خضوعا. وعادة ما تكون معرفتهم بالناس أقل، وإزدراؤهم لهم أكبر مما هما عليه لدى أفراد الفصيلة الأولى، لكن الآلة التي يصنعونها غالبا ماتعمل أفضل من الآلة التي تنتجها معامل الآخرين.

459. ضرورة قانون استبدادي.

يختصم رجال القانون في ما إذا كان القانون المنظَّم أكثر بطريقة منهجية أم القانون الذي يسهل فهمه هو الذي سينتهي بأن يسود شعبا ما. القانون الأول، الذي يعتبر القانون الروماني نموذجه الذي لا نظير له، يبدو غير مفهوم لدى الجاهل بأصول القانون والذي لا يرى فيه، بالتالي، تعبيرا عن حسه القانوني. لقد كان القانون الشعبي، كالقانون الجرماني مثلا، غير متقَن، خرافيا، لامنطقيا، وعبثيا في جزء منه، لكنه كان يستجيب لبعض التقاليد والعواطف المعينة ذات الطابع الوطني والوراثي. - غير أن القانون لايمكن أن يكون سوى أمر وإكراه هناك حيث لم يعد تقليداً (tradition)، مثلما الأمر عندنا، إنه لم يعد لدينا أي حس قانوني تقليدي، ويجب علينا كذلك أن نكتفي بقوانين استبدادية، فالضرورة تتطلب حتما أن يكون هناك قانون. والقانون المقبول أكثر، في كل الحالات، هو القانون المنطقي أكثر، لكونه هو المحايد أكثر : مع احتمال أن يوافق على كون أصغر المعايير المطبقة على الصلة بين الجريمة والعقاب يتم تحديدها بشكل تعسفي في كل واحدة من هاتين الحالتين.

460. عظيم الجماهير.

من السهل إعطاء وصفة تكوين ما يسميه الجماهير رجلا عظيما. أوْ جدْ لها، في الحل والترحال، شيئا يرضيها، أو اجعلها تعتقد أن هذا أوذاك سيرضيها كثيرا، ثم امنحه إياها. لكن، مهما يكن التعويض : ودون أن تدخر عناء، ابذل قصارى جهدك في الحين كي تحصل على ما يرضيها، أو فلتتظاهر بذلك. يجب أن يكون لدى الجماهير انطباع بأن هناك إرادة قوية، بل إرادة لاتقهر، تباشر العمل، ينبغي، على الأقل، أن تبدو مباشرة للعمل. الكل يعجب بالإرادة القوية، لأنه لاأحد يمتلكها، ولأن كل واحد يقول لنفسه أنه لو امتلكها فلن تكون هناك حدود بالنسبة له، بالنسبة لأنانيته. وإن بدا آنداك أن قوة الإرادة هذه تحقق شيئا مرضيا جدا للجماهير عوض أن تحقق أمنيات جشعها هي فإن الناس سيعجبون بها مرة أخرى وسيهنئون أنفسهم. حتى وإن كانت لهذا الرجل المتطوع كل خاصيات الجماهير فإن شعبيته ستتنامى كلما قل خجل الجماهير أمامه.فليكن شرسا، حسودا، مستغلا، دساسا، مجاملا، متذللا، منتفخا كبرياء، وكل ذلك حسب الظروف.

461. الأمير والإله.

يقيم الناس مع أمرائهم نفس العلاقات التي يقيمونها مع إلههم، وذلك مادام صحيحا، لاعتبارات عدة، أن الأمير هو ممثل الإله، أو على الأقل كاهنه الكبير. إن هذا الإحساس المقلق، إحساس الإجلال الذي هو في الوقت نفسه إحساس بالخشية والحشمة، قد ضعف كثيرا في الماضي وفي أيامنا هذه، لكنه يشتعل من جديد في بعض الأحيان ليرتبط، بشكل عام، بالشخصيات القوية. وما تقديس العبقرية إلا بقية من إجلال الآلهة والأمراء هذا. حيثما جَدَّ الناس في رفع بعض الرجال، وهم مجرد أشخاص بسطاء، إلى وضع فوإنساني، فإنه يظهر ثمة كذلك الميل إلى تصور بعض طبقات المجتمع بأكملها أكثر فظاظة ودناءة مما هي عليه في الواقع.

462. مدينتي الفاضلة.

سيكون علينا، داخل نظام اجتماعي أفضل، أن نخُص بأقصى العقوبات ذلك الذي سيعاني منها بشكل أقل، أي الشخص الأكثر لامبالاة، وأن نسند إليه الأعمال الشاقة المضنية في الحياة، ثم نرتقي تدريجيا حتى نبلُغ الإنسان الأكثر إحساسا بأنبل أصناف المعاناة وأكثرها تساميا، ذلك الإنسان الذي لن تمنعه من الاستمرار في الحياة حياةٌ قد خففت آلامها إلى أقصى حد.

463. وهم في نظرية الثورة.

هناك حالمون بخصوص السياسية والمجتمع يدفعون، بكل فصاحتهم الملتهبة حماسا، إلى ثورة شاملة على النظام القائم،اعتقادا منهم بأنه مباشرة بعد ذلك سينتصب، كأنما من تلقاء نفسه، أكبر معبد للإنسانية الجميلة. في هذه الأحلام الخطيرة يستمر صدى خرافة روس و الذي يؤمن بطيبة الجبلة الإنسانية (la nature humaine) ، طيبة خارقة وأصيلة، ولكنها تبدو الآن شبه مُوَرَّاة، ويعزو خطأ هذه المواراة إلى مؤسسات الحضارة، أي إلى المجتمع والدولة والتربية. إننا نعلم، مع الأسف، على إثر تجارب تاريخية، أن كل ثورة من هذا النوع تحيي أشد الطاقات توحشا، باعثة من العصور القديمة الرعب والقسوة المطمورين منذ أمد طويل؛نعلم أن الثورة يمكن إذن أن تكون مصدر طاقة بالنسبة لإنسانية منهكة، لكنها لن تكون أبدا، بالنسبة للطبيعة الإنسانية، معماريا ينسقها وفنانا ينجزها. إن الذي أثار روح الثورة الطموحة هذه، والتي أنادي ضدها بما يلي : «اسحقوا الدنيء»، ليس هو فولتير، بطبعه المتزن، الذي يميل إلى التنظيم والتطهير وإعادة البناء، بل هو روسو، هي حماقاته وأكاذيبه المتحمسة، وهو الذي طرد لمدة طويلة روح الأنوار وروح التطور التدريجي : وقد جاء دورنا لنرى - كل من جهته - إن كان استرجاع تلك الروح ممكنا.

464. الإتزان.

إن الحزم الصارم في الفكر وفي البحث، أي الفكر الحر، حين يصير خاصية من خاصيات الطبع، يضمن سلوكا متزنا : لأنه يُضعف الجشع، يجذب إليه قدرا كبيرا من الطاقة المتاحة، لصالح الطموحات الفكرية، ويكشف في كل التغيرات الفجائية عن منفعتها القليلة، بل عن عدم منفعتها وعن خطرها.

465. انبعاث الروح.

حين يمرض شعب ما سياسيا فإنه غالبا ما يستعيد حينذاك حياته بشكل تلقائي ويسترجع روحه التي فقدها شيئا فشيئا في البحث عن القوة والاحتفاظ بها، إن الحضارة مدينة بأسمى قيمها لمراحل ضعفها السياسي.

466. الأفكار الجديدة تسكن البيت القديم.

إن سقوط الأفكار لا يتبعه مباشرة سقوط المؤسسات، لكن الأفكار الجديدة تسكن لمدة طويلة بيت سابقتها الذي صار خَرِباً ومزعجا، بل إنها تحافظ عليه لأنها لاتجد مكانا آخر يؤويها.

467. التعليم.

في الدول العظمى سيكون التعليم دائما رديئا، على أكثر تقدير، بسبب كون الناس، في المطابخ الشهيرة، لايطهون على مهل أبدا، وهم يحولون الأشياء إلى الأفضل، سوى طعام رديء.

468. فساد بريء.

كل المؤسسات التي لاتهب عليها ريح النقد الشعبي القوية ينمو فيها بسرعة فساد بريء (في الهيئات العلمية مثلا، أو في مجالس الأعيان).

469. العالم الذي صار سياسيا.

حين يصير العلماء سياسيين فإنه عادة ما يُسند إليهم الدور الهزلي، دور أن يكونوا راحةَ ضميرِ سياسةٍ ما، سواء أحبوا ذلك أم كرهوه.

470. الذئب في إهاب الحمل.

في بعض الأحوال يحدث لكل سياسي تقريبا أن يكون في حاجة ماسة إلى إنسان نزيه لدرجة أنه يقتحم الحظيرة مثل ذئب جائع : إلا أنه لايقتحمها ليفترس الكبش المخطوف، بل ليختبئ في إهابه الأصْوَف.

471. عصور سعيدة.

إن عصرا من السعادة شيء مستحيل بالإطلاق لأن الناس يكتفون بتمنيه دون أن يريدوه فعلا، ولأن كل فرد، حين تصادفه أيام سعيدة، يتعلم أن يستدعي إليه القلق والبؤس. قَدَرُ الناس مرتب ليلائم اللحظات السعيدة - ففي كل حياة هناك لحظات سعيدة - وليس ليلائم عصورا كاملة من السعادة. إنها عصور باقية في خيال الناس، مع ذلك، متخذة شكل «ماوراء الجبال»، كإرث من العهود السالفة، إذ لاشك أن الناس قد استعاروا، بشكل ممعن في القدم، تصورهم للعصور السعيدة من تلك الحالة التي يخلد فيها الإنسان، بعد بذله مجهودات عنيفة في الصيد والحرب، إلى الراحة، يمد أعضاءه ويسمع حفيف أجنحة النوم حوله. يتصور الإنسان، من خلال قياس فاسد، أنه يمكنه الآن، طبقا لهذه العادة القديمة، وبعد قرون كاملة من الضيق ومن التقلبات، أن يضع يده على حالة السعادة هذه، وهي حالة مكثفة ومطولة بالمقارنة مع تلك القرون.

472. الدين والحكومة.

طالما عرفت الدولة، أو الحكومة بالضبط، أنها تحت وصاية جمهور أصغر(mineure)، وطالما وزنت مسألة معرفة إن كان عليها أن تحتفظ بالدين لنفسها أو أن تلغيه، فإنه يكون من المحتمل جدا أن تقرر الإبقاء على الدين. لأن الدين يضمن طمأنينة النفس في مرحلة الإحباط، مرحلة الحرمان والرعب والريبة، أي في المرحلة ذاتها التي تشعر فيها الحكومة بأنها عاجزة عن فعل أي شيء، بشكل مباشر، كي تخفف الآلام المعنوية للفرد. فضلا عن ذلك فإن الدين يضمن، حتى في حالة الكوارث العامة التي لايمكن تفاديها ولاعلاجها رأسا (كالمجاعات والأزمات المالية والحروب)، يضمن موقفا هادءا، ترقبيا، وواثقا، من طرف الجمهور. حيثما تكون أخطاء الحكومة، المحتومة أو العرضية، أوالآثار الخطيرة لمصالح سلالية،*واضحة لعين الإنسان المتبصر وتهيئه للتمرد، فإن الآخرين الأقل تنورا سيعتقدون أنهم يرون وراء ذلك يدا إلهية وسيخضعون دون تبرم لأوامر الفوق (وهو مفهوم عادة ما تختلط فيه طرق الحكم الإلهية و الإنسانية) : هكذا سيكون قد تم الحفاظ على الأمن المدني في الداخل، وكذلك على استمرار التطور. الدين يحمي ويرسخ القوة الكامنة في وحدة مشاعر الشعب، في الآراء المتطابقة والأهداف المتماثلة بالنسبة لكل الناس، باستثناء الحالات النادرة التي لايتوصل فيها رجال الدين إلى اتفاق على الثمن مع السلطة العمومية ويدخلون معها في صراع. وعادة ما تعرف الدولة كيف تصالح الكهنة لأنها تحتاج إلى فنهم الشديد الخصوصية والسري في مجال تربية النفوس، ولأنها تعرف كيف تقدر الخُدام الذين يتصرفون ظاهرا وظاهريا باسم مصالح مغايرة تماما لمصالحها هي. لايمكن لأية قوة، حتى في أيامنا هذه، أن تصير «شرعية» دون مؤازرة الكهنة لها : وهو ما أدركه نابليون جيدا. - هكذا يقترن الحكم المطلق الوصي بالحفاظ اليقظ على الدين.. الآن وقد ثبت هذا فإنه يمكننا الإقرار بأن الشخصيات والطبقات الحاكمة مرتبطة بواقع المنفعة التي يضمنها الدين لها، وهكذا تشعر بتساميها عليه إلى حد معين بما أنها تستخدمه كما تستخدم وسيلة ما: الشيء الذي يفسر كون هذا أصل الفكر الحر. لكن ما عسانا نقول الآن وقد بدأ تصور فكرة الحكومة هذا المغاير تماما، والذي يدرس في الدول الديمقراطية، يفرض نفسه ؟ هل نقول إننا لانرى فيه سوى أداة لإرادة الشعب، أنه ليس شيئا رفيعا منسوبا إلى شيء حقير، بل هو، بكل بساطة، وظيفة السيد الوحيد، أي الشعب ؟ هنا لايسع الحكومة إلا أن تتخذ من الدين نفس الموقف الذي

* متعلق بالسلالة الحاكمة = (dynastique)

يتخذه الشعب منه، ولابد لأي نشر للمعارف أن يطال أثره حتى ممثلي الدين، وسوف لن يعود ممكنا استعمال واستغلال الدوافع والمواساة الدينية لأغراض سياسية (اللهم إلا إذا مارس بعض قادة الأحزاب، مؤقتا، تأثيرا يبدو مشابها لتأثير الإستبداد المستنير). لكن إن لم يكن للدولة ذاتها إذنٌ لاستغلال الدين، أو إن نما الشعب آراء شديدة التباين بخصوص الدين حتى أنها لاتسمح للحكومة، حين تتخذ إجراءات بشأن الدين، باتباع طريقة متجانسة ومتسقة، فإن ما سينتج عن ذلك حتما هو اعتبار الدين شأنا خاصا وترك مسؤولية ممارسته أو عدمها لضمير وعادة كل واحد على حدة. وستكون نتيجة ذلك، قبل كل شيء، هي ظهور الحس الديني حصينا، ذلك أن الميول السرية والمكبوحة، التي كانت الدولة تخنقها عن قصد أو عن غير قصد، ستتفجر آنذاك وقد تم دفعها إلى أقصى الجموح، وسننتبه لاحقا إلى إن الدين قد اختفى وراء كثرة الطوائف، وأننا قد زرعنا أضراس التنين بشكل مسرف منذ جعلنا من الدين شأنا خاصا. وفي نهاية الأمر لن يترك مشهد النزاعات وتعرية ضعف الإعترافات الدينية (confessions)، أثناء العداوة، لن يتركا لكل واحد من الأفاضل ومن النابغين أي مخرج آخر سوى أن يجعل من اللادين شغله الشاغل : تلك هي العقلية التي ستفرض نفسها آنداك حتى على عقل رجال الحكومة وتضفي صبغة مضادة للدين على الإجراءات التي سيتخذونها، وإن فعلوا ذلك على مضض. بمجرد ماتبلغ الأمور هذا الحد ستنقلب تصرفات الناس الذين لانزال العواطف الدينية تحركهم، والذين كانوا من قبل يفتتنون في الدولة بشيء مقدس جزئيا أو كليا، ستنقلب إلى تصرفات معادية للدولة بشكل صريح. سيرصد هؤلاء الناس إجراءات الحكومة، سيحاولون أن يشلوا الحكومة، أن يتصدوا لها، أن يقلقوها قدر ما يستطيعون، وبذلك سيرمون بالخصم، أي بالطرف اللاديني المدفوع بنار معارضتهم ذاتها، في أتون حماس أشبه بالتعصب للدولة، الشيء الذي سيقرن به أثر خميرة سرية، لأن النفوس ستشعر بالفراغ منذ لحظة القطيعة بين هذه الأوساط وبين الدين، وستسعى، بوفائها للدولة، إلى إيجاد بديل مؤقت، نوع من سدادة فجوات. بعد هذه الصراعات الإنتقالية، والتي قد تدوم طويلا، ستكون أخيرا قد حلت مشكلة معرفة ما إن كانت لاتزال لدى الأطراف الدينية قوة كافية لإحياء الحالة القديمة للأشياء والعودة بالأمور إلى الوراء : في هذه الحالة حتما سيأخذ الاستبداد المستنير بزمام الدولة (وربما يكون أقل استنارة وأكثر خجلا من ذي قبل)، - أو ستنتهي الأطراف اللادينية، إن كانت لها الغلبة، إلى جعل ذلك مستحيلا، وذلك بتعريض بقاء خصومها للخطر من خلال المدرسة والتربية، كما قد نتصور. لكن هذا التحمس للدولة سيفتر آنداك حتى لديهم : سيبدو جليا أكثر فأكثر أن الرجة التي ستصيب هذا التَّدلُّه الديني،

الذي تعتبر الدولة بالنسبة له سرا ومؤسسة فوطبيعية، ستصيب كذلك كل ما كان يتم إضفاؤه عليه من إجلال وتقوى. ومنذ ذلك الحين لن يرى الأفراد من الدولة إلا الجانب الذي قد ينفعهم أو يَضرُ بهم، وَسَيُهَاجِمُونَهَا بكافة الوسائل من أجل أن يتغلبوا عليها. لكن هذا التنافس سرعان ماسيحتد، وسيتغير الناس والأحزاب بسرعة كبيرة، سينحدرون بالتناوب إلى السفح، وهم لو يكادوا يبلغوا القمة، في فوضى عارمة. وستفتقر كل الإجراءات التي ستفرضها دولة ما إلى ضمان الدوام، سيتراجع الناس أمام مشاريع تتطلب عشرات، بل مآت السنين من النمو الهادىء كي تؤتي ثمارها في إبانها. سوف لن يشعر أي واحد تجاه القانون بأي واجب غير الإنحناء أمام القوة التي شرعته : لكن في الحال سيشرع الناس في العمل على تقويضها بواسطة قوة جديدة، بأغلبيه جديدة يتعين تشكيلها. في الأخير - ويمكن أن تثبت ذلك بيقين - إن الإرتياب في كل مايمت بصلة إلى الحكومة، وكشف الجانب العديم الجدوى والمنهك في هذه الصراعات الحادة، لايمكنهما إلا أن يدفعا الناس إلى قرار جديد كل الجدة : حذف مفهوم الدولة وإلغاء المعارضة «الخاصة والعامة». وبالتدريج ستبتلع الشركات الخاصة أمور الدولة : حتى أقسى ما سيتبقى من عمل الحكومة القديم (مثل تلك الوظيفة التي غرضها حماية الخواص من الخواص) سيؤول أمره في نهاية المطاف إلى المقاولين الخواص. إن ازدراء الدولة وانحطاطها و موتها ، إن تحرير الخاص (لا أقوى على قول : تحرير الفرد)، هي نتائج التصور الديمقراطي للدولة، هنا تكمن رسالته. وبمجرد ما ينجز مهمته (التي تحمل في طياتها كثيرا من الصواب والخطأ، مثلها مثل كل الأمور الإنسانية)، بمجرد ما يتغلب على انتكاسات المرض القديم كلها، فإن صحيفة جديدة ستتلاحق أحداثها في كتاب حكايات الإنسانية، وسيقرأ فيها كل أنواع القصص الغريبة، ربما مع بعض المقاطع الجيدة كذلك. لنوجز ماسبق : إن مصلحة الحكومة في دورها كوصية ومصلحة الدين تسيران يدا في يد بحيث أنه بمجرد ما يبدأ الدين في الإنحدار تتزعزع أسس الدولة. إن الإيمان بنظام إلهي في الشؤون السياسية، بسر في وجود الدولة، لهو تفكير ذو أصل ديني : إذا زال الدين فستفقد الدولة، بزواله، حتما حجاب إيزيس* القديم الذي يغطيها، ستكف عن إلهام الإجلال. إن سيادة الشعب، منظورا إليها عن كثب، ستصلح كذلك لإزالة آخر بقايا السحر والخرافة في ميدان العواطف هذا. ستكون الديمقراطية الحديثة هي الشكل التاريخي الذي يمثل انحطاط الدولة. مع ذلك فإن المنظور الناتج عن هذا الإنحطاط ليس كارثيا بكل الإعتبارات :

* إيزيس : إلهة الأمومة والخصب المصرية .

فمن بين كل خاصيات الناس تعتبر فطرتهم وأنانيتهم هما الأفضل تطورا، وحين تكف الدولة عن الاستجابة لمتطلبات هاتين القوتين فلن تكون الفوضى أبدا هي ما سيحل محلها، بل ابتكارٌ أشدُّ فعاليةً من الدولة هو الذي سيتمكن من الانتصار عليها. عديدة هي قوى التنظيم التي شهدتها الإنسانية تنضني من قبل، مثل قوة رابطة العرق التي كانت طيلة ألفيات أقوى بكثير من رابطة العائلة، والتي كانت كذلك تملك حتى السلطة والتنظيم قبل أن تتشكل العائلة بأمد طويل. إننا نرى فكرة الحق والسلطة العائليين الكبيرة تشحب وتضعف أكثر كل يوم، وهي التي هيمنت على العالم الروماني في كامل امتداده. هكذا سيرى جيل مستقبلي الدولة هي الأخرى تفقد كل أهمية، - فكرة قلما يستطيع الكثير من المعاصرين التفكير فيها دون أن تلفهم الخشية والرعب. أكيد أن العمل على نشر هذه الفكرة وتحقيقها هو شيء أخر : يجب أن ننمي رأيا مغرورا جدا بخصوص صوابه وأن لانفهم التاريخ إلا جزئيا لكي نمسك بالمحراث منذ الآن، - والحال أنه لا أحد يستطيع أن يُرينا البذور التي سيكون علينا زرعها بعد ذلك في الأرض المحروثة. لنثق إذن «في فطرة الناس وفي أنانيتهم» قصد ترك الدولة تبقى بعد وقتا طويلا والتصدي للمحاولات التخريبية التي يقوم بها بعض أنصاف العارفين المتحمسين والمستعجلين جدا.

473. الإشتراكية من وجهة نظر وسائلها في العمل.

الإشتراكية هي الأخ الأصغر والغريب الأطوار للإستبداد المحتضر، وهي تريد أن ترثه. طموحاتها إذن رجعية بأدق ما في الكلمة من معنى. ذلك أنها ترغب أن تبلغ قوة الدولة تلك الدرجة من الكمال التي لم يبلغها قط غير الاستبداد، بل إنها تزايد على الماضي رامية إلى تدمير الفرد بلا قيد أو شرط : هذا الفرد الذي يبدو لها ترفا أوجدته الطبيعة دون أن تبرره بحيث تعتقد هي أنها مدعوة إلى إصلاحه كي تجعل منه أداة نافعة ضمن الجماعة. وبسبب هذه القرابة تظهر دائما بجانب كل عرض مفرط للقوة، مثلما كان النموذج الإشتراكي القديم، أفلاطون، يظهر في ساحة طاغية صقلية. إنها تتمنى أن تؤول الدولة للاستبداد القيصري (وتساعده عند الإقتضاء) لأنها تريد،مثلما أسلفت، أن تكون وارثته. لكن حتى هذا الإرث لن يفي بغايتها،لأن ما يلزمها هو خضوع كل المواطنين خضوع العبيد للدولة المطلقة، خضوعهم بشكل لم يسبق له نظير. وبما إنه لايمكنها حتى الاعتماد على الورع الديني القديم الذي كانت تستفيد منه الدولة، والذي يجب عليها، على العكس، أن تعمل باستمرار، طوعا أو كرها، على إزالته - بما أنها تعمل فعلا على إزالة كل الدول القائمة - ، فإنه لايمكنها أن تأمل في تحقيق وجودها هنا

أو هناك إلا لمدة قصيرة، ملتجئة إلى الإرهاب العنيف. لذلك تستعد خفية لممارسة الرعب، لذلك تدق كلمة «عدالة» مثل إسفين في رؤوس الجماهير النصف مثقفة حتى تحرمها كلية من حسها السليم (هذا الحس السليم الذي عانى كثيرا من كونها نصف مثقفة) وتمنحها راحة الضمير بخصوص المهمة الخبيثة التي سيكون عليها القيام بها. - قد تصلح الإشتراكية لتعليم الناس، بشكل عنيف وواضح، خطر تراكمات قوة الدولة، ولتثير لديهم حذرا من الدولة نفسها. إذا امتزج صوتها بصرخة الحرب : «ليكن نفوذ الدولة أكبر ما يمكن»، فإن هذه الصرخة ستصير بفعل ذلك صخابة أكثر من أي وقت مضى، ولكن سرعان ما ستتفجر، وبقوة موازية، صرخة مضادة : «ليكن نفوذ الدولة أضعف مايمكن».

474. تطور العقل تخشاه الدولة

لقد كانت دولة المدينة (Polis) عند الإغريق، ككل قوة سياسية مُنَظِّمَة، مانعة لنمو الثقافة وشديدة الإرتياب فيه، وقلما كانت لغريزة العنف الأساسيةً لديها على الثقافة آثار غير تلك التي تشلها وتكبحها. إنها لم تكن تريد أن تقبل في الثقافة لا بالتاريخ ولا بالصيرورة. إن التربية المقررة في الدستور قد وضعت لتستمر مع كل الأجيال وتجعلها جميعا ذات مستوى واحد. حتى أفلاطون، الذي جاء فيما بعد، لم يرد لدولته المثالية أي شيءآخر. إذن لقد تطورت الثقافة رغما عن دولة المدينة، وإن كانت تمنحها، رغم أنفها، مساعدة غير مباشرة، ذلك أن طموح الفرد كان يجد نفسه فيها محفزا إلى أقصى درجة، بحيث أنه بمجرد ما كان يدلف إلى سبيل إكمال الثقافة الذهنية فإنه كان يجتهد هناك أيضا إلى آخر حد. لاينبغي أن نحتج ثمة ضد تقريض بريكليس : إن تخيل رابط ضروري مزعوم بين دولة المدينة وبين الثقافة الهلينية ليس سوى حُلْمٍ طَمُوحٍ كبير. وقبل أن يغشا الليل (الطاعون والقطيعة مع التراث) أثينا يظهر ثوسيديد كل بريقها، مرة أخرى، كشفق مُجَمَّلٍ غايته أن ينسينا اليوم الردىء الذي سبقه.

475. الإنسان الأوربي وتدمير الأمم.

التجار ة و الصناعة، تبادل الرسائل والكتب، جعل الثقافة المتفوقة مشتركة بين الناس، التغيير السريع للمكان والموقع، حياة التنقل التي يعيشها الذين لايملكون أرضا، - هذه الظروف كلها تستتبع ضعفا قاتلا في الأمم ينتهي بتدميرها، على الأقل بتدمير الأمم الأوربية : بحيث أنها حتما ستلد، إثر عمليات تهجين مستمرة، جنسا خلاسيا، جنس الإنسان الأوربي. إن انغلاق الأمم على نفسها، المتولد عن الأحقاد القومية، يعمل، إن

بتبصر أم بعدمه، ضد هذا الهدف، لكن هذا التهجين يتبع نموه البطيء، مع ذلك، رغم التيارات المعارضة له في هذه الأونة. إن لهذه النزعة القومية المصطنعة، فضلاان ذلك، خطورة مثل الخطورة التي كانت للكاثوليكية المصطنعة،لأنها في جوهرها حالة حصار واستعجال قاسية، تعلنها أقلية وتعاني منها الأغلبية، وهي في حاجة إلى الحيلة والكذب والعنف لتحتفظ بمصداقيتها. ليست مصلحة الغالبية (مصلحة الشعوب)، مثلما يحب الناس أن يقولوا، هي ما يدفع إلى هذه النزعة القومية، بل ما يدفع إليها، قبل كل شيء، هي مصلحة بعض السلالات الأميرية، ثم مصلحة بعض طبقات التجار وبعض طبقات المجتمع. بمجرد ما يعترف المرء بهذا فإنه لايتبقى عليه سوى أن يعلن نفسه مواطنا أوربيا صالحا ويعمل بتصرفاته على اندماج الأمم : عمل يمكن أن يساعد عليه الألمان بخاصيتهم القديمة المجربة التي هي كونهم لسان حال الشعوب ووسطاؤها. ولنقل دون إلحاح : إن مشكلة اليهود لاتوجد إجمالا إلا في حدود الدول القومية لأنه هناك يجب على طاقتهم وذكائهم المتفوقين، ذلك الرأسمال من العقل ومن الإرادة الذي تراكم لمدة طويلة، جيلا بعد جيل، في مدرسة الشقاء، أن يبلغا درجة من السيطرة تثير الغيرة والبغض، بحيث أنه ينتشر لدى كل الأمم الحالية تقريبا - وهذا بقدر ما تتبنى هي بدورها موقفا أكثر قومية - ينتشر ذلك الأدب المقيت الذي ينوي أن يسوق اليهود إلى المذبحة كأكباش فداء مسؤولة عن كل ما قد يسوء في الأمور العامة والداخلية. ابتداء من اللحظة التي لايعود فيها الأمر يتعلق بالحفاظ على الأمم،ولكن بتوليد جنس أوربي هجين وأقوى ما يمكن، فإن اليهودي يصير عنصرا قابلا للإستعمال ومرغوبا مثل أي أثر من الآثار الوطنية الأخرى. لكل أمة ولكل إنسان ملامح منفرة،بل شريرة، وإنه لمن الظلم أن نتطلب من اليهودي أن يكون استثناء. بل يمكن أن تكون هذه الملامح لديه شريرة ومنفرة بوجه خاص، وقد يكون المُبُوَرْص (boursicotier) اليهودي الشاب، إجمالا، أشد من يثير الإشمئزاز من بين النوع الإنساني كله. ومع ذلك أود أن أعرف، عند تفسير عام، إلى أي حد يجب علينا أن ندفع بالتسامح مع شعب كان له، من بين كل الشعوب، التاريخ الأكثر شقاء، ونحن كلنا مسؤولون عن ذلك، هذا الشعب الذي ندين له بأنبل إنسان (المسيح)، بأطهر حكيم (سبينوزا)، بأجل كتاب وبالقانون الأخلاقي الأكثر تأثيرا في العالم كله. وفضلا عن ذلك فقد كان اليهود، خلال أحلك أوقات العصر الوسيط، في الوقت الذي بسطت فيه الغيوم الأسيوية كثافتها الرصاصية على أوربا، كانوا هم من استمر، بما فيهم من مفكرين أحرار وعلماء وأطباء، رغم العنف الفظيع الذي مورس عليهم، في رفع راية الأنوار واستقلال العقل، كانوا هم من دافع عن أوربا ضد آسيا. إننا ندين لمجهوداتهم بالنصر الذي حققه، في نهاية المطاف،

التفسير الطبيعي للعالم، التفسير المطابق للعقل والمتحرر من الأساطير على كل حال : بفضل اليهود لم تحدث قطيعة في حلقة الثقافة التي تربطنا الآن بمعارف أنوار القدَم الإغريقي الروماني .إن كانت المسيحية قد بذلت قصارى جهدها لكي تُشَرْقِنَ الغرب فإن اليهودية قد ساهمت بشكل أساسي في تغريبه مجددا ودون توقف : وهو مايعني، نوعا ما، جعل مهمة أوربا وتاريخها استمراراً لمهمة وتاريخ اليونان.

476. التفوق الظاهر للعصر الوسيط.

يظهر لنا العصر الوسيط الكنيسة كمؤسسة تسعى وراء هدف عالمي يشمل الإنسانية كلها، وراء هدف يهم، بالإضافة إلى ذلك، مصالح الكنيسة التي تزعم أنها مصالح سامية، وفي مقابل ذلك تخلف الأهداف التي يظهر التاريخ أنها أهداف الدول والأمم انطباعا بوجود ضيق شديد، مظهرها حقير، وضيع، مادي، ولها امتداد محدود. إلا أنه لاينبغي لهذا الإنطباع الذي يترك أثرا مختلفا في خيالنا أن يحدد حكمنا، لأن هذه المؤسسة العالمية كانت تستجيب لحاجيات مصطنعة، بارتكازها على أوهام كانت مرغمة على إيجادها هناك حيث لم يكن لها وجود (الحاجة إلى الخلاص). أما المؤسسات الجديدة فتعالج حالات الضيق الحقيقي، وسيأتي الوقت الذي تُولَدُ فيه مؤسسات صالحة لخدمة حاجات كل الناس الحقيقية والمشتركة، وتلقي إلى عالم الظل والنسيان بقدوتهم الوهمية، أي بالكنيسة الكاثوليكية.

477. الحرب التي لاغنى عنها.

إن انتظار الكثير من الإنسانية بدءا من اللحظة التي تكون فيها قد نسيت كيف تحارب (بل إن تعليق الأمل كله على هذه اللحظة) لهو حلم فارغ، حلم من أحلام النفوس الطوباوية الجميلة. إننا لا نعرف في اللحظة الراهنة أية وسيلة أخرى يمكنها أن تنقل إلى الشعوب المنهكة بشكل تدريجي نشاط المعسكر هذا، هذا الحقد الشديد واللاشخصي، رباطة جأش القاتل المرتاح الضمير هذه، هذه الحماسة التي توحد جماعة ما عند تدمير العدو، هذه اللامبالاة الرائعة بالخسارات الكبيرة، بحياة المرء كما بحياة أصدقائه، هذه الزعزعة الخفية، زلزال الروح هذا، أن تنقلها إليها بمثل القوة والتأكيد اللذان بهما تنقلها كل حرب كبرى : إن السيول والأنهار المندفعة آنذاك، رغم الأحجار ومختلف القاذورات التي يدحرجها سيلها، ورغم المروج والزروع الناعمة التي تدمرها بمرورها، هي التي ستدير فيما بعد، وبقوة جديدة، دواليب أوراش العقل بواسطة الظروف. لن تستطيع الحضارة بتاتا أن تستغني عن الأهواء، عن الرذائل، وعن الأعمال الوحشية. – ففي اليوم الذي بدأ فيه الرومان، الذين كانت لهم امبراطورية، يَمَلُّون شيئا

ما من حروبهم، حاولوا أن يستمدوا قوة جديدة من صيد الشُّقْر*، من مبارزات المصارعين (gladiateurs)، ومن اضطهاد المسيحيين. وأنجليز اليوم، الذين يبدون، إجمالا، وقد تخلوا عن الحرب هم كذلك، يلجأون إلى وسيلة أخرى لإعادة الحياة إلى تلك الطاقات المحتضرة : يلجأون إلى الأسفار الخطرة من أجل الإكتشاف، إلى الأسفار البحرية، إلى الإرتقاءات، التي يقولون أنها تتم لأغراض علمية، والتي يقومون بها في الواقع لكي يعودوا إلى بلدهم بفائض من القوة المستمدة من مغامرات وأخطار من كل نوع. سنتوصل كذلك إلى اكتشاف عدد من بدائل الحرب هذه، وربما بفضلها سنتنبه بصورة أفضل إلى أن إنسانية متحضرة بشكل متفوق وبالتالي تصير منهكة حتما، مثلما هي إنسانية أوربيي الوقت الحاضر، هي في حاجة ليس فقط إلى حروب، بل إلى أعظم الحروب وأشدها هولا (هي في حاجة إذن إلى ارتكاسات آنية إلى الهمجية) إن هي أرادت ألا تلفي نفسها مُحَبَطَةً بواسطة وسائل تمدن حضارتها وبوجودها نفسيهما.

478. نشاط الجنوب ونشاط الشمال.

للنشاط منبعين مختلفين. فما يجعل حرفيي الجنوب نشيطين ليست هي الرغبة في الكسب، بل هي حاجات الآخرين المتجددة. بما أن هناك دائما من يأتي لِيُبَيْطِرَ فرسا أويصلح عربة فإن الحداد يعجل بالعمل. ولو لم يحضر إليه أحد لذهب يتسكع في الساحة. قلما يكون لحاجة الحرفي للغذاء إلحاحية إذا كان في بلد خصب، لأن ذلك لن يتطلب منه سوى قسط ضئيل من العمل، إنه لايتطلب عجلة على أي حال، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يتسول وهو راض عن حاله مع ذلك. - أما نشاط العامل الانجليزي، على العكس، فيصدر عن رغبة في الكسب : إنه يغالي كثيرا في تقدير نفسه وطموحاته، ويسعى من وراء الإمتلاك إلى القوة، وفي القوة يبحث عن أكبر قدر من الحرية ومن التميز الفردي.

479. الغنى أصل النبالة.

الغنيَ يُوَلِّدُ بالضرورة أرستقراطية العرق، لأنه يسمح باختيار أجمل النساء واستئجار أفضل المربين، إنه يضفي النظافة على أصحابه، كما يوفر الوقت لتمرين الجسد وبالخصوص إمكانية الإفلات من إرهاق العمل البدني. وهو بذلك يوفر كل الظروف التي تضمن، في غضون بضعة أجيال، تميز الهيأة وجمالها، بل تميز وجمال السلوك فضلا عن ذلك : تضمن حرية زائدة، غياب الصغار المثير للشفقة والمهانة أمام الأسياد

* الحيوانات المتوحشة ذات الشعر الأشقر كالضباء والأسود والأيائل . (المنهل)

والتوفير قرشا قرشا. هذه المزايا السلبية هي بالضبط أغلى هدية تقدمها الثروة لإنسان شاب، والذي هو فقير فعلا عادة ما يقوده نبل أحاسيسه إلى الهلاك، إنه لايتقدم ولايظفر بشيء، فجنسه غير قابل للاستمرار في الحياة. - ويجب عندها أن نعتبر أن للغنى نفس الآثار تقريبا ، سواء كان للمرء ثلاث مائة أو ثلاثون ألف تالر [نقد ألماني] ينفقها سنويا : وهذا يظهر أنه ليس هناك أي تدرج حقيقي للظروف الملائمة. إنه لشيء فظيع مع ذلك أن يملك المرء شيئا قليلا، أن يتسول في طفولته ويهان : حتى وإن كان هذا منطلقا حسنا بالنسبة لأولئك الناس الذين يبحثون عن السعادة في الغلاء الفاحش وفي خضوعهم للرجال الأقوياء وذوي النفوذ، والذين [أي الناس] يريدون أن يصيروا كرادلة وأساقفة. (هناك يتعلم الناس كيف ينحنون ليتسللوا إلى أروقة الفضل الديماسية.)

480. الغيرة والكسل موجهان بطريقة مختلفة.

يعتبر الحزبان الخصمان، الحزب الإشتراكي والحزب القومي (مهما تكن الأسماء التي تكون لهما في مختلف البلدان الأوربية) جديران ببعضهما : فالغيرة والكسل هما القوتان اللتان تحركانهما كليهما. في أحد الحزبين يريد الناس أن يشتغلوا بأيديهم أقل ما يمكن، وفي الحزب الآخر يريدون أن يشتغلوا أقل ما يمكن بعقلهم. في هذا الأخير يكره الناس الأفراد البارزين الذين لايدينون بعظمتهم إلا لأنفسهم ولا يتطوعون في سبيل العمل الجماهيري، ويغارون منهم. أما في الحزب الأول فيكره الناس ويحسدون الطبقة الأفضل في المجتمع، التي تتمتع خارجيا بموقع ممتاز، لكن مهمتها التي هي إنتاج أرفع ثروات الحضارة تجعل حياتها شاقة ومؤلمة داخليا. من المؤكد أنه إذا تم جعل عقل الطبقات العليا من المجتمع يقبل الإسهام في العمل الجماهيري فسيكون للزُّمَرِ الإشتراكية الحق الكامل في السعي إلى المساواة الخاجية بينها وبين الزُّمَرِ الأخرى، ما دامت المساواة الداخلية متحققة بينها، قلبا وعقلا. - فلتحيوا رجالا متفوقين ولا تملوا من الإسهام في أعمال الثقافة المتفوقة - وحينها سيعترف بحقوقكم كل ماهو حي، ونظام المجتمع الذي أنتم قمته سيكون منيعا ضد العين اللامة وضد كل أذية !

481. السياسة الكبرى وسلبياتها.

مثلما لايتكبد شعبٌ ما أفدح الخسائر المرتبطة بالحرب وبالإستعداد لها، من جراء تكاليف الحرب الباهظة، من تعطل التجارة والمواصلات، وكذلك من جراء الاحتفاظ بالجيوش النظامية - مهما تكن هذه النفقات باهظة في أيامنا هذه التي تخسر فيها ثمانية

دول أوربية مبلغ مليارين أو ثلاثة سنويا - ، بل من جراء انتزاع أكفأ الرجال وأقواهم وأكثرهم نشاطا، على شكل سوقات عسكرية * غريبة، من أعمالهم ووظائفهم ليصبحوا جنودا، وإن كانت السنين تتعاوض : كذلك فإن الشعب الذي يتهيأ لينهج سياسة كبرى ويضمن لنفسه صوتا راجحا بين الدول العظمى ينجو من الأضرار الخطيرة فلا تصيبه. صحيح أنه لا يفتأ منذ تلك اللحظة يضحي بمجموعة من المواهب المتفوقة على «مذبح الوطن» أو مذبح الطموح القومي، بينما كانت فيما مضى حقول أخرى تفتح أمام هذه المواهب التي صارت السياسة تلتهمها الآن. وبجانب هذه المذابح التي تقوم بها الدولة يجري عرضٌ أفظع منها، يتم تمثيل فصوله الكثيرة جدا بلا انقطاع : كل فرد كفء، نشيط، ذكي، وكدود، من أفراد هذه الشعوب التي تحب الإنتصارات السياسية حد الشراهة، تتملكه الشراهة نفسها ولا يعود ارتباطه بعمله كليا مثلما كان فيما مضى. إن القضايا والإنشغالات ذات النفع العام التي يتم تجديدها كل يوم تلتهم ضريبة يومية يتم اسخلاصها من رأسمال عقل وقلب كل مواطن. إن قدر كل هذه التضحيات، كل هذه الخسارات في الطاقة والعمل الفرديين كبير جدا بحيث أن الإزدهار السياسي لشعب ما يستتبع بشكل شبه حتمي فقرا واستنزافا في الذكاء، وتقلصا في القوة الإبداعية المتعلقة بأعمال تتطلب كثيرا من التركيز ومن الإنتباه القاصر عليها فقط. وفي الأخير يمكننا أن نتساءل : هل يستحق هذا العناءَ ذلك الإزهارُ الشامل (الذي لا يتمظهر، والحق يقال، إلا في الخوف الذي يثيره الجبار الجديد لدى الدول الأخرى وفي الشرط المنتزع من الدول الأجنبية بغية ازدهار التجارة والمبادلات القومية) إن كان لابد من التضحية، في سبيل الزهرة الفظة والمبرقشة، زهرة الأمة، بكل النباتات وبكل البراعم النبيلة، الرقيقة، الروحانية، التي كان مزدرعها خصبا جدا حتى ذلك الحين ؟

482. ولنقلها مرة أخرى.

الآراء السائدة - خمول فردي.

* مجموع الفتيان المدعوين في يوم واحد لخدمة العلم

الكتاب التاسع

الإنسان وحيدا مع نفسه

483 . أعـــداء الحقيـقـــة

اليقين أخطر من الكذب في عداوته للحقيقة.

484 . العالم مقلوبا.

بحدة ننتقد مفكرا حين يقدم اقتراحا يثير اشمئزازنا، وسيكون معقولا أكثر أن ننتقده بحدة حين يرضينا اقتراحه.

485. الحـــزم.

. غالبا ما يبدو المرء حازما بسبب تمشيه حسب مزاجه أكثر منه بتمشيه حسب مبادئه.

485. الشيء الواحد الضروري.

هناك شيء واحد لابد من امتلاكه : إما عقل خفيف بطبعه، وإما عقل صيرته المعرفة والفن خفيفا.

487. شغف القضايا.

من يجعل من بعض القضايا (كالعلوم، خدمة الدولة،المصالح الثقافية، الفنون) موضوع شغفه يجرد شغفه بالأشخاص من كثير من الإلتهاب (حتى وإن كانوا ممثلي هذه القضايا، مثل رجال الدولة، أما الفلاسفة والفنانون فيمثلون إبداعاتهم).

488 . الهدوء في الحركة.

مثلما الشلال يصير بطيئا وخفيفا في انحداره، كذلك الرجل النشيط جدا يكاد يتصرف دائما بهدوء **أكثر** من الذي يوحي به اندفاع رغبته قبل الفعل.

489. لاتنزلوا عميقا جدا.

الأشخاص الذين يدركون عمق قضية ما نادرا مايظلون أوفياء لها. ذلك لأنهم أخرجوا العمق للنور : وفي ذلك من القبح شيء كثيرٌ يُرى.

490. وهم المثاليين.

كل المثاليين يتصورون أن القضايا التي يكرسون لها أنفسهم هي أفضل بشكل جوهري من كل قضايا الناس الأخرى، ويرفضون الاعتقاد بأن قضيتهم تحتاج، لكي تحقق نجاحا ضئيلا جدا، إلى نفس الزِّبْل الَّنِتن الضروري لكل المشاريع الإنسانية الأخرى.

491. استبطان*.

المرء محصن ضد نفسه بشكل جيد، ضد عملياته لاستعراف نفسه، وقلما يكون بإمكانه، على العموم، أن يدرك من ذاته شيئا غير جدرانها الخارجية. أما الحصن نفسهفيظل منيعا، بل غير مرئي له، اللهم إلا إذا لعب الأصدقاء والأعداء دور الخونة وأدخلوه عبر مسالك سرية.

492. المهنة المناسبة.

نادرا ما يتحمل الناس مهنة لايؤمنون بها أو لايقتنعون أنها، في الواقع، أهم من كل المهن الأخرى. ينطبق ذلك حتى على النساء بخصوص عشاقهن.

493 . نبل الأحاسيس.

يشكل السخاء وانعدام الحذر جزء لايستهان به من نبل الأحاسيس، إنه يتشكل بالضبط مما ينظر إليه المنتفعون ومحبو النجاح، مِنْ عَلٍ، بازدراء كبير.

494. الغاية والوسيلة.

يعاند الكثيرون بخصوص السبيل التي اتبعوها، لكن من يعاند بخصوص الغاية قليل جدا.

* introspection : عملية تشاهد بها الذات ما يجري في الذهن من شعوريات لوصفها لا لتأويلها . (المنهل)

495 . ما يغضب في أسلوب حياة شخصي

كل مناهج الحياة الشخصية جدا تثير الناس ضد الذي يتبناها، فالنظام الاستثنائي الذي يتبعه يجعلهم يشعرون بالمهانه بماهم كائنات عامية.

496. امتياز العظمة.

يكمن امتياز العظمة في إسعاد الغير بعطاء قليل.

497. نبيل بالرغم عنه.

يتصرف المرء بنبل بالرغم عنه حين يكون قد اعتاد إعطاء الآخرين دائما دون أن يتطلب منهم شيئا.

498. شرط البطولة.

حين يريد المرء أن يصير بطلا فلابد أولا أن يتحول الحنش إلى تنين، وإلا فسينقصه العدو الذي يريده.

499. الصديق.

إن ما يجعل من الصديق صديقا هو كونه يُمْتِعُ لاكونه يُشْفِقُ.

500. استعمال المد والجزر.

يجب علينا، إن نحن رمنا المعرفة، أن نعرف كيف نستعمل، بالتناوب، ذلك التيار الداخلي الذي يجرنا إلى شيء، ثم ذلك التيار الآخر الذي يبعدنا عنه بعد وقت معين.

501. الإستمتاع بالذات.

«الاستمتاع بشيء ما »، يقول الناس. ولكننا، في الحقيقة، نستمتع بذاتنا من خلال استمتاعنا بالشيء.

502. المتواضع.

المتواضع للناس يجيد إظهار تباهيه، من خلال تواضعه، حين يتعلق الأمر بقضايا مثل (المدينة، الدولة، المجتمع، العصر، الإنسانية). ذاك هو ثأره.

503. الغيرة الحسد.

الغيرة والحسد هما العضوان المُخْجِلان في الروح الإنسانية. وقد لاتتوقف المقارنة عند هذا الحد ولاشك.

504. المنافق المتميز جدا.

ألا يتحدث المرء عن نفسه قط فذاك نفاقٌ جدُّ متميز.

505 . مزاج.

المزاج مرض يصيب الجسم ولايختفي أبدا بعد برهة من اختفاء سببه.

506. المبشرون بالحقيقة.

ليس حين يكون قولها خطرا تجد الحقيقة أقل عدد من المبشرين بها، بل حين يكون قولها مملا.

507. أشد إزعاجا من الأعداء.

الأشخاص الذين لانتأكد من أنهم سيتخذون موقفا متعاطفا معنا في كل الأحوال، في الوقت الذي يجبرنا فيه سبب ما (كالاعتراف بالجميل مثلا) على إظهار تعاطف غير مشروط معهم، يعذبون خيالنا أشد مما يعذبه أعداؤنا.

508. وسط الطبيعة.

إن ما يجعلنا نحب كثيرا أن نكون وسط الطبيعة هو كون الطبيعة ليس لها رأي فينا.

509. لكل واحد ميدان تفوقه.

في عالمنا المتحضر يشعر كل واحد بالتفوق على كل الآخرين في شيء واحد على الأقل : على هذا يرتكز الإرعاء العام، على اعتبار أن كل فرد شخص يمكنه أن يؤدي، في الوقت المناسب، خدمة لغيره، وبالتالي لن يخجل من قبول خدمة تؤدى له.

510. تعـــازي.

غالبا ما يكون المرء في حاجة إلى التعازي إثر حدوث وفاة، ولايكون ذلك بقصد التخفيف من شدة الحزن بقدر ما يكون بقصد تبرير شعوره بكون ألمه قد خف بسهولة بالغة.

511. أوفياء ليقينياتهم.

الذي لديه أشياء كثيرة يقوم بها يحتفظ، دون تغيير تقريبا، بأفكار وآرائه العامة. كذلك الذي يخدم مثلا أعلى : لا يُخضع ذلك المثل أبدا لامتحان يقوم به هو بنفسه،

ليس لديه الوقت لذلك، بل إن اعتقاده أن ذلك المثل قابل للنقاش هو شيء مناقض لمصلحته.

512. الأخلاقية والكمية.

لاترتكز الأخلاقية المتفوقة لدى فرد ما مقارنةً مع فرد آخر إلا على الكمية الكبيرة من الأهداف التي يروم تحقيقها. أما الآخر فيجذبه إلى الأسفل اهتمامه بالتوافه في دائرة ضيقة.

513. الحياة، ثمر الحياة.

مَهْمَا يَتَمَطَّ المرء بامتداد معرفته، مَهْمَا يَظْهر لنفسه موضوعيا بالقدر الذي يريد: فإن الثمرة الوحيدة التي يجنيها من ذلك لاتكون في النهاية سوى سيرة حياته.

514. لزومية البرنز.

في غضون التاريخ يدرك الناس أن هذه اللزومية ليست من البرنز وليست لزومية.

515. عن تجربة.

ليست عبثية شيءٍ ما حجةً ضد وجوده، بل هي بالأحرى شرط وجوده.

516. الحقيقة.

لاأحد يموت اليوم بسبب الحقائق القاتلة : إذ هناك كم هائل من الترياق.

517. رؤية أساسية.

ليس هناك انسجام مسبق بين تقدم الحقيقة وبين خير الإنسانية.

518. قدر الإنسانية .

الذي يفكر بعمق كبير يفهم أنه سيكون دائما على خطأ، فليتصرف وليصدر حكمه كما يشاء.

519. الحقيقة كساحرة*.

من الحيوانات أوجد الخطأُ الإنسانَ، فهل تكون الحقيقة في طور رد الإنسان حيوانا؟

* الساحرة المعني هي circé التي مسخت رفاق عوليس خنازير (المترجم)

520. خطر حضارتنا.

نحن في عصر حضارته مهددة بالتدمير من طرف وسائلها هي نفسها.

521. العظمة أن تفرض اتجاها.

لايوجد نهر يكون غزير المياه وكبيرا بنفسه : الروافد التي تصب فيه هي التي تجعله كبيرا. ينسحب هذا على كل عقل. مايهم بشكل خاص هو أن يعين الفرد الإتجاه الذي سيكون على الكثير من الروافد اتباعه، وليس أن يكون ذا موهبة غنية أو فقيرة في البداية.

522. ضمير قليل التطلب.

بعض الناس، الذين يتحدثون عن أهميتهم بالنسبة للإنسانية، لهم ضمير قليل التطلب بشأن الاستقامة المجردة، بشأن احترام المعاهدات، وبشأن الوعد المقطوع.

523. إرادتك أن تكون محبوبا.

ليس هناك زَهْوٌ أشد من تَطَلُّبِ المرء من الغير أن يحبه.

524. ازدراء الناس.

الدليل الواضح على ازدراء شخص ما لغيره من الناس هو عدم قبوله بوجود الغير إلا كوسيلة لخدمة غاياته هو، وإلا فلن يَقْبَلَ به بتاتا.

525. مشايعون بالتناقض.

إن شخصا نجح في إثارة الناس ضده سينجح دائما كذلك في كسب حزب إلى جانبه.

526. نسيان التجارب.

الذي يفكر كثيرا، ويفكر بموضوعية، ينسى تجارب حياته بسهولة، لكن نسيانه للأفكار التي جاءته منها يتم بسهولة أقل.

527. التشبث بالرأي.

هذا يتشبث برأيه لأنه يفتخر بكونه توصل إليه وحده، وذلك لأنه وجد صعوبة في استيعابه وهو الآن فخور لكونه فهمه : كلاهما إذن يتشبث برأيه بدافع الغرور.

528. النور الذي يُجَفِّلُ.

يخشى العمل الصالح النور بنفس القلق الذي يخشاه به العمل السيء : هذا خوفا من أن يأتي الألم (أي العقاب) من الكشف، وذاك خوفا من أن يلغي الكشف اللذة (ذلك الإستمتاع المحض بالذات الذي يختفي بمجرد أن ينضاف إليه رضا الغرور).

529. طول الأيام.

حين يكثر ماسنزاوله خلال اليوم نرى اليوم يتصرم سريعا.

530. عبقرية مستبدة.

حين تستيقظ في الروح رغبة جموحة في التسلط كمستبد، ولا تكف عن إذكاء ذلك، فإنه حتى الموهبة الضعيفة (لدى السياسين والفنانين) تتحول تدريجيا إلى قوة طبيعية تكاد تستعصي على المقاومة.

531. حياة العدو.

الذي يحيا بمصارعة العدو تكمن مصلحته كلها في بقاء ذلك العدو على قيد الحياة.

532. درجة الأهمية.

يحْظى الشيء الغامض وغير المفَسرَّ بأهمية أكبر من التي يحظى بها الشيء الواضح المفسر.

533. تقييم الخدمات المُسْداة.

نقدر الخدمات التي يسديها لنا شخص آخر حسب الأهمية التي يعلقها عليها وليس حسب أهميتها بالنسبة لنا.

534. التعاسة.

التميز المرتبط بالسعادة كبير جدا (وكأن الإحساس بالسعادة علامة السطحية أو الخضوع أو التفاهة) بحيث أنه لو قيل لك : «كم أنت سعيد !» فإنك ستحتج بكل تأكيد.

535. خيال الغم.

خيال الغم عفريت شرير، قرد، يختار ليقفز على ظهر الإنسان تلك اللحظة التي يكون فيها عبءه أثقل ما يكون.

536. مزية الخصوم الحمقى.

يحدث أن لايظل المرء وفيا لقضية ما إلا لكون خصومه يُصرون على بقائهم حمقى.

537. قيمة المهنة.

تترك المهنة الرأس خاليا، ثمة نعمتها الكبرى. فهي متراس يمكنك أن تحتمي به شرعا حين تهاجمك شكوك الجنس البشري وهمومه.

538. الموهبة.

تبدو موهبة أشخاص كثيرين أقل مما هي في الواقع لأنها دائما تحدد لنفسها مهام كبرى.

539. الشباب.

الشباب مستكره، إذ يستحيل، أو لا يعقل، أن يكون الشاب منتجا بأي معنى من المعاني.

540. مهام زائدة.

يصير منافقا حتما ذاك الذي يحدد لنفسه مهام كبيرة، علانية، ثم يتنبه إلى كونه أضعف من أن يقوم بها، كما أنه لايملك عادة من القوة ما يكفي ليتملص من القيام بها علانية.

541. داخل التيار.

الأنهار القوية تسحب معها كثيرا من الحصى والعُلّيْق، والعقول القوية تسحب معها كثيرا من الرؤوس البلهاء والحائرة.

542. خطر التحرر الفكري.

إذا اهتم إنسان ما جديا بتحرره الفكري فإن أهواءه وشهواته ترجوا خفية أن تجد في ذلك منفعتها.

543. تجسُّد الذكاء.

حين نفكر كثيرا وبذكاء ترتسم سيماء الذكاء على الجسم كله وليس على الوجه فقط.

544. ضعف النظر والسمع.

الذي لايمعن النظر يرى دائما شيئا قليلا جدا، والذي لايسمع جيدا يسمع دائما شيئا زائدا.

545. التلذذ بالنفس في الغرور.

لايبحث المغرور عن التميز بقدر ما يبحث عن الشعور بالتميز، لذلك تجده لايستخف بأية وسيلة يخدع بها نفسه ويتغاش. ليس رأي الآخرين فيه هو ما يهمه بل الرأي الذي يكونه عن نفسه من خلال رأيهم.

546. المغرور استثناءً.

الذي يكفي نفسه بنفسه عادة ما يكون مغرورا استثناءً، وحين يصيبه مرض في جسمه فإنه يتأثر بالسمعة الحسنة وبالمدائح. ذلك أنه يلزمه، بقدر ما يضمحل، أن يتعوض من الخارج، من رأيٍ شخصيٍ غريب.

547. ال«مفكرون».

ليس له عقل ذاك الذي يبحث عن العقل.

548 . إعلان لرؤساء الأحزاب

إذا استطعنا أن نجعل الناس يعلنون أمام الملأ دعمهم لقضية ما فإننا سنكون، في أغلب الوقت، قد جعلناهم يدعمونها في أعماقهم كذلك. إنهم يريدون أن يظهروا منطقيين منذ ذلك الحين.

549. الإزدراء.

ازدراء الآخرين للمرء يؤثر فيه أكثر مما يؤثر فيه ازدراؤه لنفسه.

550. حبل الامتنان.

هناك أرواح ذليلة تدفع بامتنانها لمن عاملها بخير بعيدا جدا بحيث تشنق نفسها بحبل الإمتنان.

551. حيلة نبي.

لكي نَحْزُرَ مسبقا طريقة تصرف الناس العاديين يجب علينا أن نفترض أنهم سيبذلون دائما أدنى مجهود ذهني ليخرجوا من وضعية مزعجة.

552. حق الإنسان الوحيد.

الذي يحيد عن التراث (tradition) يكون عرضة للإستثناء، والذي يلتزم به يصير عبداً له. والمرء،في كلتا الحالتين، يمضي إلى هلاكه.

553. فوق الحيوان.

حين يضحك الإنسان بأعلى صوته يفوق كل الحيوانات بذاءة.

554. نصف المعرفة.

الذي يتكلم لغة أجنبية دون أن يتقنها يستمتع بها أكثر من الذي يتكلمها بطلاقة. اللذة من نصيب نصف العالِم .

555. خدومية خطرة.

هناك أناس يريدون أن يجعلوا حياة الآخرين شاقة فقط لكي يمنحوهم، فيما بعد، وصفتهم للتخفيف من آلام الحياة، كالمسيحية مثلا.

556. الحماس والوعي.

يكون الحماس والوعي خصمان غير ما مرة، ذلك أن الحماس يريد أن يجني ثمار الشجرة قبل نضوجها، بينما الوعي يدعها على الشجرة طويلا إلى أن تسقط وتنسحق.

557. الشك.

نسعى إلى إثارة الشكوك حول الذين لانطيقهم.

558. غياب الفرص.

كثير من الناس من ينتظر طيلة حياته فرصة ليكون طيبا على طريقته.

559. نقص الأصدقاء.

نقص الأصدقاء مرجعه الغيرة أو التباهي. وما أكثر من يدين بأصدقائه للظرف السعيد الذي لم يجعل لغيرته سببا.

560. خطر التعددية.

غالبا ما نرتاح في جلوسنا حين تنقصنا موهبة أكثر مما نرتاح فيه حين تكون لدينا موهبة زائدة : مثل الطاولة التي يكون وقوفها على ثلاثة أرجل أفضل منه على أربعة.

561. القدوة الحسنة.

على الذي يريد أن يكون قدوة حسنة أن يضيف حبة من الجنون إلى فضيلته : ذلك ما يقلده الناس وَيَسْمُونَ به، في ذات الوقت، على النموذج، - وهو شيء يعجب الناس.

562. الصِّدار الواقي.

اغتياب الغير لنا لايستهدفنا نحن في الغالب، إنه تعبير عن غيظ وعن مزاج عكر لهما أسباب مغايرة تماما.

563. استسلام سهل.

تكون معاناة الناس من خيبة آمالهم قليلة حين يكونون قد دربوا خيالهم على تقبيح الماضي.

564. في خطر.

حين نتلافى الاصطدام بسيارة ما نكون قد عرضنا أنفسنا لخطر أن نداس، وهو خطر كبير.

565. الدور حسب الصوت.

الذي يجد نفسه مرغما على التكلم بصوت أعلى مما اعتاده (إلى شخص به صمم مثلا، أو أمام حشد كبير) يبالغ عادة في الذي عليه أن يقوله. وكم من شخص صار متآمرا، قارص اللسان، دساسا، فقط لكون صوته يميل إلى الهمس.

566. حب وحقد.

ليس الحب والحقد عمياوان، بل تعميهما النار التي يحملانها معهما في كل مكان.

567. إمتياز أن تُهَاجَمَ.

يسعى العاجزون عن تجلية مزاياهم لأنظار الناس إلى إثارة عدواة الآخرين الشديدة لهم. حينها يُعَزُّونَ أنفسهم بالاعتقاد أن هذه العداوة تحول بين استحقاقاتهم وبين تقدير الآخرين لهم بشكل منصف... وأن كثيراً من الآخرين يعتقدون نفس الشيء : وهو في صالح اعتبارهم.

568. الاعتراف.

ينسى المرء خطأ ه حين يعترف به لشخص ما، لكن هذا الآخر لا ينساه عادة.

569. الكفاية.

فراء الكفاية الذهبي يحمي من اللطمات العنيفة، ولكنه لايحمي من المعاكسات.

570. الظل في الشعلة.

لاتكون الشعلة واضحة بالنسبة لنفسها كما تكون بالنسبة للآخرين الذين تنيرهم : كذلك الرجل الحكيم.

571. الأراء الشخصية.

إن الرأي الذي نبديه، حين نسأل فجأة بصدد شيء ما، لايكون رأينا عادة، بل فقط ذلك الرأي السائد، المتعلق بطبقتنا، بوضعيتنا، بولادتنا. الأراء الشخصية نادرا ما تطفو على السطح.

572. أصل الشجاعة.

الإنسان العادي شجاع وعصي على الانجراح، إنه كالبطل، لايبالي بالخطر حين لايراه. وبالعكس : لاتكون الأماكن الجروحة سوى في ظهر البطل، إذن هناك حيث لاعيون له.

573. خطر الطبيب.

يجب أن نكون قد خُلِقْنَا لطبيبنا، وإلا فبطبيبنا نهلك.

574. معجزة الغرور.

من جازف، بما فيه الكفاية، في التنبؤ بالطقس ثلاث مرات وأصاب فإنه يؤمن، في قرارة نفسه، بمواهبه في التنبؤ. إننا نقبل بالمعجزة وباللامعقول حين يطري ذلك كبرياءنا.

575. المهنة.

المهنة هي العمود الفقري للحياة.

576. خطر التأثير الشخصي.

على الذي يشعر أن له تأثيرا أخلاقيا كبيرا على شخص آخر أن يطلق له الحبل على الغارب، بل عليه، عند الإقتضاء، أن يراه يشمئز وأن يدفعه إلى ذلك هو بنفسه : وإلا فإنه حتما سيجعل منه عدواً له.

577. القبول بالوريث.

الذي ينشيء مؤسسة كبيرة بقصد نزيه يسهر على تكوين ورثة. إنها علامة طبع مستبد ووضيع أن يرى المرء أعداء في كل الورثة الممكنين لمؤسسته ويحيا في وضع دفاعي ضدهم.

578. نصف المعرفة.

ينتصر نصف المعرفة بسهولة أكثر من التي بها تنتصر المعرفة الكاملة : إنه يتصور الأشياء أبسط مماهي، وبالتالي يكون عنها فكرة أخاذة ومقنعة أكثر.

579. عاجز عن النضال.

الذي يفكر كثيرا لاتتوفر فيه الكفاءات المطلوبة في المتحزب : سرعان ما يحمله فكره إلى فضاءات أخرى.

580. ذاكرة سيئة.

امتياز الذاكرة السيئة هو كون صاحبها يستمتع بنفس الأشياء للمرة الأولى مرات كثيرة .

581. إيذاء النفس.

غالبا ما يكون عناد الفكر قناعا يخفي قلقا عميقا في العقل الذي يسعى لأن يتناسى.

582. الشهيد.

يعاني مُريد الشهيد أكثر مما يعاني الشهيد.

583. غرور متأخر.

إن غرور كثير من الأشخاص، الذين لم يكونو فيما مضى في حاجة إلى غرور، هو الآن عادةٌ راشدةٌ ورثوها عن زمن لم يكن لهم فيه الحق في الثقة بأنفسهم وكانوا فقط يستجدون ثقة الآخرين

584. لسعة الهوى.

الموشك على الاستسلام للغضب أو لغرام قوي يبلغ عتبة تكون عندها الروح ممتلئة مثل برميل : إلا أنه يجب أن تنضاف إليها قطرة ماء هي الإستعداد للهوى (أو سوء النية، كما يسمونه عادة). لاتنقص إلا هي ليطفح البرميل.

585. فكرة سوداء.

مثل الناس مثل هذه الأكوم المتفحمة في الغابات. بمجرد ما ينتهون من الإحتراق ويصيروا متفحمين مثلها، يصير الشبان نافعين. مادام الدخان يتصاعد منهم، وهم يتفحمون، فقد يكونون مفيدين، ولكنهم غير نافعين ومزعجون في الغالب. تستعمل الإنسانية كل فرد، دون تحفظ، كوقود لتسخين آلتها الكبيرة : لكن ما الجدوى من هذه الآلة إن كان كل الأفراد (أي الإنسانية) يصلحون فقط لصيانتها ؟ آلة ليس لها من غاية سوى الإبقاء على نفسها، تلك هي **الكوميديا الإنسانية** ؟

586. مؤشر الحياة الصغير.

تتشكل الحياة من لحظات معزرلة نادرة، مشحونة بالمعنى إلى أقصى حد، ومن فواصل لاتحصى تلامسنا خلالها ظلال هذه اللحظات. الحب، الربيع، اللحن الجميل، الجبل، القمر، البحر - كلها لاتحدث القلب بلا تحفظ إلا مرة واحدة، هذا إذا افترضنا أنها تعرف كيف تتحدث بلا تحفظ. لأن كثيرا من الناس لايعرفون أيا من هذه اللحظات، وهم أنفسهم فواصل وسكتات في سمفونية الحياة الحفيقية.

587. هجوم أو اختراق.

غالبا مانرتكب خطأ بمهاجمتنا العنيفة لفئة ما، لحزب ما، أو لمرحلة ما، لأن الصدفة لم ترنا منهم إلا الجانب الذي تم إظهاره، إلاذبولهم أو «رذائل فضائلهم»، التي هم مصابون بها حتما، والتي ربما نكون نحن أنفسنا قد ساهمنا فيها بحظ وافر. حينئذ نوليهم ظهرنا ونبحث عن فئة مضادة، لكن من الأفضل أن نبحث عن الجوانب الإيجابية، أو أن نطور تلك التي نتوفر عليها. صحيح أنه يلزمنا نظر أكثر حدة وإرادة أفضل كي نساعد على خلق شيء ناقص أكثر مما يلزمنا لنخترقه كي ندرك نقصه ونعمل على تجازه.

588. التواضع.

هناك تواضع حقيقي (وهو الاعتراف بأننا لم نخلُق أنفسنا)، وهو الذي يناسب المفكر تماما، لأنه قادر على إدراك فكرة اللامسؤولية التامة (حتى عن الخير الذي يصنعه). عدم تواضع الرجل العظيم يثير الحقد، ليس بسبب الإحساس بالقوة الذي يعبر عنه بذلك، بل لكونه لايريد أن يظهر هذه القوة إلا بجرحه للآخرين، معاملا إياهم كمستبد ليرى إلى أي مدى قد يصل صبرهم. إنه يكشف هنا عن نقص الثقة في إحساسه بقوته، الشيء الذي يجعل الناس يشكون في عظمته. بهذا المعنى فإن عدم التواضع، منظورا إليه من زاوية النباهة، غير منصوح به البتة.

589. أول أفكار اليوم.

أفضل وسيلة لبداية كل يوم جديد هي أن نتساءل عند الإستيقاظ إن لم يكن في مقدورنا أن نرضي شخصا واحدا على الأقل في ذلك اليوم. لو أتيح لهذه الفكرة أن تحل محل العادة الدينية التي هي الصلاة لوجد أمثالنا فائدة في هذا التغيير.

590. التباهي، ذلك العزاء الإخير.

حين يحاول المرء أن يرى في إخفاقه، في عدم كفايته الفكرية، وفي مرضه، مصيرا كان مهيأ له، امتحانا شخصيا أو عقابا غامضا عن أخطاء قديمة، فإنه يجعل من نفسه، في نفس الوقت، شخصا مهما، يسمو في خياله على أمثاله. المذنب المتكبر شخص لاتخلو منه أية طائفة دينية.

591. نبات السعادة.

بجانب التعاسة، وعلى أرضها البركانية في الغالب، غرس الإنسان بستان سعادته. وسواء نظر إلى الحياة بنظرة من لايطلب من الوجود إلا المعرفة، أو بنظرة من يستسلم، أو بنظرة الذي يجد لذته في تغلبه على صعوبة ما، فإنه سيجد، في كل مكان، شيئا من السعادة متفتحا بجانب التعاسة،- بل كثيرا من السعادة، لكون التربة بركانية. ولكن سيكون مثيرا للسخرية الإدعاء بأن هذه السعادة تبرر الألم أيضا.

592. طريق الأسلاف.

يبدو لشخص ما شيئا معقولا أن يطور لحسابه الخاص تلك الموهبة التي كرس لها أبوها أو جده جهدهما، عوض أن يباشر عمل شيء جديد تماما، وإلا فإنه يتخلى عن إمكانية بلوغ الكمال في أية مهنة كانت. لهذا يقول المثل :«أي طريق عليك أن تسلك ؟ طريق أسلافك.»

593. الغرور والطموح المربيان.

مادام الفرد لم يصبح أداة المصلحة العامة للإنسانية فإن الطموح سيعذبه لا محالة،لكن بمجرد أن يتحقق ذلك الهدف، إن اشتغل بضرورة كضرورة الآلة لخير الكل، فإن الغرور الذي سينمو لديه سيؤنسنه في كل شيء، سيجعله اجتماعيا أكثر، مطاقا أكثر، متسامحا أكثر، وهذا بمجرد ما ينتهي الطموح من تهذيبه (من جعله نافعا).

594. فلاسفة أغرار.

في اللحظة ذاتها التي يبتلع فيها أحدهم حكمة أحد الفلاسفة يذهب ليجوب الأزقة وهو يشعر أنه قد حدث فيه تغيير، ويعتبر نفسه، منذ تلك اللحظة، شخصا عظيما، لأنه يجد الناس، في كل مكان، يجهلون تلك الحكمة، إلى درجة أنه يجد حكما جديدا وخارقا يصدره بخصوص كل الأشياء : فقبوله لقانون ما جعله يعتقد أنه من واجبه، منذ ذلك الحين، تنصيب نفسه قاضيا.

595. الإرضاء بالإغاظة.

الذين يريدون أن يصدموا الآخرين يرغبون، حتى وإن أغاظوهم، في نفس الشيء الذي يرغب فيه أولئك الذين يريدون أن يرضوهم دون أن يصدموهم، لكن بدرجة أعلى وبشكل غير مباشر، مرورا بمرحلة تبعدهم، في الظاهر، عن هدفهم. إنهم يريدون التأثير والقوة، لذلك يظهرون تفوقهم حتى وإن أزعج الآخرين، لأن الذي يصل إلى القوة في الأخير، وهم يعرفون ذلك، يكاد يعجب الآخرين في كل ما يفعله ويقوله، وحتى حين يغيظهم فإنه يبدو أنه يرضيهم رغم كل شيء. - المفكر الحر، وكذلك المؤمن ،يريدان القوة هما كذلك كي يجدا فيها يوما ما شيئا يرضون به الآخرين، وإن تهددهما، بسبب عقيدتهما، مصير سيء، كالإضطهاد أو السجن أو التعذيب، فإنهما يستمتعان بفكرة أن الحديد والنار سيكونان وسيلة تنفذ بها عقيدتهما إلى الإنسانية، إنهما يقبلان بذلك المصير كوسيلة مؤلمة، لكنها حيوية، ليبلغا بها القوة، وإن كانت فعاليتها تأتي متأخرة.

596. ظروف إعلان الحرب وحالات مماثلة.

الأمير الذي يكمل قرار محاربة جاره، بعد أن اتخذه، باختلاق **ظروف إعلان الحرب**، يشبه الأب الذي يفرض على ابنه أما غير أمه ويعتبرها هي الأم الحقيقية منذ ذلك الحين. أليست كل الأسباب التي نعلنها أسبابا لأعمالنا من جنس هذه الأمهات غير الحقيقية ؟

597. الانفعال والحق.

لأحد يتحدث عن حقه بانفعال كبير مثل ذلك الذي في أعماقه شك بخصوص هذا الحق. إنه يريد، بمساعدة هذه الإنفعال، أن يهدىء عقله وشكوكه : إنها طريقته ليضمن راحة الضمير ويضمن معها النجاح لدى الآخرين.

598. المكر في التخلي.

سيحاول الذي يحتج ضد الزواج على الطريقة الكاثوليكية أن يكون عنه فكرة تناسب تصوره الدنيء والعامي جدا. والذي يرفض أن يحترمه معاصروه سيأخذ مفهوم الشرف بمعناه الخسيس، وبذلك سيسهل على نفسه الحرمان منه والصراع الذي سيخوضه ضده. فضلا عن ذلك، الذي يرفض الكثير من الأشياء المهمة سيتسامح بشأن الأشياء التافهة. قد يصح أن الذي يترفع عن رضا معاصريه عنه لا يريد مع ذلك أن يحرم نفسه من إشباع غرور تافه.

599. سن التباهي.

تكون مرحلة التباهي، لدى النابهين، بين السادسة والعشرين والثلاثين من عمرهم، إنها بداية نضجهم مع بقية كبيرة من الحموضة. وبارتكازهم على إحساسهم الحميمي يتطلبون من الناس، الذين لايرون من هذا الإحساس شيئا أو لا يكادون، الاحترام والتذلل، وبما أنهم لايظهرون أية علامة على ذلك، فإنهم ينتقمون منهم بتلك النظرة، بذلك الموقف المتباهي، بتلك النبرة الصوتية التي تدركها أذن وعين دقيقتان في نتاج هذه السن كله، سواء تعلق الأمر بالشعر، بالفلسفة، بالرسم أو بالموسيقى. ذوو التجربة الناضجون أكثر يسخرون من ذلك، وبتأثر يذكرون تلك السن المتقدمة من الحياة التي يحقدون فيها على القدر الذي شاء لهم أن **يكونوا** عظماء و**يبدوا** تافهين. لاحقا **يبدو** المرء أعظم من ذي قبل، - ولكنه يكون قد فقد إيمانه الجميل **بكونه** عظيما : إلا إذا ظل طيلة حياته مُهَرَّجَ الغرور الذي لا يُقَوَّم .

600. سند وهمي لكنه متين.

مثلما نحتاج، كي نحاذي هوة أو نعبر مجرى عميقا عند جسر، إلى درابزين، ليس لنمسك به، لأنه سينهار بنا على الفور، بل ليوحي للعين بالأمان، - فإننا كذلك، أيها الشاب، نحتاج ألى أشخاص يؤدون لنا، لاشعوريا، خدمة الدرابزين. صحيح أنهم لن ينجدونا إذا كنا في خطر وأردنا الاعتماد الفعلي عليهم، ولكنهم يمنحوننا إحساسا مُطَمْئِناً بوجود حماية قريبة (مثلما هم الآباء أو الأساتذة أو الأصدقاء عادة).

601. تعلُّم الحب.

يجب، منذ سن الشباب، أن نتعلم كيف نحب ونكون طيبين، وإن لم تتح لنا فرصة ممارسة هذه الأحاسيس فإن روحنا ستصير من جراء ذلك قاسية وغير صالحة لفهم تلك التخيلات الرقيقة التي لدى المحبين. يجب كذلك أن نتعلم البغض وننميه إن أردنا الوصول إلى أن نبغض كما ينبغي : وإلا فإن بذرته ستموت تدريجيا.

602. حُلْيَةٌ من البقايا.

الذين يمرون بعدد من التحولات الفكرية يحتفظون من حالاتهم السابقة ببعض المناظر والعادات التي تنتصب كشقة أسوار رمادية، كبقية مُطَلْسَمَة من القدم في فكرهم وسلوكهم الجديدين : الشيء الذي عادة ما يشكل جمال المشهد الطبيعي كله.

603. الحب والإحترام.

الحب يرغب، الخوف يتفادى. هذا هو سبب كوننا لايمكن أن نحظى بالحب والإحترام من لدن نفس الشخص، ليس في نفس اللحظة على أية حال. لأن الذي يبدي الإحترام يعترف بالقوة، أي يخشاها : ما يشعر به هو خشيةٌ محترمة. أما الحب فلا يعترف بأية قوة، بأي شيء يُفَرِّقُ يعارض أو يضع الأعلى والأدنى في شكل تراتبي. إنه يجهل الاحترام، بحيث أن المتلهفين للإحترام ينفرون، سواء خفية أو علانية، من أن يكونوا محبوبين.

604. حكم مسبق لصالح الفاترين.

الذين يشتغلون حماسا سرعان ما يفترون، بحيث أنه لايمكن أن نثق بهم، إجمالا، إلا قليلا. وهكذا فإن الفاترين فتورا دائما، أو الذين يعتبرون نفسهم كذلك، يستفيدون من حكم مسبق مؤيد يَعْتَقِدُهُمْ واثقين من أنفسهم وجديرين بالثقة : إن ذلك يعني الخلط بينهم وبين الذين يشتعل حماسهم ببطء ويلتهبون مدة طويلة.

605. خطر الأراء الحرة.

يخلق الإطلاع السطحي على الأراء الحرة إثارة معينة تشبه نوعا من الحكة، إذا استسلم لها المرء قليلا يشرع في حك أماكنه الحساسة بحيث ينتهي إلى أن يحدث فيها جرحاً مفتوحا ومؤلما، أي أنه تأتي اللحظة الي يشرع فيها الرأي الحر في إزعاجنا وتعذيبنا بخصوص موقفنا من الحياة، وبخصوص علاقاتنا الإنسانية.

606. الرغبة في معاناة كبيرة.

يترك فينا الأنفعال، حين ينتهي، حنينا غامضا إليه ويلقي علينا، وهو يختفي، نظرة مخادعة. لاشك أن المرء قد وجد نوعا من اللذة في أن يضرب بمقارع ذلك الإنفعال. أما الأحاسيس المعتدلة فتبدو باهتة بالمقارنة معه، ويبدو أن الناس سيفضلون دائما كدرا شديدا على لذة كدرة.

607. مزاج عكر ضد الآخرين والعالَم.

في كل مرة نَلْقَى فيها الآخرين بمزاجنا العكر، وهو شيء يتكرر كثيرا، بينما نشعر بذلك العكر موجها ضدنا نحن، إنما نحاول في الواقع أن نغطي حكمنا ونخدعه : نسعى لأن نعلل مزاجنا العكر **بعديا** بأخطاء الغير وعيوبه، وبشكل نغيب فيه نحن عن الأنظار. إن المتشددين في دينهم، الذين يحكمون على أنفسهم بلا شفقة، هم الذين تحدثوا، في ذات الوقت، بأكثر السوء الذي قيل في حق الإنسانية بشكل عام. لم يكن هناك أبدا قديس احتفظ بالخطايا لنفسه ومنح الفضائل للغير، كما لم يكن هناك أبدا، حسب تعاليم بوذا، رجل قد يخفي الجوانب الإيجابية فيه عن الناس كي لايدعهم يروا إلا الجوانب السلبية.

608. الخلط بين العلة والمعلول.

نبحث لاشعوريا عن المبادىء والمذاهب التي تناسب مزاجنا، بحيث أن هذه المبادىء والمذاهب تبدو في الأخير وكأنها قد شكلت طبعنا ومنحته اطمئنانا وحزما: بينما الذي حدث هو العكس تماما. من المفروض أن يصير فكرنا وحكمنا، بعد برهة، فيما يبدو، علة كياننا : لكن كياننا في الواقع هو علة كوننا نفكر ونحكم بهذا الشكل أوذاك. - وما الذي يقحمنا في هذه الملهاة التي تكاد تكون لاواعية ؟ الخمول، الرفاهية، وفي مقام أفضل، رغبة غرورنا في أن يجدنا الناس منطقيين على طول الخط وفريدين في كياننا وفكرنا: لأن هذا هو ما يكسبنا الإحترام وبالتالي الثقة والقوة.

609. سن الحقيقة.

يحب الشبان الشيء المهم والغريب، ولايهم إن كان حقيقيا أم مزيفا. الناضجون أكثر يحبون من الحقيقة جوانبها المهمة والغريبة. أخيرا، التامو النضج يحبون الحقيقة حتى هناك حيث لها مظهر بسيط وعار، هذا المظهر الذي يثير الضيق لدى العامة، لأنهم تنبهوا لكون الحقيقة لاتقول ما في جعبتها من رأي سام إلا بمظهر من البساطة.

610. الرجال شعراء فاشلون.

مثلما الشعراء الرديئون يبحثون في عَجُزَ البيت عن فكرة تناسب القافية، كذلك الرجال، وقد استولى عليهم القلق في النصف الثاني من حياتهم، يبحثون فيه عادة عن الأعمال والمواقف والحالات التي تطابق تلك التي مرت في حياتهم الماضية حتى تبدو كلها، ظاهريا، في تساوق، لكن حياتهم لم تعد تحت سيطرتهم، وفي كل مرة تحددها من جديد فكرةٌ قوية يعوضونها بخلافها بِنيَّة على العثور على القافية.

611. الملل واللعب.

ترغمنا الحاجة على العمل لتلبيتها، وتولِّد الحاجات المستمر يعودنا على العمل. وحين نكون قد لبينا كل الحاجات يستولي علينا الملل. فما هو الملل ؟ إنها عادة العمل ذاتها التي نحس بها الآن في شكل حاجة جديدة ومتكررة، ويصير الملل قويا بقدر ما تصير عادة العمل قوية، وربما بقدر ما تكون المعاناة التي تسببها الحاجة قوية. وللإفلات من الملل يلجأ الإنسان إما إلى العمل أكثر مما تتطلبه حاجاته العادية، وإما إلى اللعب، أي العمل الذي لايهدف إلى تلبيه أية حاجة أخرى غير حاجة العمل لأجله هو. الذي ينتهي اللعب بأن يقرفه، ولاتكون له أية حاجة جديدة تدفعه للعمل، يحدث أن تتملكه الرغبة في حالة ثالثة تكون بالنسبة للعب ما يكونه التحليق بالنسبة للرقص، مايكونه الرقص بالنسبة للمشي، حالة من الغبطة الهادئة في الحركة : هكذا يرى الفنانون والفلاسفة السعادة.

612. درس مصدره الصور القلمية.

لو تأملنا سلسلة من الصور القلمية، من نهاية الطفولة حتى سن الكهولة، فسنكتشف، مندهشين بسرور، أن الرجل يشبه الطفل أكثر مما يشبه المراهق : أنه قد حدث في الفترة الفاصلة بين هاتين المرحلتين، بموازاة مع هذه الظاهرة ولاشك، استلاب مؤقت للطبع الجوهري لكن قوة الرجل الناضج المتراكمة والمُجمَّعة استعادت سيطرتها عليه. تقابل هذه الملاحظة ملاحظة أخرى : التأثيرات القوية للأهواء والأساتذة والأحداث السياسية، التي تتجاذبنا في كل اتجاه إبان شبابنا، تبدو كلها لاحقا وقد تمت العودة بها إلى إيقاع ثابت، من المؤكد أنها تستمر حية وفاعلة فينا، لكن حساسيتنا وفكرنا الجوهريان تكون لهما الغلبة مع ذلك، وإن استعملاها كمصدر للطاقة فإنها لن تصلح كمنظم لهما، مثلما هو الحال بين العشرين والثلاثين من العمر. هكذا فإن حساسية وفكر الرجل الناضج يبدوان، هما الآخران، أكثر مطابقة لحساسيته وفكره إبان طفولته، - وهذه الحقيقة الداخلية هي التي تظهر في الواقع الخارجي الذي تحدثت عنه.

613. مراحل العمر ونبرات صوتها.

النبرة التي تكون في خطب الشبان، في مدحهم، في لومهم، وفي قصائدهم، لاتعجب المتقدمين في السن، لأنها عالية وفي ذات الوقت بهيمة ومضطربة مثل الصوت الذي، تحت قبة، يولد من الفراغ كثافة في الرنة، لأن الجزء الكبير مما يفكر فيه الشباب لاينبع من وفرة طبيعتهم، بل هو فقط رَجْعُ وصدى ما يتم التفكير فيه، ما يقال، ما يمدح أو يلام في محيطهم القريب. وبما أن رجع مشاعر (التعاطف والنفور) يتم فيهم بقوة أكثر من التي بها يتم رجع أسبابها فإنه ينتج عن ذلك، حين يتركون الكلمة لمشاعرهم، هذه النبرة ذات الرجع المضطرب التي تميز غياب الأسباب أو قلتها. نبرة سن النضج محُدَّدة، مُوجَزة ومُختَصَرة، مرتفعة في اعتدال، لكنها، ككل ماهو مُبيَّنٌ بوضوح، ذات صدى بعيد. الشيخوخة غالبا ما تضع في الصوت نوعا من الرقة، من التسامح، ومن الدماثة، إذا صح القول. وصحيح أنها، في حالات كثيرة، تجعله خشنا.

614. المتخلفون والمستبِقون.

يشعر صاحب الطبع القبيح، الذي كله حذر بالحقد كلما حقق منافسوه وأقاربه نجاحا سعيدا، ويرد على الآراء المخالفة بحدة وعنف. يبرهن صاحب هذا الطبع على انتمائه لمرحلة سابقة من الحضارة، على كونه أثارة : لأن طريقته في معاملة الناس هي تلك التي كانت تناسب تماما حالات العصر الذي كان فيه الأقوى هو من يسن القانون، إنه إنسان **متخلف**. وهناك صاحب طبع آخر، غني بالود، يكتسب أصدقاء في كل مكان، يشعر بالحب تجاه كل ما ينمو ويتحول، يعجبه أن يشاطر الآخرين كل أمجادهم ونجاحاتهم، ولايدعي كونه وحده من يعلم الحقيقة، لكنه يطفح حذرا متواضعا، - إنه إنسان يستبق وينزع بكل قواه إلى حضارة إنسانية راقية. صاحب الطبع القبيح وليد الأزمنة التي لم تكن فيها الأسس الأولية للعلاقات الإنسانية قد وضعت بعد، أما الآخر فيحيا في مستويات أعلى، أبعد مايكون عن الحيوان المتوحش الذي يهيج ويعوي بعنف، محبوسا في الكهوف، تحت أرهاص الحضارة.

615. تعزية للموسوسين.

إن وَجَدَ مفكر كبير أنه يعذب نفسه، مؤقتا، بوسواس المرض، فما عليه إلا أن يقول لنفسه، بمثابة تعزية : « هذه الطفيلية تتغذى من قوتك الشخصية الهائلة وبها تنمو، لو كانت قوتك أقل لكانت معاناتك أقل.» قد يقول رجل الدولة نفس الشيء لوتسلل الحسد والحقد، وبشكل أعم، الميل إلى **الحرب الشاملة ضد الكل**، الذي له فيه مواهب بارزة باعتباره ممثلا لأمة، لو تسللوا إلى علاقاته الشخصية وصيروا حياته صعبة.

616. غريب عن الحاضر.

هناك فائدة كبيرة في أن يجعل المرء من نفسه، بالمرة وبشكل كبير، غريبا عن زمنه، في أن يدع نفسه يُختطف من ساحله ويطفو على سطح مفاهيم العالم الماضية، من هناك سيعانق شكل الساحل كله، لأول مرة ولاشك، حين يوجه أنظاره إليه، وسيكون له، حين يقترب منه، امتياز إدراكه في كليته أفضل من الذين لم يغادروه قط.

617. استغلال العيوب الشخصية.

الرجال أمثال روسو يتقنون استخدام ضعفهم، ثغراتهم، ورذائلهم زِبْلًا لموهبتهم. فهو حين يأسف لفساد المجتمع وانحطاطه باعتبارهما عاقبة وخيمة من عواقب الحضارة إنما يرتكز في الواقع على تجربة شخصية. إن مرارة هذه التجربة هي التي تضفي تلك اللذوعية على إدانته الشاملة وتجعل السهام التي يرمي بها مسمومة. إنه يبدأ بإفراغ غيظه كفرد ويفكر في إيجاد علاج يفيد المجتمع مباشرة، ومن خلال المجتمع يفيده هو بطريقة غير مباشرة.

618. امتلاك عقل فلسفي.

لكي يواجه الناس كل حالات الحياة وأحداثها فإنهم عادة ما يجهدون أنفسهم لاكتساب حالة روحية وحيدة، ولاكتساب طرق للرؤية تكون كلها من نفس الطراز، هذا بالخصوص هو ما يسميه الناس امتلاك عقل فلسفي. قد يكون، مع ذلك، من المفيد أكثر لإغناء المعرفة ألا نتأحد (s'uniformiser) بهذا الشكل، بل أن نستمع بالأحرى إلى الصوت الخفي لمختلف حالات الحياة، لأن لها طرقها الخاصة في الرؤية. يسهم المرء بمعرفته في حياة وطبيعة كثير من الكائنات مادام لايعتبر نفسه فردا متسمرا، ثابتا، وواحدا.

619. إلى نار الإزدراء.

إنَّ تَجَرُّؤَ المرء على التعبير عن وجهات نظر تعتبر مخجلة لمن يفكر فيها لهو خطوة جديدة يخطوها نحو استقلاله، حينها يبدأ أصدقاؤه في الشعور بالخوف. لابد للشخص الموهوب أن يجتاز هو الآخر هذه النار، وبعد ذلك سيستقل بنفسه بشكل أفضل.

620. التضحية.

حين يترك للناس الاختيار يفضلون التضحية الكبيرة على الصغيرة : وذلك لأنهم يعوضون أنفسهم عن التضحية الكبيرة بإعجابهم بذاتهم، وهو شيء مستحيل مع التضحية الصغيرة.

621. حيلة الحب.

من أراد فعلا أن **يعرف** شيئا جديدا (سواء كان إنسانا أو حدثا أو كتابا) فيستحسن له أن يستقبل ذلك الجديد بكل الحب الممكن وأن يصرف نظره عن كل مايبدو منه معاديا ومنفرا ومزيفا، بل أن ينساه : مثلا كأن يدع مؤلفَ كتاب يتقدمه بمسافة كبيرة وحينذاك سيرغب حقا، وقلبه يخفق كأنه في سباق، في أن يراه يصل إلى هدفه. بهذه الطريقة سينفذ إلى قلب الجديد، إلى نقطته المُحَرِّكَة : وهذا بالضبط هو ما يسمى أن نعرف. وبمجرد ما يتم الوصول إلى ذلك يقوم الفكر بانتقاداته بعد برهة، لأن ذلك التقدير المفرط وتعليق بندول النقد لم يكونا سوى حيلة لجعل روح الشيء تكشف عن نفسها.

622. الإفراط في حُسْنِ أو سوء الظن بالعالم.

سواء أفرطنا في سوء الظن أو في حسن الظن بالأشياء فإننا نجني منهما دائما ذلك الاستمتاع بلذة مزيدة : لأن الرأي الحسن المسبق يُمَكننا عادة من أن نضع في الأشياء (في المعيش) رقة أكثر من التي فيه في الواقع. أما الرأي السيء المسبق فيسبب خيبة مستساغة : لأن المتعة التي مصدرها الأشياء نفسها تزداد بفعل متعة المفاجأة. - المزاج الذي يميل إلى السوداوية سيقوم، في كلتا الحالتين، بالتجربة المعاكسة.

623. العميقون.

الذين تكمن قوتهم في تعميق انطباعاتهم - يسمون عادة بالعميقين - يكونون هادئين وحازمين، نسبيا، في كل الحالات المفاجئة، لأن انطباعهم، في الوهلة الأولى، يكون لايزال سطحيا، ولا **يتعمق** إلا لاحقا. أما الأشياء أو الأشخاص المتوقَّعين والمنتظَرين منذ وقت طويل، حين يصلون، فيجعلون هؤلاء يضطربون غاية الاضطرابويُصَيِّرونَهُمْ شبه عاجزين عن الاحتفاظ برباطة جأشهم.

624. العلاقة مع الأنا العليا.

لكل إنسان أيام شبابه التي يعثر فيها على أناه العليا، والإنسانية الحقة تتطلب ألا يُقَدَّرَ أي شخص إلا تبعا لهذا وليس تبعا للوقت الذي يقضيه في تبعية وعبودية. يجب مثلا أن نحترم رساما ونبجله بحسب الرؤية السامية التي استطاع أن يكونها ويعبر عنها. لكن الناس لهم علاقات متعددة مع هذه الأنا العليا، وغالبا ما يكونون ممثلين هزليين لأنفسهم بقدر ما يستمرون، فيما بعد، في تقليد ماهم عليه الآن. البعض منهم، وهم مفعمون بالتواضع، يحيون في هلع من مثالهم ويودون لو يجحدونه : إنهم يخافون أناهم العليا لأن صوتها متطلب حين يحدث لها أن تتكلم. فضلا عن ذلك، إنها تملك حرية شبحية في أن تأتي أو لاتظهر، حسب هواها. كما يقال أنها عطاء من الآلهة، والحالة أن الباقي كله هو عطاء الآلهة (عطاء الصدفة) : أما هي فهي الإنسان ذاته.

625. المتوحدون.

لقد تعود بعض الناس أن يختلُوا بأنفسهم بحيث أنهم، دون أن يقارنوا أنفسهم مع الآخرين، يقتفون أثر الحوار الداخلي لحياتهم بروح هادئة وسعيدة، محاورين لأنفسهم، دون أن ينسوا الضحك. وإذا جعلناهم يقارنون أنفسهم بالآخرين فإنهم يميلون، بشكل معقد دائما، إلى بخس أنفسهم قيمتها، بحيث ينبغي إرغامهم على العودة إلى الآخرين **يتعلمون** منهم فكرة إيجابية وعادلة عن شخصهم، وسوف لن يتوانوا عن انتقاص حتى تلك الفكرة التي تعلموها والحط من شأنها. - علينا أن نُسَلم لبعض الناس بتوحدهم، وأن نحتاط من أن نكون بلداء جدا لنرثي لحالهم، مثلما يحدث عادة.

626. دون لحن.

هناك رجال ميزتهم هي الاستراحة دوماً في أنفسهم، في حالة من الإنسجام بين كل مَلَكاتهم، بحيث أنهم يَنْفُرُونَ من كل نشاطٍ يَفْتَرِضُ له هدفا. إنهم يشبهون موسيقى مؤلفة من مقامات تدريجية مرتبطة بشكل طويل، دون أن يظهر فيها أدنى مخطط لحنٍ مُبيَّنٍ بحذق. كل حركة آتية من الخارج لاتصلح إلا لإعطاء المركب توازنا جديدا في بحيرة التناغم. حين يلتقي الرجال العصريون أشخاصا لايعرفون أية **صيرورة** يستولي عليهم جزع كبير، وإن كانوا لايستطيعون القول أنهم **ليسوا** بشيء. لكن في بعض الحالات الروحية نشعر أن هذا السؤال الغريب يخطر على بالهم : ما الجدوى من اللحن في نهاية المطاف ؟ لماذا لايكفينا كون الحياة تنعكس بهدوء على بحيرة عميقة ؟ - كانت العصور الوسطى غنية بهؤلاء الأشخاص أكثر من عصرنا. أما الآن فيندر جدا أن

نجد شخصا، حتى في الصحافة، يعرف كيف يحيا في سعادة مستمرة وفي انسجام مع ذاته، قائلا مثل غوته : «الأفضل هو هذا الهدوء العميق الذي أحيا فيه وأَكْبُرُ في نظر الناس، رابحا فيه ما لايستطيع أحد أن يغصبه مني لا بالحديد ولا بالنار.»

627. الحياة والمعاش.

لو تأملنا جيدا كيف يحسن مآت الناس التصرف فيما يقع لهم، في تجاربهم اليومية التافهة، حتى إنهم ليجعلون من ذلك أرضا خصبة تؤتي ثمارها ثلاث مرات في السنة، بينما الآخرون - وكم هم ! - ، وقد قذف بهم وسط الأمواج المتلاطمة أمواج المغامرات المشوقة جدا، وسط التيارات المتعددة التي تهُيج الشعوب والعصور، يظلون مع ذلك طافين على السطح دائما خفافا كالفلين : لو تأملنا ذلك لأُغُرينا بتقسيم الإنسانية إلى أقلية من الناس الذين يعرفون كيف يخلقون من الشيء القليل شيئا كبيرا، وأغلبية من أولئك الذين يعرفون كيف يجعلون من الشيء الكثير شيئا قليلا جدا، نلتقي حتى هؤلاء السحرة بالمقلوب الذين، عوض أن يُخرجوا العالم من العدم يُخرجون من العالم عدما.

628. الجد في اللعب.

في جنوة، سمعت ذات مساء وقت الغروب، أجراسا تدق طويلا في صومعة. لم تتوقف الأجراس، وفضلا عن صخب الشارع، كان صوتها يتموج، وكأنه لايشبع من نفسه، مسافرا في السماء الغروبية وفي النسيم البحري، كثيبا جدا، طفوليا جدا في الوقت ذاته، وفيه حزن لاينتهي. عندها تذكرت كلمات قالها أفلاطون فأحسست بوقعها على التو في قلبي : **لاشيء مما هو إنساني، لاشيء، جدير بالجدية التامة، ومع ذلك...**

629 . عن القناعة والعدل.

إن ما يقوله المرء أو يَعِدُ به أو يقرره وهو في حالة انفعال يُعتبر واجبُ القيام به فيما بعد، ببرودة دم وبمزاج صافٍ، واحدا من أثقل الأعباء التي ترهق كاهل الإنسانية. إن إرغام الناس على القبول، إلى الإبد، بعواقب الغضب، بالإنتقام الذي تشتعل ناره، بالإخلاص المتحمس، قد يثير سخطاً كبيرا على هذه الأحاسيس،خصوصاً وأنها محل تقديس وثني في كل مكان، خاصة من طرف الفنانين. إنهم هم من غالى ويغالي في **مزاد الإنفعال**، صحيح أنهم يشيدون كذلك بترضية الإنفعال المرعبة التي يقوم بها الناس نحو أنفسهم، بتفجرات الإنتقام التي يليها الموت، التقتيل، النفي الإختياري،

واستسلام القلب المكلوم. إنهم بمحافظتهم على فضول يقظ بشأن الإنفعالات كأنما يقولون : دون الإنفعالات لاتكون حياتك قد عرفت شيئا. - لأن المرء أقسم على الوفاء، ربما لوهم محض، لإله مثلا، لأنه أسلم قلبه لأمير، لحزب، لامرأة، لنظام كهنوتي، لفنان، أو لمفكر، وهو في حالة من الوهم الذي أدى له إلى الإنخطاف وأبدى له أولئك الأشخاصَ جديرين بالتبجيل وبكل التضحيات - أيكون لذلك قد ارتبط بها دون أمل في التخلص ؟ ألم نخطىء صدد أنفسنا ؟ ألم يكن وعدا افتراضيا أعطيناه على الشرط الذي يفترض، والذي بقي مَضْمَراً، أن هؤلاء الأشخاص الذين نكرس لهم أنفسنا هم فعلا تلك الكائنات التي كانوا يتخذون صورها في خيالنا ؟ هل علينا أن نظل أوفياء لأخطائنا حتى وإن اعترفنا أننا بهذا الوفاء نؤذي أنانا العليا ؟ - ليس هناك قانون أو إلزام من هذا النوع، إننا لانملك إلا أن نصير خائنين، أن نلجأ إلى الخيانة، أن نتخلى عن مُثلنا العليا بعضها تلو البعض الآخر. إننا لانمر في حياتنا من مرحلة إلى أخرى دون أن نتسبب للغير في آلام الخيانة ونعاني منها بدورنا. هل علينا، كي ننجو من هذه الآلام، أن نحتاط من فوران أحاسيسنا ؟ ألن يصير العالم عندها، بالنسبة لنا، موحشا جدا، شبحيا جدا ؟ لنتساءل بالأحرى أن كانت هذه الآلام، إن افترضنا حدوث **تغيير** في القناعة، **ضرورية**، وإن لم تكن متعلقة برأيوبتقييم **خاطئين**. لماذا نعجب بالذي يظل وفيا لقناعته ونزدري الذي يغيرها ؟ أخشى أن يكون الجواب : لأن كل الناس يفترضون أن وحدها دوافع الفائدة الضئيلة أو الخوف الشخصي تكون وراء ذلك التغيير. أي أن الناس يعتقدون أنه لا أحد يغير آراءه، في الحقيقة، مادامت مفيدة له، أو مادامت لا تؤذيه، على الأقل. لكن، إن كان الأمر كذلك فهو علامة سيئة بالنسبة للقيمة **الفكرية** لكل القناعات. لنتفحص قليلا كيف تتشكل القناعات، لننظر إن لم نكن نبالغ كثيرا في تقديرها : سينتج عن ذلك أن يقاس **تغيير** القناعات هوالآخربمقياس خاطىء في كل الحالات وأننا، بفعل الاعتياد، قد عانينا كثيرا من هذا التغيير.

.630

القناعة هي الاعتقاد أننا نملك الحقيقة المطلقة بخصوص نقطة ما من المعرفة. إذن فهذا الإعتقاد يفترض أن هناك حقائق مطلقة، أننا قد عثرنا كذلك على الطرق الممتازة الموصلة إليها، وفي الأخير أن كل من له قناعات يطبق هذه الطرق الممتازة. تظهر هذه الإفتراضات الثلاثة في الحين أن الإنسان ذا القناعات ليس هو إنسان الفكر العلمي، إننا نراه في سن البراءة النظرية، إنه طفل، مهما يبد راشدا. لكن ألفيات كثيرة عاشت بهذه الفرضيات الطفولية، ومنها انبثقت أقوى منابع الطاقة بالنسبة للإنسانية. هؤلاء الرجال،

الذين لايحصى عددهم، الذين كانوا يضحون بأنفسهم من أجل قناعاتهم، كانوا يعتقدون أنهم يفعلون ذلك من أجل الحقيقة المطلقة. وقد كانوا كلهم على خطأ في ذلك : من المحتمل ألا يكون هناك رجل واحد ضحى من أجل الحقيقة، حتى الآن، على الأقل لن يكون تعبيره الدوغمائي قد اكتسب شيئا من العلمية وإلا فشيئا يكاد يكون لاشيء. لكن ما كان الناس يريدونه فعلا هو أن يكونوا على صواب، لأنهم كانو يعتقدون أنهم **ملزمون** بأن يكونو اعلى صواب. أن يدع المرء اعتقاده يُنْتَزَعُ منه ربما كان يعني وضع نعيمه الأخروي موضع تساؤل. في مسألة على هذا القدر الكبير من الأهمية كانت الـ «إرادة»، بشكل واضح، مُلَقِّنَ* الفكر. كانت مُسَلَّمَةَ كل مؤمن، كيفما كان انتماؤه، هي أنه **لايمكن** دحض اعتقاده، وإذا بدت الحجج المضادة قوية فتبقى لديه دائما إمكانية القدح في العقل بشكل عام، بل ربما إمكانية رفع راية التطرف الشديد القائلة، **أعتقد أن هذا عبث**. إن ماسبب العنف الكثير الذي يرويه التاريخ ليس هو صراع الآراء بل صراع الإيمان في الآراء، أي القناعات. لو أن كل الذين كانوا يُنَمُّون فكرة كبيرة عن قناعتهم ويقدمون من أجلها كل أنواع التضحيات ولايدخرون في خدمتها لاشرفهم ولاحياتهم، لو أنهم خصصوا ولو نصف قواهم ليبحثوا بأي حق يتمسكون بهذه القناعة أو تلك، ليبحثوا الوسيلة التي أوصلتهم إليها، فكم كان تاريخ الإنسانية سيبدو سليما ! كم مزيداً من المعارف سيكون لدينا ! كانت كل مشاهد القسوة التي ترافق اضطهاد الهراطقة على اختلاف أشكالهم سيتم توفيرها علينا لسببين : أولا، لأن المحققين سيكونون هم أول من يخضع لتحقيقهم، وهكذا سيفلتون من ادعاء الدفاع عن الحقيقة المطلقة، ثم لأن الهراطقة أنفسهم لن يولوا أدنى أهمية لمبادىء لاتقوم على أساس جيد، مثلما هي مباىء كل الطائفيين والمتدينين «القويمي المعتقد»، بعد أن يتفحصوها.

.631

هذه العصور التي اعتاد الناس فيها الإعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة هي أصل هذا **القلق** العميق الذي يصيب كل المواقف الشكوكية والنسبية بخصوص أية نقطة من نقط المعرفة. يفضل الناس في أغلب الوقت أن يخضعوا دون تحفظ لقناعة يحميها أشخاص لهم بعض السلطة (آباء، أصدقاء، أساتذة، أمراء)، ويشعرون، حين لايفعلون ذلك، بنوع من الندم. هذا الميل مفهوم جدا، ونتائجه لاتسمح إطلاقا بذلك اللوم العنيف

* الملقن في المسرح شخص لايراه الجمهور يلقن الممثل ما نسيه من كلمات (المترجم)

الذي نوجهه لتطور العقل الإنساني. لكـن العقل العلمي ينبغي أن يُنْضِجَ لدى الإنسان، بالتدريـج، مزية **الامتناع الحذر** والاعتدال المتعقل المعروفان في ميداني الحياة العملية والنظرية، واللذان، كما تمثلهما شخصية أنطونيو عند غوته، يعتبران موضوع سخط كل المعادين للعلم والخاملين أمثال شخصية tasse.* للإنسان ذي القناعة الحق في عدم فهم إنسان الفكر الحذر، أعني المنظر أنطونيو، بالمقابل، ليس لرجل العلم الحق في تأنيب الآخر، يراقبه من عل ويعرف، فضلا عن ذلك، أنه سيتعلق به، عند اللزرم، مثلما يتعلق Tasse بأنطونيو في الأخير.

.632

الذي لم يمر بقناعات متعددة بل تمسك بالإعتقاد الأول الذي وقع في شباكه هو في كل الحالات، وبسبب هذا الجمود بالذات، ممثل **حضارات** متخلفة، وبفعل هذا النقص في الثقافة (الثقافة تفترض قابلية للتربية) فهو عنيد، لا يُفْهَمُ، متمرد على كل تكوين، غير متسامح، إنه إنسان الريبة الدائمة وعدم التبصر، يهرع إلى كل الوسائل التي تمكنه من فرض رأيه لأنه لن يفهم أن هناك بالضرورة آراء أخرى. ربما يكون، بهذا الإعتبار، منبع قوة، بل وصحيا في حضارات متحررة ومتساهلة كثيرا، لكن فقط إذا ما حرض الآخرين بقوة على أن يواجهوه: لأن مشروع الحضارة الجديدة الرهيف، المرغم على الدخول معه في صراع، يستمد قوته من هذا الصراع هو بدوره.

.633

لازلنا في جوهرنا مثل رجال الإصلاح؛ كيف سيكون الأمر بخلاف ذلك ؟ لكننا لم نعد نسمح لأنفسنا باستعمال بعض الوسائل كي نسهم في انتصار رأينا، وهذا، وهو ما يميزنا عن تلك المرحلة، يبرهن كذلك على أننا ننتمي إلى حضارة أسمى. في وقتنا الحاضر، كل من يستعمل، على طريقة رجال عصر الإصلاح، تلميحات مرتابة وتفجرات الغضب ليصارع آراء ويسحقها يكشف حقا أنه كان سيحرق خصومه لو أنه عاش في أزمنة أخرى، وأنه كان سيلجأ إلى كل أساليب التحقيق لو أنه عاش عدوا للإصلاح. في ذلك العصر كان التحقيق معقولا لأنه لم يكن يعني شيئا سوى حالة الحصار العام الذي كان إعلانه ضروريا فوق كل تراب الكنيسة والذي كان، مثل أي حالة حصار، يبرر استعمال الوسائل القصوى، بما فيها المُسَلَّمَة (التي لانشترك فيها اليوم

* المرجع هو : Goeth , Torquato Tasso

مع أولئك الرجال) التي مفادها أن الحقيقة كانت **محفوظة** داخل الكنيسة وأنه كان لابد من حمايتها مهما كان الثمن، ومهما كانت التضحيات، من أجل خلاص الإنسانية. لكننا في وقتنا الراهن لانسمح لأي أحد،بمثل هذه السهولة، أن يمتلك الحقيقة : فطرق البحث الصارمة قد نشرت، بشكل واسع، الحذر والتيقظ حتى يُعْتَبَرَ كُلٌّ من يدافع عن آرائه بكلمات وأعمال عنيفة عدوا لحضارتنا الحالية، أو متخلفا على الأقل. الواقع أن الشغف الذي يتم به ادعاء امتلاك الحقيقة قد فقد الآن كل قيمة تقريبا في نظر ذلك الشغف الآخر، الأكثر تواضعا والأقل رنينا، الذي يرافق بحثنا عن الحقيقة، دون أن نكل من مراجعة وإعادة احتبار معارفها.

.634

البحث المنهجي عن الحقيقة هو، فضلا عن ذلك، نتيجة تلك العصور التي كانت القناعات تتصارع فيها. لو أن الفرد لم يتمسك ب «حقيقت»ه هو، أي بأن يكون دائما على صواب، لما كانت هناك أية منهجية للبحث، ولكن هكذا، داخل هذا الصراع الأزلي لادعاءات مختلف الأفراد امتلاك الحقيقة المطلقة، تقدم الناس خطوة خطوة إلى اكتشاف المبادىء المتعذر دحضها التي بها أمكن فحص صحة هذه الإدعاءات وتهدئة صراعها. كانت البداية هي الفصل حسب النفوذ، لاحقا تم الإنتقال إلى النقد المتبادل للطرق والوسائل التي بواسطتها تم العثور على الحقيقة المزعومة. وقد تخللت ذلك مرحلة حصلت فيها النتائج من المبدأ الخصم، ربما لأنها وُجِدَتْ ضارة وجديرة بجلب التعاسة وكان لا بد أن ينتج عن ذلك، خلال إصدار الحكم على كل واحد، أن قناعة الخصم تحتوي على خطأ. أخيرا، لقد شحذ **الصراع الشخصي للمفكرين** المنهجيات جيدا بحيث أصبح في الإمكان الإكتشاف الفعلي للحقائق وإظهار أخطاء المنهجيات السابقة.

.635

إجمالا، المنهجيات العلمية هي نتيجةٌ للبحث لها من الأهمية، على الأقل، قدر ما لأية نتيجة الأخرى، لأن العقلية العلمية ترتكز على ذكاء المنهجية، ولن يمكن لنتائج العلم كلها، لو افتقدت هذه المنهجيات، أن تمنع عودة الخرافة والعبث إلى السيادة مرة أخرى. يمكن لأناس أذكياء أن يتعلموا كل ما شاؤوا من نتائج العلم، لكننا سنلاحظ، مع ذلك، في حديثهم، وخاصة في الفرضيات التي تظهر فيه، أن العقلية العلمية لاتزال تنقصهم : ليس لديهم، تجاه زيغان الفكر، ذلك الحذر الغريزي الذي تجذر في روح كل رجل علم إثر ممارسة طويلة. يكفيهم أن يجدوا فرضية بخصوص موضوع ما فإذاهم

يتعلقون بها أشد مايكون التعلق، متخيلين أنهم بذلك قد قالوا كل شيء. أن يكون لهم رأي، في نظرهم، معناه أن يتعصبوا له ويعتنوا به، منذ ذلك الحين، عناية خاصة تكون بمثابة قناعة. إن كان هناك شيء غير مُفَسَّر فإنهم يتحمسون لأول تصور يخطر على بالهم ويشبه تفسيرا له، وباستمرار ينجم عن ذلك، خاصة في ميدان السياسة، أوخم العواقب. لهذا يجب على كل الناس اليوم أن يعرفوا حق المعرفة علما **واحدا** على الأقل، وآنداك سيعرفون ماهي المنهجية وما يلزم فيها من تيقظ. من المناسب إسداء هذا النصح، بشكل خاص، للنساء اللائي هن الأن ضحايا زمنات لكل الفرضيات، خاصة إن بدت لديهن المهارة، السحر الذي لايقاومَ، الحياة والقوة المُمكن نقلها للآخرين. لو دققنا النظر للاحظنا أن الأغلبية الساحقة من الناس المثقفين لاتزال تطلب من المفكر قناعات ولاشيء غير القناعات، وأن أقلية صغيرة فقط هي التي تريد **يقينا**. الأوائل يريدون أن يتم تدريبهم بقوة حتى يكتسبوا من ذلك طاقة زائدة، وهذا البعض الآخر يهتم في ذلك بهدف موضوعي يغض الطرف عن الفوائد الشخصية بما فيها فائدة الطاقة الزائدة. على الصنف الأول، الواسع الهيمنة، يعتمد الناس حيثما اعتبر المفكر نفسه عبقريا، إنها شريحة لها غطرسة كائنٍ متفوق من حقه السلطة. إذا ما غذى عبقري هذا النوع نار القناعات وأثار الريبة بخصوص العقل العلمي الحذر والمتواضع فإنه يكون عدوا للحقيقة، حتى حين يعتقد أنه يحبها كثيرا.

.636

صحيح أن هناك نوعا مخالفا تماما من العبقرية، إنها عبقرية العدالة. ولن أصمم أبدا على اعتبارها أدنى من أي نوع كان من العبقرية، سواء كان فلسفيا، سياسيا أم فنيا. من طبعها أن تولي ظهرها بنفور صريح لكل ما يكدر حكمنا على الأشياء ويجعله حكما أعمى ، وهي بالتالي **عدوة القناعات**، لأنها تنوي أن تنصف كل الكائنات، حية أو جامدة، حقيقية أو خيالية – ولأجل هذا يلزم اكتساب معرفة محضة؛ كما أنها تجلي كل موضوع بأفضل ما يمكن وتستعرضه بعيون يقظة. وفي نهاية المطاف ترد حتى لعدوتها، أي لل«قناعة» العمياء أو الحسيرة النظر (كما يسميها الرجال، أما لدى النساء فاسمها هو «الإيمان»)، ترد لها ما يعود للقناعة – حُبًّا في الحقيقة.

.637

الإنفعالات هي التي تولد الآراء، **وبلادة الذهن** تجمدها في شكل **قناعات**. لكن الذي يشعر بعقله **حرا** وذا حيوية لاتكل يمكنه أن يمنع هذا التجميد بتغيرات مستمرة، وإن كان، إجمالا، كرةَ ثلجٍ مفكرةً فإن ما سيكون في ذهنه ليس أراء بل فقط يقينيات

واحتمالات متزنة. أما نحن، ذوي الطبع المختلط، المتوجون تارة بنار الحماسة، والمرتعشين ببرودة الذهن تارة أخرى، فنركع أمام العدالة، الإلهة الوحيدة التي نعترف بها فوقنا. **تلك** الحماسة التي فينا عادة ما تجعلنا غير عادلين وتجعلنا، في نظر هذه الإلهة، دنسين، ولن يسمح لنا أبدا، في هذه الحالة، بأخذيدها، إذن فلن نحظى أبدا بابتسامة فضلها الرصينة. سنجل فيها إيزيس (Isis) حياتنا المحتجبة، وفي حال ندمنا سنمنحها ألمنا كتكفير وتضحية كلما ألهبتنا نار الحماس وهددت بالتهامنا. **العقل** هو الذي سينقذنا من أن نحترق ونفنى تماما، هو الذي سينتزعنا، من وقت لآخر، من على مذبح العدالة، أويلفنا في قماش من الحرير الصخري. آنداك سنتقدم، مدفوعين بالعقل، من رأي لرأي، مجتازين تنوع الأحزاب في صفة خائنين سامين لكل الأشياء القابلة، في نهاية المطاف، للخيانة - ودون أن نشعر بالذنب، مع ذلك.

638. المسافر.

إن الذي بَلَغَ تحرر العقل، ولو بقدر معين، لن يشعر على الأرض بشيء آخر غير كونه مسافرا، - في سفر لايرمي، مع ذلك، **إلى** غاية أخيرة : لأنه ليست هناك غاية أخيرة. لكنه في الأخير سينظر بعينين مفتوحتين إلى مايجري في العالم، ولا ينبغي له أن يتعلق قلبه تعلقا كبيرا بأي شيء مستقل، يجب أن يكون فيه كذلك جانب تائه تكون لذته في التغيير والإجتياز. لاشك أن هذا المسافر سيعرف ليالي سيجد خلالها، وقد هَدَّهُ التعب، باب المدينة التي كانت ستوفر له الراحة موصدا، وفضلا عن ذلك، ربما تمتد البيداء، كما في الشرق، حتى تلك الباب، ربما يسمع عواء السباع بعيدا تارة وقريبا تارة أخرى، ربما تهب ريح قوية، ربما يسرق منه قطاع الطرق دوابه التي يركبها. وقتها سيكون الليل المرعب، بالنسبة له، بيداء أخرى تهبط على البيداء، وسيشعر أن قلبه سئم كل الأسفار. فإذا شمس الصباح أشرقت، وهي من شدة الوهج كإله الغضب، وفتحت أبوابها المدينة، فربما سيرى على وجود سكانها من البيداء، من القذارة، من المكر، ومن انعدام الأمان أكثر مما آه عند الأبواب - وسيكون النهار، مع اختلاف يسير، أسوأ من الليل. قد يكون هذا هو قدر المسافر، في بعض اللحظات، لكن تأتي فيما بعد، لتعوضه عنه، في بلدان أخرى، صباحات بهيجة، أيام أخرى يرى فيها منذ خيوط النور الأولى عند الفجر جوقة رباب الشعر وسط ضباب الجبال ملامسة إياه في رقصاتها، وبعد ذلك، وهو يتجول تحت الأشجار، هادئ، في اعتدال روحه - ما قبل - الظهيرة (son âme d'avant Midi) يرى وابلا من الأشياء الجميلة والصافية وهي تنزل عند قدميه من قممها ومخابئها الخضراء، هدايا من كل تلك الأرواح الحرة التي تسكن

الجبل والغابة والـتوحد، والتي هي، مثله، مسافرة وفـيلسوفه على طريقتهـا السعيدة تارة والتأمـلية تارة أخـرى. إنها تفكـر، وقد ولدت من سـر الصباح، في مـا قد يضفـي على النهـار، بين الساعة الـعاشرة والثانـية عشرة،وجها صـافيا جديدا، مـشعا بالنـور، بالجلاء الهادىء الذي يجمله : إنها تبحث عن **فلسفة ما قبل الظهيرة**.

فيما بين الأصدقاء

قصيدة الختام

1

جميل أن نصمت معا،
أجمل أن نضحك معا،
تحت خيمة سماء من حرير،
والظهر إلى رغوة الزان،
ضحكُ الأصدقاء، قهقات قلبية
وأسنان بيضاء تلوح.

إن ربحت سنصمت،
إن أسأت فلنضحك
ولنسيء أكثر فأكثر،
كلما أسأنا، كلما ضحكنا،
فهناك القبر هناك ينتظر.

هذا، ياأصدقاء ! أنحصل عليه ؟ ...
كذلك ليكن ! وإلى اللقاء !

2

لا أعذار ! لا ولا صفح !
أيها السعداء، خَلِيُّو القلب،
لهذا الكتاب اللامُبَرَّر

افتحوا قلبكم، سمعكم والمأوى !
صدقوا، أصدقائي، جنوني
لاتتبعه اللعنة !

ما أجِدُ وعنه أبحث، أنا،
ما عنه تحدث كتاب قط ؟
أُمَّةَ المجانين فِي بجلوها !
وكتابَ المجنون هذا فيه تعلموا
كيف العقل يأتي... على صواب !

هذا، أصدقائي، أتحصلون عليه ؟...
كذلك ليكن ! وإلى اللقاء !

ثبت الأعلام والشذرات التي وردوا فيها

دليـــل عــربي فــرنـــسي

Achlocratique	دهماني
Acte - Action	فعل
Affirmation	إقرار - إثبات
Amour - propre	كبرياء
Antiquité	قدم
Antithése	نقيضة
Assimilation	تشبيه
Bienveillance	إرعاء
Bonne consience	راحة الضمير
Capacité d'existence	صفة الوجود
Causalité	سببية
Cause	علة
Cause occasionnelle	سبب موجب
Chose en soi (la)	الواقع المطلق
Circonstances deter-minantes	ظروف موجبة
Condition d'existence	شرط الوجود
Conscience	شعور - وعي
Conscience pur	وعي خالص
Disillusion	خيبة
Dividuum	كائن يتجزأ
Devenir (le)	الصيرورة
Effet	معلول
Ego (l')	الأنا
Esse (l')	الخلق
Essence (l')	الجوهرة
Essentialiser (s')	يتجوهر
Etre (L')	الكينونة
Force stimulante	قوة محرضة
Hydrophobie	رُهاب الماء
Hypochondrie	وسواس المرض
Impératif catégorique (l)	أمر قطعي
Identité	تماثل
Idealisation	أمثلة
Identification	مماثلة
Identique	مماثل
Inconditionnant	لامشترط
Individu collectif	فرد جمعي
Individuum	كائن لايتجزأ
Inné	فطري
Intelligible	معقول
Introspection	استبطان
Justice éternelle	عدل ثابث
Liberté de la volonté	حرية الإرادة
Libre arbitre	حرية الاختيار
Miraculeux	مُعجزي
Moi supérieur (le)	الأنا العليا
Motifs	بواعث
Motifs agissants	دوافع فاعلة
Nécessité	ضرورة. لزوم
Négation	إنكار - جحود
Objet en soi	موضوع في ذاته
œcuménique	مسكوني- عالمي
Onirique	حُلمي
Operari (l)	العمل (بحرية)

Par analogie	بالقياس
Paralogisme	قياس فاسد
Personnalité collective	شخصية جمعية
Phénoménal	ظاهراتي
Physique	مادي - جسدي
Pneumatique	روحي
Pragmatisme	ذرائعية
Predicat	محمول
Représentation	تمثُّل
Rétributif	تعويضي
Rétrograde	نكوصي
Rétrospectif	استعادي
Scepticisme	شكوكية
Simulacre	صورة زائفة
Substrat	موضوع
Sujet connaissant (le)	الذات العارفة
Suranimal	فَوْحَيَوان
Surhumain	فَو إنساني
Surnaturel	فو طبيعي
Symmachie	تساوق في التصور
Téléologie	غائية
Thèse	طريحة
Tradition	تقليد - تَحْدار
Tragique	مأساتي
Uniformiser (s')	التأحُّد
Utilitarisme	نفعية
Utopiste	حالم
Vouloir vivre (le)	إرادة الحياة
Vraisemblance	استلاحة

فهرس



NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

إنسان مفرط في إنسانيته

كتاب العقول الحرة

I

إنك تملك سلطة أن تجعل كل لحظات حياتك : من محاولات ، أخطاء ، زلات ، أوهام ، أهواء ، حبك وأملك ، أن تجعلها تنسجم تمامًا مع الهدف الذي رسمته لحياتك . هذا الهدف هو أن تصير أنت نفسك سلسلة ضرورية تضم حلقات الحضارة ، وأن تخلُص من هذه الحتمية الى حتمية تقدم الحضارة العالمية . حين يكون بصرك حادًا جدًا كي يغوص في أعماق بئر كينونتك ومعرفتك الغامض ، فمن المحتمل أن تبدو لك على صفحة مائه اللامع المعجزات البعيدة للحضارات الآتية . أتظن أن حياة ترمي إلى هدف كهذا ستكون شاقة جدًا وعارية تمامًا من كل لذة؟ إنك إذن لا زلت لم تعلم أنه ليس هناك عسل أشهى من عسل المعرفة ، وأنه سيشرق اليوم الذي تكون فيه السحب التي تجر الكدر ثديًا ترضع منه حليب تسليتك .

محمد الناجي



لوحة الغلاف للفنان المغربي
أحمد الشرقاوي

ردمك

ISBN 9981-25-076-7
9 789981 250765